صفحات من حياة
الإمام شيخ الإسلام
الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه

طبعةٌ مزيدةٌ وبحرفٍ جديد

بقلم

تلميذه وابن أخته وصهره

نور الدين عتر

Uploaded by
Shaykh Asrar Rashid
Birmingham
14/05/2026

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي القارئ الكريم:

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت فى هذا الكتاب أو نظرت إليه،
واهد ثوابها إلى الإمام شيخ الإسلام علامة التفسير لكتاب الله
وحافظ حديث رسول الله ﷺ، ومسنده بالأسانيد العالية
المتصلة إلى رسول الله ﷺ وفقيه الملة، وكبير أولياء هذه
الأمة الإسلامية لهذه الفترة، فضيلة العارف بالله الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني رضى الله تعالى عنه،
وأجزل عنا وعن المسلمين مثوبته، إنه هو السميع المجيب.

آمين

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م
الطبعة الثانية
١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م
فيها تعديلات وزيادات مهمة

جميع حقوق التأليف والطبع
والاقتباس الكلي والجزئي والتصوير وغير ذلك محفوظة

موافقة الرقابة في وزارة الإعلام
رقم ٧٢٧٧٤
تاريخ ١٦/٧/٢٠٠٢ م

توزيع
دار الرؤية
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ
﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
دَرَجَٰتٍ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

صدق الله العظيم

صفحات من حياة

الإمام شيخ الإسلام

الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه

بقلم

تلميذه وابن أخته وصهره

الأستاذ الدكتور الشيخ نور الدين عتر

كلية الشريعة - جامعة دمشق

Uploaded by

Shaykh Asrar Rashid

Birmingham

14/05/2026

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصدير الطبعة الثانية

الحمد لله على نعمائه، وأفضل الصلاة والسلام على خيرته من أنبيائه، سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه.

أما بعد:

فقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وكان التيسير الإلهي الظاهر في صدورها فأل خير بالقبول، كما كان حُسْنُ تلقيها من القراء في مختلف البقاع بشارةً بالنجاح في تحقيق السُول، وقد تلقيت من السادة العلماء الفضلاء، ومن القرّاء النُبهاء الأعزاء، عبارات كثيرة، وكلمات فياضة بالمديح والثناء، لا سيما لما لوحظ من أثر هذا الكتاب في قارئه، وأنه يغير حياة متأمِّله، أو كما قال ـ ملخصاً للكلمات الكثيرة ـ فضيلة صديقنا العلامة المفضال الفقيه الزاهد الورع، الأستاذ الشيخ محمد أمين سراج[1] ـ وهو مِنْ خُلَّص

(١) فضيلة الشيخ العلامة الزاهد محمد أمين سراج، صديقنا منذ أيام الدراسة في الأزهر، عالم جليل، وفقيه محقق، ومحدث مسند، شيخ حلقات العلم في جامع السلطان محمد الفاتح في استانبول، عرفنا فيه الورع والزهد، والجهر=

مَنْ عرفنا في هذا العصر ـ قال حفظه الله تعالى في كلمة شكر أرسلها إليّ:

«شكري الجزيل لكم لهذا الكتاب في سيرة إمام العصر، لأن هذا الكتاب يحتوي منهجاً للسالك والطالب، جزاكم الله خير الجزاء لتحضير هذا السفر القيم».

وإنه ليسرنا أن نخرج هذا الكتاب وقد نفذت نسخه سريعاً جداً بإخراج جديد، في حرف جديد، وتصحيح دقيق، وإضافات فوائد قيمة، ليزداد نفع الكتاب وأثره في تجديد إيمان قارئه، وبعثه على تجديد حياته، بالقدوة الصادقة بالنبي المصطفى، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً.

اللهم حققنا بذلك بفضلك وكرمك يا ذا الفضل العظيم. اللهم آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

عشاء الجمعة	خادم القرآن وعلومه والحديث وعلومه
٢٠/ ذو الحجة/ ١٤٢٣ هـ	نور الدين عتر
٢١/ ٢/ ٢٠٠٣م	جامعة دمشق ـ كلية الشريعة

= بالحق، والتفاني في خدمة العلم والدعوة إلى الله، أطال الله بقاءه، ونفعنا به والمسلمين. وقد اكتفينا بكلمته هذه عن الكثير مما تلقيناه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي حفظ هذا الدين على تعاقب الأيام والسنين، وأيد حجته ورفع منارته بما وفق إليه أئمة العلم العاملين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى أئمة العلم منارات الهدى في كل عصر وحين.

أما بعد:

فإن الله تعالى ختم الرسالات برسالة خير البريات، عليه من الله أفضل الصلوات والتسليمات. وتكفل بحفظ دينه، فجعل سبحانه من علماء هذه الملة منارات هداية، تنشر علوم هذا الدين، وأمدهم بقوة العلم، ونور البيان، ما تسطع به الحجج، ويقوم على اليقين من البرهان، ووفقهم لغاية الصلاح في العمل والتقوى، بما يجعلهم أسوة يقتدي بهم أهل الإيمان، وتقوم بهم الحجة على بني الإنسان، قال عز وجل: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقد قرر أئمة العلم أنه لن يخلو عصرٌ من قائم لله بالحجة. ولله الحمد والْمِنَّة.

وإن من عظماء أئمة العلم والدين وحججِ الله على العالمين

فضيلةَ شيخنا الإمام شيخ الإسلام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني رحمه الله ورضي عنه، فإنه إمام في علوم الشرع، إمامٌ في علوم النقل والعقل، إمام في العرفان والورع، إمام في التعبد والتقوى، وقد كانت المصيبة به عظيمة بل عظمى، والخطب جللاً بل أجل، ولا يسعنا إلا امتثال أمر الله والرضا بقدره، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا كان الشيخ الإمام حجة على الخلق في حياته، قدوة في تعبده وورعه، فإن نشر تأليف في ترجمة حياته وسيرته، ومنهاجه في العلم والعمل، هو استدامة لهذه الفضائل، وإنارة للسبيل نحو الاتباع لكل راغب وسائل، ومن ثَمَّ كثرت الطلبات إليّ، وتزايد الإلحاح عليَّ أن أُعِدَّ كتاباً تعريفياً ولو مختصراً، يقتصر على نبذ من سيرته، فإنه يَبُلُّ ظمأ المتطلعين للعلم به، ويرد لهفة المتشوقين لتذكر أموره، ويوضح الطريق نحو الاتباع بمعرفة عمله ومشربه، ولذلك عُني العلماء بذكر الشواهد في أمور الدين، من حياة علماء الأمة الورعين لأن ذلك يوضح للناس المَحَجَّة، ويزيدُ إلزامهم بالحجة، ويثير كامن نشاطهم، ويستحثهم وينهض بعزائمهم.

والحقيقة أن الكتابة عن شيخنا العلامة سراج الدين عمل مهيب، وأنها تحتاج لجهد حثيث، على الرغم مما يُظَنُّ من سهولتها عليَّ، لقرابتي منه في النسب بكوني ابن أخته، وفي التلقي بالتلمذة عليه منذ حداثتي، مستمرة إلى آخر حياته وحياتي، إضافة إلى قرب المصاهرة التي شرفني بها الله عز وجل، ثم تفضل بها شيخنا عليَّ، لكن هذه الكتابة مطلب عزيز المنال، هو في الحقيقة من السهل الممتنع، لما في حياة الشيخ من الجوانب المتعددة الكثيرة، والتي هي عالية الرتبة والمقام، علواً يعز أن يحيط به الاختصار في البيان.

هذا إلى جانب خصوصية أخرى مهمة هي قلة حديث الشيخ عن نفسه رضي الله عنه لما قد غلب عليه من التواضع، وهضم النفس، حتى كنا لا نحصل على معلومات عنه إلا بسؤاله، أو ما يأتي عرضاً في أثناء كلامه، وقد كتبنا شذرات من مقولاته في العلم وقضايا كثيرة، ومنها لمحات عن حياته، كما أنه يُسِّرَ لأبنائي شيء كثير حفظوه وكتبوا منه، ولا سيما ابننا الشهيد الطبيب محمد مجاهد، رحمه الله وأعلى مقامه، فقد أُولِعَ بجده وملازمته، ودَوَّنَ لنا أشياء مهمة جداً، كثير منها لا يعرفه غيره من الأسرة رحمه الله تعالى.

ولما أن شيخنا الإمام تطرق لأمور تتصل به في ثنايا ترجمته لوالده جدنا الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنهما، فقد اعتمدنا كتابته، فهي أوثق مرجع في هذا الباب.

وبهذا نرجو أن تكون هذه الدراسة أدق وأوثق، لاعتمادها على وثائق مدونة، أو على مذاكرة مع من له صلة بالقضية التي نعرضها.

وإنا نقدم هذه الصفحات من حياة شيخنا رحمه الله تعالى تذكرة لأهل العلم، بما يكون عليه العالم.

ونقدم هذه الصفحات تذكرة لطالب العلم ليقتدي بالشيخ فيما أعدّ به نفسه للمستقبل، من حرص على التحصيل والاستحفاظ، والتلقي عن أهل العمل الصالح والولاية.

ونقدمها لكل أب ومرب إرشاداً لتحضير الجيل الجديد للمستقبل الواعد.

ونقدمها لكل مسلم، بل للعالم صورة يُقتدى بها في التقوى واتّباع هذا الدين، في عقائده، وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وسائر أحواله، والتي هي كلها اقتباس من نور الهداية المحمدية ﷺ.

ومن الواجب التنبيه إلى أن هذا كُتَيِّبٌ تعريفي بشيخنا الإمام، وما هو إلا نبذة يسيرة، وقطعة صغيرة، ونحن بصدد تأليفٍ جامعٍ شامل إن شاء الله تعالى، عسى أنْ نوفي الشيخ الإمام مما يجب علينا، وإنا نوجه النداء لكل مَن عنده علم بشيء عن شيخنا الإمام أن يوافينا به، على عنوان حلب في الصيف وهو ص.ب /٩٣٠٣/، وفي باقي الأوقات إلى دمشق ص. ب /٣٠٣١٦/ [١].

وإن وفاء العالم حقه دَين في عنق الأمة، فلتبذل أخي المسلم ما بوسعك لوفاء هذا الحق، وبالله التوفيق.

اللهم انفع بهذا الكتاب، واجعله سبباً لإحياء السنة واتباعها بما فيه من سيرة شيخنا الحافظ الفقيه الورع، المفسر المحمدي المتبع، وأجزل مثوبته عنا وعن الإسلام والمسلمين وعن العلم والدين، وأَعْلِ مقامَه في الصديقين والأنبياء والمرسلين. اللهم آمين.

وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) وقد وافانا جمع من الإخوة الأحبة بإفادات نافعة، اقتصرنا على ما رأيناه مناسباً، فَشَكَرَ الله لهم بِرّهم، ونأمل المزيد، فالزيادة من الخير خير.

حياة الشيخ الإمام العامة

بدء أمر الشيخ وطلبه للعلم

رؤيا نبوية مبشرة:

في ليلة رأى [بعض خاصة][1] فضيلة العالم والمرشد الشهير الشيخ سليم خلف [ولعله الشيخ محمد أبو النصر] رضي الله عنهما حضرة النبي ﷺ وهو يحمل طفلاً رضيعاً ويرضعه من ثديه الشريف، فيسألونه: مَن هذا يا رسول الله فيقول ﷺ: إن ابننا الشيخ محمد نجيب قد أتاه ولد، وهذا هو.

وقد وافقت الرؤيا ولادة شيخنا الشيخ عبد الله سراج الدين ابن شيخنا الجدّ الإمام محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنهما، فكانت الرؤيا بشارة عظيمة بعلو شأنه رضي الله عنه، وأنه ممن ثبت فيهم الحديث النبوي الشريف: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين بغرس يستعملهم في طاعته»[2].

اسم الشيخ ونَسَبه:

والشيخ هو العلامة الإمام شيخ الإسلام المحدث الحافظ، والفقيه

---

(١) ما بين المُعَقَّفين زدناه على النص الأصلي رعاية لمطابقة التاريخ، فإن فيه سهواً فيما يبدو.

(٢) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه وابن حبان في صحيحه، وصححه أيضاً البوصيري في زوائد ابن ماجه.

المحقق، والمفسر المجتهد، والعارف المدقق، والعالم العامل الورع الرباني، الشيخ عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة العارف محمد نجيب ابن محمد سراج الدين الحسيني نسباً[1]، الحنفي مذهباً، الحلبي بلداً، نزيل المدينة المنورة، مَن نفع الله به وبعلومه آفاق البلاد وأصناف العباد.

مولده ونشأته:

ولد رحمه الله سنة ١٣٤٣ هجرية، الموافق ١٩٢٤ ميلادية. في بيت علم وولاية، رعاه والده جدنا الإمام محيي السنة الشيخ محمد نجيب سراج الدين رحمه الله، ولقيت رعايته من ابنه شيخِنا كلَّ استجابةٍ وبِرٍّ، فكان ربما جعل صدره وهو صغير مُسْتَنَداً لرجلي والده، ـعندما يجلس للحلاقة وتقصير شعره أو عندما يجلس في صحن الدار في بعض الأُمْسِيَات ـ ويقبلهما وهما مسندتان لصدره جعله لوالده كالكرسي، كما أنه كان في عمل البيت مع والدته بكل حرص.

وهذا هو مفتاح الخير والبركة، برُّ الوالدين كما هو معروف، ومُجَرَّبٌ ومشاهَد، لذلك شدد الله ورسوله تأكيده على الناس، وقرنه الله تعالى بحقه فقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

ومن لطائف التقدير، أنه لما كان في حداثة مبكرةٍ من السن ذهب والده إلى الحج، وصادف أن عاد من الحج وابنه شيخنا مريض مرضاً

---

(١) أسرة سراج الدين مشهورة في حلب، يتصل نسبها بقبيلة تُعْرَفُ بالنّعِيمْ، معروفة بالنسب إلى أهل البيت.

شديداً، مرتفع الحرارة جداً، فصار الشيخ الوالد محمد نْجيب يعرض ابنه على الفضلاء والعلماء والصلحاء من الزوار يقول لهم هذا ابني عبد الله مريض ادعو الله تعالى له.

التأهيل المبكر:

وقد تحدث الشيخ عن نشأته جواباً على سؤال عن ذلك فقال: بدأت تعليمي في الكُتّاب في جامع سليمان، بقراءة القرآن وتَعَلُّمِ الكتابة ومبادىء العلوم الأساسية (حساب، إملاء، قراءة، قواعد اللغة العربية...) ثم التحقتُ بمدرسة جامع السلطانية أمام قلعة حلب بإدارة الشيخ محمد إسبير، وكانت مدة الدراسة عنده أربع سنوات، منها القرآن الكريم والعلوم الدينية والحساب والنحو...

قال الشيخ: وكان الشيخ محمد إسبير من جملة أساتذتي ثم صار يحضر دروسي مواظباً.

قال كاتبه: وهذه مكرمة عظيمة لا تكون من شيخٍ أستاذٍ لطالب، إلا لطالبٍ في غاية التمكن العلمي والثقة الدينية، فما أعلى مرتبة شيخنا منذ حداثته، وأذكر أني كنت أرى الشيخ إسبير دائماً في المسجد في دروس شيخنا الشيخ عبد الله، رحمة الله على الجميع.

قال شيخنا رحمه الله تعالى: وحفظت القرآن الكريم بنفسي بتوجيه والدي، وبدأ بتحفيظي الخمس أجزاء الأخيرة وأنا في سِنِّ الحادية عشرة، ثم الخمس المتوسطة، ثم الخمس الأولى، دون أن يخبرني بما وراء حفظ كل خمسة، ثم أكملت حفظ القرآن في سن الثالثة عشرة بنفسي، من دون إلزام من والدي.

وقد كان هذا التوجيه لحفظ القرآن من جملة عملية التحضير، يقوم بها الوالد الشيخ لابنه شيخنا.

كذلك كان يستصحبه في ذهابه وإيابه، وكلما لقي عالماً أو فاضلاً صالحاً يطلب منهم الدعاء لابنه.

ملازمته والده:

وكان لجدنا مع صديقه الشيخ كامل المشنطَط صلةٌ خاصةٌ، وكانا يذهبان سوياً لبعض المشاهد ويصحبان شيخنا معهما وهو صغير، ويمكثان في ذلك المسجد زماناً طويلاً يشتغلان بالذكر والدعاء، لاسيما إذا نابت المسلمين نائبة، قال شيخنا: وربما تزوّدا لهذه الرحلة بالزاد لطول المكث، وكنت لا أعرف ما يفعلان، لكن كان ذلك تحضيراً لي للمستقبل.

حضور دروس والده:

وكان من ذلك التحضير استصحاب شيخنا الجد ابنه إلى دروسه ومجالسه من سن مبكرة، وكان شيخنا يقبل على ذلك برغبة صادقة، ويسير مع والده مسافات طويلة، مشياً على الأقدام، إذ لم تكن السيارات متوفرة آنذاك، قال: وكان أشدَّ سير عليّ السيرُ إلى درس الجامع الأموي الكبير ظهر يوم الاثنين، وكان الطريق طويلاً من حارة البلاط شرق حلب إلى الجامع، ولا سيما في الصيف، لشدة الحر وطول الطريق وانعدام ما يظل والوقت وقت الظهر، فكنت أترقَّبُ الوصول إلى سوق الزَّرْبِ، فأجد فيه ترويحاً، أي لأنه مسقوف، سميك الجدران فيه رطوبة.

وقد تحدث شيخنا عن ذلك في ترجمته لوالده[1]، وذكر مرافقته إياه إلى المسجد: فقال: «كان سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى

---

(١) في ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

ذا همة عالية في عبادة الله والعمل الصالح ابتغاء وجه الله تعالى ورضوانه.

فكانت صلواته كلها بالجماعة، فإنه كان إماماً وخطيباً في جامع الشيخ سليمان الأيوبي رحمه الله تعالى، وكان ملازماً للصلاة في الجماعة إماماً في الجامع، وكان لا يتخلف عن الصلاة في الجامع إماماً ولو كان في أيام الشتاء البارد، وخاصة صلاة الفجر فما تخلف عنها قط، وكثيراً ما كنت وأنا صغير السن دون البلوغ كنت أذهب معه في أيام الشتاء لصلاة الفجر، فيأتي بالسُّنّة ثم يجلس ويقرأ ورد الصبح مع الجماعة ثم بعد فراغهم من قراءة ورد الصبح يقوم إلى صلاة الفرض، ويصلي إماماً، ويطيل القراءة كما هي السنة، ويقرأ في صلاة فجر يوم الجمعة سورة السجدة في الركعة الأولى ويسجد لها، وفي الركعة الثانية سورة الدهر كما هي السنة، مواظباً على ذلك في كل صلوات الصبح من يوم الجمعة.

وكان يجلس عقب الصلوات ويأتي بأوراد الصلاة المطلوبة عقبها: التسبيح والتحميد والتكبير، والدعاء كما هو معلوم.

وكان حريصاً على عدم التخلُّف عن الصلاة إماماً في جامع الشيخ سليمان، حتى إنه رحمه الله تعالى في يوم الاثنين كان يصلي الظهر إماماً في الجامع ثم يتوجه ماشياً إلى الجامع الأموي ليلقي محاضرته ودرسه فور وصوله إلى الجامع الأموي، وكثيراً ما أكون معه حتى في أيام الصيف الحارِّ، كان يمشي من جامع سليمان إلى الجامع الأموي الكبير ماشياً تحت حرِّ الشمس، حتى إذا وصلنا إلى سوق الزرب أحد أبواب سوق المدينة أشعر ببرودة، فإذا فرغ من درس الجامع الأموي وجلس في غرفة الجامع بعد الدرس مدة، فبعد ذلك يرجع ماشياً إلى جامع الشيخ سليمان الأيوبي ليصلي صلاة العصر إماماً».

توصيل المساعدات والهدايا:

وكذلك كان من تحضير الشيخ الجد رحمه الله لابنه إرسالهُ لتوصيل المال إلى الأسر المحتاجة من أقرباء وغيرهم، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى: «وكان سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى كثير الإنفاق في طريق الخيرات، والمساعدات المالية وغير المالية.

أما أرحامه فكان يرسل معي كمية من المال في كل يوم جمعة، ومنهم في كل شهر - إلى أرحامه الفقراء - يخرج ذلك من ماله الخاص - فإنه كان ميسوراً، مرتباته الشهرية كثيرة ومباركة - فكنت أنا العبد لله أذهب إلى بيوتهم وأعطيهم، وكنت حينذاك قبل البلوغ، والحمد لله، وبعد البلوغ أيضاً.

كما أنه رحمه الله تعالى كان يبعث معي كمية من المال الذي يأتي به بعض إخوانه ومحبيه الصادقين[1]، ليوزعه والدي الكريم حسب معرفته بالمستحقين الأتقياء الأعفاء، الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فمنهم بعض أهل العلم الذين كبرت سنهم وكثرت حاجاتهم، ومنهم أهل الصلاح والتقوى والعفة، الذين لا يقبلون

---

(١) وهو العم الكريم، والرجل الصالح ابن الصالح، السيد الحاج محمد الططري رحمه الله تعالى، الحافظ لكتاب الله تعالى، وقد كان القارى الشهير والمقرى الكبير العلامة الشيخ محمد بَيَازيد التقي النقي، الذي كان يختم في كل يوم ختمة تقرباً إلى الله تعالى، وكان قد طلب منه الحاج صالح الططري والد الحاج محمد أن يأتي إلى بيت الحاج صالح كل يوم لتلاوة القرآن بين المغرب والعشاء، فيجلس في بيت خاص، ويجلس معه الحاج صالح والحاج محمد، وأهل بيته كلهم، لسماع تلاوة القرآن الكريم، وكان ذلك سبباً في حفظ الحاج محمد للقرآن الكريم، ثم حفظ ابنته الصالحة زوجتي، والحمد لله رب العالمين.

الأخذ من غير والدي الكريم رحمه الله تعالى، فكان يكتب لي أسماءهم وأذهب إلى بيوتهم فيخرج أحدهم إلى الباب أو يؤذن لي بالدخول عليه إن كان عاجزاً، فأبلغهم سلام سيدي الوالد الكريم، وأعطيهم كمية من المال التي أرسلها معي والدي الكريم، وقد أضاف إليها شيئاً من ماله رحمه الله تعالى، فيأخذونها، ويَدْعون لسيدي الوالد الكريم رحمهم الله تعالى أجمعين، ويدعون لي. والحمد لله رب العالمين وقد طرقت أبواباً وأبواباً في سبيل ذلك، وفي توزيع المعونات المالية، وكل ذلك في صحيفة سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين».

قال شيخنا: وكان أخذي علم التجويد عن الشيخ عبد الوهاب المصري، الذي أخذ عن الشيخ أحمد أبو التيج، المعروف بالتيجي، وكان أبرزَ علماء القراءات في حلب، وكان الشيخ عبد الوهاب من خريجي التيجي المتميزين في التجويد، لا سيما في مخارج الحروف، وكانت مخارج حروفه مثل رَنّة النحاس.

طلب العلم في المدرسة الخسروية:

ولما أردت الالتحاق بالخسروية قِيلَ لي: إنهم يدرسون النحو فيها وهو صعب، فعزمت أن أدرس النحو بنفسي قبل دخول المدرسة، فعرضت ذلك على الشيخ عبد الوهاب المصري، فقال: أنا أُقْرِئُك النحو، فأقرأني كتاباً من كتب النحو، ثم كررت دراسته حتى تمكنت من علم النحو، وانفتحت أماميَ مغاليقه، والتحقت بالصف الأول في الخسروية متأخراً عن بدء السنة، فجلست مع المستمعين حتى لا أضيع الوقت.

وكان الطلاب يدرسون النحو في ألفية ابن مالك وشرحها ويُكَلَّفون

بحفظها، وكان يقرر علينا في الصف الثاني حفظ (٣٥٠) خمسون وثلاثمائة بيت من ألفية ابن مالك، لكني بدأت بها في الصف الأول وأتممتها في الصف الثاني. أي أنه كان سريع الحفظ، نشيطاً حريصاً على الوقت، لذلك اختصر من الزمن كثيراً.

التفوق المطلق:

قال: وتعرفت هناك على أصدقاء أحبوني وعرفوا مقامي تقديراً لوالدي، منهم أبو غدة، وفيض الله، وكنت صغير السن نسبة إليهم إذ أُدخلت قبل السن القانوني (وهو ١٤ سنة) استثناءً، ثم كنت الناجح بالترتيب الأول في كل السنوات.

ومن عجائب التقادير أن زميلاً كان ينافس الشيخ على الدرجة الأولى، فلما وصل السنة الرابعة وسبقه شيخنا إليها اغتاظ وقال: كيف أنت تنجح بالدرجة الأولى دائماً!.

فقال له الشيخ: هذا من الله.

ثم صادف أن دخلوا درس الفقه، وكان الكتاب المقرر (الدرر الحُكّام شرح غرر الأحكام)، وهو كتاب مكَثَّفُ العبارةِ جداً، والأستاذ هو الشيخ مصطفى الزرقاء رحمه الله تعالى، فاستقرأ الأستاذ الزرقاء هذا الطالب، فصار يلحن، فاستعاده فلحن، وتكرر لحنه، أي مخالفته للنحو بشكل فاحش حتى غضب الشيخ الزرقا وقال لهذا المنافس: كيف أنت طالب في هذا الصف! أنت يجب أن ترجع إلى الصف الأدنى!!.

قال الشيخ: وكان الزملاء يصرون على سماع تلاوتي في درس التجويد، يعني لدقة أدائه وحسن صوته، وكان يشبه قراءة الشيخ محمد رفعت كثيراً، وعسيرٌ التشبه بهذا المقرى الفريد الأداء رحمه الله تعالى.

امتحان الخسروية الشديد:

قال: وكنت محل ثقة مشايخي، وكان في الخسروية امتحان شفوي يُمتحن فيه الطالب من قبل لجنة كبيرة تتألف من المشايخ (مدير وأساتذة المدرسة)، فكانوا يسألونني أسئلة فوق المطلوب وكنت أجيبهم، ومن ذلك أنه في امتحان الصف الثاني أقرأني الشيخ محمد راغب الطباخ محدث حلب ومؤرخها حديث أم زرع فأسمعته إياه غيباً، وأجبت عن أسئلتهم في سرعة، قال: فَسُرَّ الشيخ وكان هو المدير، وصار يدور في الغرفة لشدة سروره، وقد جمع جبته وأمسك بها من الخلف، وهو يدور في الغرفة لسروره.

قلت: ومعروف حديث أم زرع بطوله وغرابة ألفاظه، وحاجة كلماته إلى شرح، فلا يحفظه بدقة إلا حافظ دقيق، ولا يضبط شرحه إلا نبيه لبيب.

وإتماماً للفائدة نذكر نص حديث أم زرع:

ففيه دروس في الحياة الزوجية:

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا.

قالَتْ الأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ[1] عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ لا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى، وَلا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ[2].

---

(١) لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ: بفتح المعجمة وتشديد المثلثة، والغث الهزيل الذي يُستغث من هزاله، أي يُستَترَك ويُستكرَه.

(٢) فيُنْتَقَلُ: أي أنه لهزاله لا يرغب أحد فيه فينتقل إليه. وصعوبته مع القِلّة الخير وبعده مع القلة.

قالَتْ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لا أَبُثُّ خَبَرَهُ[١]، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لا أَذَرَهُ[٢]، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ[٣].

قالَتْ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي الْعَشَنَّقُ[٤]، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ.

قالَتْ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لا حَرٌّ وَلا قُرٌّ، وَلا مَخَافَةَ وَلا سَآمَةَ[٥].

قالَتْ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ[٦]، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ[٧]، وَلا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ.

قالَتْ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ[٨]، وَإِنْ شَرِبَ

---

(١) لا أَبُثُّ خَبَرَهُ: بالموحدة ثم المثلثة: أي لا أظهر حديثه.

(٢) أَخَافُ أَنْ لا أَذَرَهُ: أي أخاف أن لا أترك من خبره شيئاً، أي أنه لطوله وكثرته إن بدأته لم تقدر على تكميله فاكتفت بالإشارة إلى معايبه.

(٣) أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ: بضم أوله وفتح الجيم فيهما، فالعُجَر تَعَقّد العصب والعروق في الجسد حتى تصير ناتئة، والبُجَر مثلها، إلا أنها مختصة بالتي تكون في البطن، هذا أصلهما ثم استعملا في الهموم والأحزان، وفي المعايب.

(٤) الْعَشَنَّقُ: الطويل المذموم الطول، أو الطويل العنق، أو الصقر من الرجال المقدام الجريء، وقال الأصمعي أرادت أنه ليس عنده أكثر من طوله بغير نفع، وقال أبو سعيد الضرير: الصحيح أن العشنق الطويل النجيب الذي يملك أمر نفسه ولا تحكم النساء فيه بل يحكم فيهن بما شاء، فزوجته تهابه أن تنطق بحضرته فهي تسكت على مضض.

(٥) لا سَآمَةَ: لا ملل عنده فيسأم من عشرتي، أو ليس بسيء الخلق فأسأم من عشرته فأنا لذيذة العيش عنده.

(٦) فَهِدَ: بفتح الفاء وكسر الهاء مشتق من الفهد، شبهته في لينه وغفلته بالفهد لأنه يوصف بالحياء وقلة الشر وكثرة النوم.

(٧) أَسِدَ: بفتح الألف وكسر السين، مشتق من الأسد أي يصير بين الناس مثل الأسد.

(٨) لَفَّ: أكثر منه واستقصاه حتى لا يترك منه شيئاً، أرادت أنه يخلط صنوف=

اشْتَفَّ(١)، وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ(٢)، وَلا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ(٣).

قالَتْ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ، طَبَاقَاءُ(٤)، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ(٥) أَوْ فَلَّكِ(٦) أَوْ جَمَعَ كُلّاً لَكِ.

قالَتْ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ(٧).

قالَتْ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ(٨)، طَوِيلُ النِّجَادِ(٩)،

= الطعام من نهمته وشرهه ثم لا يبقى منه شيئاً.

(١) **اشْتَفَّ**: الاشتفاف في الشرب استقصاؤه مأخوذ من الشفافة بالضم والتخفيف وهي البقية تبقى في الإناء، فإذا شربها الذي شرب الإناء قيل: اشتفها.

(٢) **الْتَفَّ**: أي رقد ناحية وتلفف بكسائه وحده وانقبض عن أهله إعراضاً، فهي كئيبة حزينة لذلك.

(٣) ولذلك قالت: «ولا يولج الكف ليعلم البث» أي لا يمد يده ليعلم ما هي عليه من الحزن فيزيله.

(٤) **غيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ**: وهو شك من الراوي، والغياياء الطباقاء الأحمق الذي ينطبق عليه أمره.

(٥) **شَجَّكِ**: بمعجمة أوله وجيم ثقيله: أي جرحك في رأسك.

(٦) **فلَّكِ**: بفاء ثم لام ثقيلة، أي جرح جسدك.

(٧) **رِيحُ زَرْنَبٍ**: نبت طيب الريح.

(٨) **رفِيعُ الْعِمَادِ**: وصفته بطول البيت وعلوه، فإن بيوت الأشراف كذلك يعلونها ويضربونها في المواضع المرتفعة ليقصدهم الطارقون والوافدون، فطول بيوتهم إما لزيادة شرفهم أو لطول قاماتهم، وبيوت غيرهم قصار.

(٩) **طوِيلُ النِّجَادِ**: بكسر النون وجيم خفيفة، حِمالة السيف. تريد طويل القامة بدليل أنه طويل النجاد، وفي ضمن كلامها أنه صاحب سيف فأشارت إلى شجاعته وكانت العرب تتمادح بالطول وتذم بالقصر.

عَظِيمُ الرَّمَادِ[١]، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ[٢].

قالَتْ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ[٣]، قَلِيلاتُ الْمَسَارِحِ[٤]، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ[٥] أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ[٦].

قالَتْ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ، أَنَاسَ[٧] مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَـيَّ، وَمَـلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَحَنِي فَبَجِحَتْ[٨] إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ[٩] بِشَـقٍّ[١٠]، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ

---

(١) عَظِيمُ الرَّمَادِ: تعني أن نار قراه للأضياف لا تطفأ، ليهتدي الضيفان، إليها فيصير رماد النار كثيراً لذلك.

(٢) النَّادِ: مجلس القوم، وصفته بالشرف في قومه فهم إذا تفاوضوا في أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوا على رأيه وامتثلوه أمره.

(٣) المَبَارِكِ: جمع مَبْرَك وهو موضع نزول الإبل.

(٤) المَسَارِحِ: جمع مسرح وهو الموضع الذي تطلق الإبل لترعى فيه، أي أنه لاستعدادَه للضيفان بها لا يوجـه منهن إلى المسارح إلا قليلاً، ويترك سائرهن بفنائه، فـإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يقريه بـه من لحومها وألبانها.

(٥) صَوْتَ الْمِزْهَرِ: بكسر الميم وسكون الزاي وفتح الهاء آلة من آلات اللهو.

(٦) هَوَالِكُ: منحورات.

فمن عادته أن يتلقى الضيفان بالغناء مبالغة في الفرح بهم ثم ينحر الإبل لهم، فصارت الإبل إذا سمعت الغناء عرفت أنها ستنحر.

(٧) أَنَاسَ: حَرّك والمعنى: ملأ أذنيها بما جَرَت عادة النساء من التحلي به من قُرْطٍ وشنفٍ من ذهب ولؤلؤ ونحو ذلك.

(٨) وبَجَحَنِي فَبَجِحَتْ: أي إنـه فرحهـا ففرحت، أو عظمني فعظمت إلـيّ نفسي. كما يقع لكثير من النساء حتى ربما كان ذلك سبب طلاقها.

(٩) غُنَيْمَةٍ: بالمعجمة والنون مصغر غنم.

(١٠) بِشِقٍّ: بكسر المعجمة، قال ابن قتيبة: المعنى: أنهم كانوا في شَظَفٍ من العيش يقال هو بشق من العيش، أي بشظف وجهد، ومنه قوله تعالى: =

صَهِيلٍ[(١)] وَأَطِيطٍ[(٢)] وَدَائِسٍ[(٣)] وَمُنَقٍّ[(٤)]، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاأُقَبَّحُ[(٥)]، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ[(٦)]، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ[(٧)].

أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، عُكُومُهَا[(٨)] رَدَاحٌ[(٩)]، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ[(١٠)].

= ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] وبهذا جزم الزمخشري وضعف غيره.

(١) **أَهْلِ صَهِيلٍ**: خيل.

(٢) **وَأَطِيطٍ**: أي إبل.

(٣) **وَدَائِسٍ**: أرادت أنهم أصحاب زرع.

(٤) **وَمُنَقٍّ**: ومنق بكسر النون وتشديد القاف، قال أبو عبيد: لا أدرى معناه وأظنه بالفتح من تنقى الطعام.
ذكرت أنه نقلها من شظف عيش أهلها إلى الثروة الواسعة من الخيل والإبل والزرع وغير ذلك.

(٥) **لا أُقَبَّحُ**: أي لا يقال لي: قبحك الله، أو لا يقبح قولي ولا يُـرَدّ علي.

(٦) **وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ**: أي أنام أول النهار فلا أوقظ.
لكثرة إكرامه لها وتدللها عليه، لا يَرُدُّ لها قولاً ولا ملاً.

(٧) **أَتَقَمَّحُ**: أي أروى حتى لا أحب الشرب، أو أشرب بعد الري أو أشرب على مهل لكثرة اللبن.

(٨) **عُكُومُهَا**: والعُكوم بضم المهملة جمع عِكم بكسرها وسكون الكاف هي الأعدال والأحمال التي تجمع فيها الأمتعة، وقيل: هي نمط تجعل المرأة فيها ذخيرتها.

(٩) **رَدَاحٌ**: بكسر الراء وبفتحها وآخره مهملة أي عظام كثيرة الحشو.

(١٠) **فَسَاحٌ**: بفتح الفاء والمهملة، أي واسع، والمعنى أنها وصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث والقماش واسعة المال كبيرة البيت إما حقيقة فيدل ذلك على عظم الثروة، وإما كناية عن كثرة الخير ورغد العيش والبر بمن ينزل بهم.

ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ(١)، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ(٢).

بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا(٣)، وَغَيْظُ جَارَتِهَا.

جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا(٤)، وَلا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا(٥)، وَلا تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا(٦).

قالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ(٧) تُمْخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي

---

(١) **كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ**: الشطبة ما شُطِب من الجريد وهو سعفه فَيُشَقُّ منه قضبانٌ رقاق تنسج منه الحصر، فمضجعه الذي ينام فيه في الصغر كقدر مسل شطبة واحدة.

(٢) **الْجَفْرَةِ**: بفتح الجيم وسكون الفاء، الأنثى من ولد المعز، إذا كان ابن أربعة أشهر وفُصِلَ عن أُمِّه وأخذ في الرعي. أو الجفر من أولاد الشاة ما استجفر أي صار له بطن.

(٣) **مِلْءُ كِسَائِهَا**: كناية عن كمال شخصها ونعمة جسمها.

(٤) **لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا**: بالموحدة ثم المثلثة، لا تظهر الحديث.

(٥) **ولا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا**: التنقيث إخراج مال أهلها إلى غيرهم، والميرة: بكسر الميم وسكون التحتانية بعدها راء ـ الزاد.

(٦) **لا تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشاً**: أي أنها مُصْلِحَةٌ للبيت مهتمة بتنظيفه وإلقاء كُناسته وإبعادها منه، وأنها لا تكتفي بِقَمِّ كُناسته وتركها في جوانبه كأنها الأعشاش.

(٧) **الأَوْطَابُ**: جمع وَطَب بفتح أوله، وهو وعاء اللبن. أرادت أنه يبكر بخروجه من منزلها غدوة وقت قيام الخدم والعبيد لأشغالهم، وانطوى في خبرها كثرة خير داره وغزر لبنه، وأن عندهم ما يكفيهم ويفضل حتى يمخضوه ويستخرجوا زبده. أو الوقت الذي خرج فيه كان في زمن الخصب وطيب الربيع.

وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا[١]، رَكِبَ شَرِيًّا[٢]، وَأَخَذَ خَطِّيًّا[٣]، وَأَرَاحَ[٤] عَلَيَّ نَعَماً ثَرِيًّا[٥]، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجاً. وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ[٦]، قَالَتْ فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ»[٧].

وفي رواية: «في الألفة والوفاء لا في الفرقة والجلاء».

وفي أخرى: «إلا أنه طلقها وإني لا أطلقك».

اجتهاد شيخنا في العلم وحفظه للكتب الستة:

قال شيخنا: وخصصت العطل الصيفية لحفظ الحديث فحَفظْتُ

---

(١) سَرِيًّا: بمهملة ثم راء ثم تحتانية ثقيلة، أي من سراة الناس، وهم كبراؤهم، في حسن الصورة والهيئة. والسري من كل شيء خياره.

(٢) رَكِبَ شَرِيًّا: الشرِيُّ الذي يستشرى في سيره أي يمضي فيه بلا فتور.

(٣) أَخَذَ خَطِّيًّا: بفتح الخاء المعجمة وكسر الطاء المهملة نسبة إلى الخط، صفة موصوف، وهو الرمح.

(٤) أَرَاحَ: الرواح بمهملتين من الرواح ومعناه أتى بها إلى المراح وهو موضع مبيت الماشية.

(٥) نعَمًا ثَرِيًّا: بفتحتين وهو جمع لا واحد له من لفظه وهو الإبل خاصة، ويطلق على جميع المواشي إذا كان فيها إبل، والثري المال الكثير من الإبل وغيرها.

(٦) مِيرِي أَهْلَكِ: أي صليهم وأوسعي عليهم بالميرة بكسر الميم وهي الطعام، والحاصل أنها وصفته بالسؤدد في ذاته والشجاعة والفضل والجود، بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله، وتهدي منه ما شاءت لأهلها مبالغة في إكرامها، ومع ذلك فكانت أحواله عندها محتقرة بالنسبة لأبي زرع.

(٧) صحيح البخاري في النكاح (حسن المعاشرة مع الأهل): ٧: ٢٧ـ٢٨.

أحاديث الكتب الستة في إجازات الصيف ـ وذلك بحفظه كما أخبرنا تيسير الوصول لابن الديبع الشيباني ـ ثم حفظت الترغيب والترهيب، وأحاديث المسانيد، وأحاديث التفسير المرفوعة والموقوفة.

قلت: قدرت مجموع حفظه ثمانين ألف حديث، ومن ذلك وصفته بالحافظ.

وقد تلقى الشيخ العلم عن كبار العلماء في حلب من أساتذة الخسروية وغيرهم، وذلك لحرصه على العلم، فكان من مشايخه الشيخ محمد إبراهيم السلقيني الفقيه والأصولي فقيه الجهة الشمالية في سورية، والشيخ محمد راغب الطباخ محدث حلب ومؤرخها، والشيخ محمد أسعد عبه جي ـ وهم من شيوخي أيضاً ـ والشيخ عمر مسعود الحريري، والشيخ فيض الله الأيوبي الكردي، والشيخ أحمد الشماع وغيرهم، مثل الشيخ أحمد الكردي الذي أصبح بعد مفتي حلب، وكان فقيهاً جليلاً، والشيخ إبراهيم السلقيني الكبير والد شيخنا، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ عيسى البيانوني، وغيرهم رحمهم الله تعالى.

وكان الشيخ محل تقدير أساتذته وإعزازهم، ومن لطائف ذلك أنْ يقصد شيخُه وهو شيخُنا الشيخ محمد السلقيني زيارته، وتكرر ذلك منه رحمه الله تعالى، واستقبله شيخنا بغاية الإعزاز والتوقير، وخاطبه بلقب شيخنا. وسأل بعضُ طلاب العلم شيخَنا السلقيني قبل وفاته بشهرين: أنت درَّسْتَ الشيخ عبد الله سراج الدين فقال رحمه الله: عيب أن أقول درَّسْتُه، ولكن ذاكرت معه العلم.

وكأنّ شيخَنا السلقيني ـ مع تواضعه الجم ـ يلحظ تحضير الشيخ العلمي السابق فقد كان يدرس لنفسه كما عرفنا.

أصدقاء الطلب:

اختيار الصديق مهم جداً في حياة الإنسان ، وقد أحسن شيخنا اختيار أصدقائه إحساناً في غاية التوفيق ، فكانوا خيرة الطلبة ، وكان أخصهم به فضيلة العلامة الفقيه الكبير الورع الأستاذ الدكتور الشيخ محمد فوزي فيض الله حفظه الله ، وقد جاء فيما كتب إلينا قوله حفظه الله: « . . . وانعقدت أواصر المودة بيننا ، فكدتَ لا ترانا إلا ذَاهِبَينِ إلى المدرسة الخسروية ، أو عائِدَيْنِ منها إلى بيوتنا ـ إذْ كانت متقاربة ـ أوجالِسَيْنِ في ركنٍ من حديقة المدرسة نقرأ في كتاب ، أو نحفظ قصيدة ، أو نراجع مَتْناً من المتون ، أو نتدارس كتابَ الله . . . ».

وقال حفظه الله: «كانت بيوتنا متقاربةً كلُّها في شرق حلب القديمة ، فكان من السهل لقاؤنا ، ولم تكن وقتئذ مواصلات منتظمة في حلب؛ وكنا على مقربة من البساتين وكلها في الجهة الشرقية من حلب. فربما خطر ببالنا أن نقوم بنزهة في بستان (الباشا) أو بستان عين التل) في أيام الربيع ، فنذهب أنا والشيخ وحدنا مشياً على الأقدام ، في صبيحة يومٍ من أيام الخميس أو الثلاثاء ، متزودين بما خفَّ من الزاد: (بيض مسلوق ، عجة ، مامونِيّة ، جبنة ، برتقال . . .) ، إلى بستان من هذه البساتين ، فنجلس على شاطىء غدير ، أو حافة جَدْوَل ، تحت ظل شجرة من أشجار التوت أو المشمش ، نكتال الهواء النقي ، كأننا في إيوان كسرى ، نتخيل نعيم أهل الجنة . . .

يقول الشيخ: سَمِّعْنَا يا شيخ فوزي من آخر ما حفظتَ من القرآن الكريم . . فأقرأ عليه شيئاً خفيفاً مما حفظت مؤخراً . ثم أقول: هاتِ أنت يا شيخ عبد الله ، اتْلُ ما تيسَّر لك من كتاب الله ، فيتلو ما شاء الله له أن يتلو . . فيهيأ لي أن البستان يصغي إلى تلاوة الشيخ ، أو الدنيا

تردَّدُ معه كلام الله؛ إذ كان الشيخ جميلَ الصوت، يمتاز بِحَنْجَرةٍ تذكِّرُ بالشيخ محمد رفعت: نغمتِه، وهدوئِه، ووقفاتِه الخاشعة، وأدائه المبين.

فإذا فرغنا من التلاوة، عمدنا إلى مذاكرة الأنفاس بالشعر. ثم قمنا إلى صلاة الضحى، وتناولنا غداءنا مما حملناه... ثم تمددنا قليلاً للقيلولة، وصلينا الظهر، ثم عدنا إلى مَجْلِسِنَا الهادىء الساكن، لا يكسر هدوءَه سوى خرير الماء، وتغريد الأطيار؛ وحَفيف الأشجار؛ نتحدث ـ والحديث شجون وشؤون ـ عن أوضاعنا وأحوالنا الخاصة...». انتهى.

وقد بين حفظه الله عمق هذه الصداقة في تكوينه وتكوين الشيخ، فقد كانت أعمق أُخوة وأعلى أخوة في التعاون على الحق والخير وطلب العلم، أفادا بها قراءة كتب قيمة، منها تفسير جزء عم من تفسير النيسابوري المطبوع بهامش تفسير ابن جرير الطبري، قرآه في أيام محدودة من كل أسبوع بعد العصر، في جامع الحموي في صيف عام ١٩٤١. قال: «وكانت نسخة الشيخ لوالده طبعة بولاق، المعروفة بصحة كتبها ونسختِي (الأستاذ فوزي) طبعة الميمنية، وكان يظهر لنا أخطاء مطبعية في نسختي، فنصححها على نسخة الشيخ البولاقية.

وفي صيف عام ١٩٤٢ اتفقنا على قراءة جزء تبارك في تفسير النيسابوري نفسه، وَحْدَنا في الجامع نفسه.

وفي صيف عام ١٩٤٣ اتفقنا على قراءة كتاب (الأشباه والنظائر لابن نُجيم الحنفي) وانضم إلينا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، فقرأنا أكثر الكتاب في النسخة المطبوعة في مصر، وكانت كثيرة الأغلاط، فكنا نصححها على نسخة المدرسة الأحمدية المخطوطة...».

لقد أفادت الصداقة الواعية أصحابها أعظم الفوائد، فكانوا بَعْدَ أعلامَ الأمة، فاعتبر أخي القارىء، واعتبر أخي طالبَ العلم، فإن فرصة الطلب ذهبية، لا تقدر بثمن، وهي أساس ما يأتي في بقية عمرك.

المفاجأة!:

قال شيخنا - وهو يتحدث عن المفاجأة في السنة الأخيرة في الخسروية -: وفي السنة السادسة وقبل انتهائها بشهرين عُدِّل نظام المدرسة بإدخال العلوم الكونية ومنهاج وزارة المعارف، وتقرر إعادتنا إلى الصف الرابع إلزاماً، وحُرِمْنا من حق شهادة التخرج، ولم أقبل بالعودة إلى الصف الرابع، وتركت المدرسة حزيناً، مكسور النفس لأنني لم أحصل على النتيجة (الشهادة)، كما يقول الناس بعد هذه الجهود والتفوق، ولجأت إلى الله تعالى فجبر كسري وأعزني، وعُرِفْتُ بالمقدرة العلمية وصارت الطلبات تنهال عليَّ لتدريس العلوم الشرعية في مختلف المدارس (الفقه، الحديث، المصطلح، التفسير، علوم القرآن) أكثر مما يطلب من حملة الشهادات.

* * *

ما بعد المدرسة الخسروية

قال شيخنا رحمه الله:

«وكان كبار علماء حلب عارضوا هذا التغيير في مناهج المدارس الشرعية لأنه يؤدي إلى إضعاف مقدرة الخرّيجين العلمية، ويشغلهم عن اختصاصهم، ومنهم والدي، وكان يعلن عن معارضته، مما دفع بعض الوجهاء أن يتوجه إليه بأمر صدر إليه آنذاك ويزوره في بيته محاولاً إقناعه، ولكن الشيخ أفحمه بالحجة، بأن هؤلاء مختصون بالعلوم الشرعية، ولا معنى لإشغالهم بما لا يعنيهم، فضلاً على أن العلوم الشرعية تضم اختصاصات بحد ذاتها».

«وكان الشيخ شديد اللهجة في خطابه لما ألح في الجدال».

قلت: وهذا كان من دأب الشيخ نجيب، في مخاطبة المخالفين المعاندين، مهما كبر الواحد منهم.

وكانت المدرسة الخسروية بحلب تخرّج العلماء المتمكنين، وأساتذتُها من كبار العلماء، مثل الشيخ مصطفى الزرقا، وأحمد الكردي، ومحمد الناشد، وإبراهيم السلقيني، ثم ابنه محمد السلقيني، ومحمد راغب الطباخ، والشيخ صلاح الدين الزعيم.

وذكر شيخنا الأثرَ السيىءَ لهذا التغيير، ومنه انصراف الطلاب عن

علوم الشرع حتى صار بعض الطلبة يقرأ كتاب اللغة الإنكليزية في دروس علوم الشرع، ومنها درس الحديث للشيخ محمد راغب الطباخ نفسه، الذي عمل في هذا التغيير، ثم ندم لما رأى ذلك ندماً عظيماً، وكان سبب وفاته رحمه الله تعالى.

وأُقْصِيَ عن المدرسة بهذا التغيير خيرة من أساتذتها: كالشيخ الحنيفي، ومحمد زين العابدين، وغيرهما، دون أن يُعَوَّضُوا بشيء!! وكان من وراء ذلك مشايخ فُتِنُوا بالحضارة الغربية، وبعضهم درس في فرنسا من مشايخ حلب، وساعد عليه آخرون في دمشق.

هكذا اعتزل الشيخ عبد الله المدرسة الخسروية، ولم يبال بفوات الشهادة ومرتباتها المغرية جداً آنذاك، وكان ذلك موضع استغراب الناس، لكنه نظر بمقياس مصلحته العلمية، وبمنظار من يستعد للآخرة، وهذا درس بليغ لطالب العلم خاصة، ولكل مسلم عامة، أن يقدم مصلحة آخرته على كل شيء.

وهكذا عَكَفَ الشيخ على علوم الشرع بدأب عظيم، بإشرافِ وتوجيهٍ من والده الشيخ الإمام محمد نجيب سراج الدين رحمه الله، الذي كان له أعظم الأثر في تكوين شخصية شيخنا الإمام، وقد اتخذ من غرفة والده في الشعبانية مقراً له، واشتغل بدراسة المطولات وحِفْظِها، وكان لا يضيع وقتاً، فكنا إذا جئنا بيت الجد نراه دائب المطالعة في الكتب، وكثيراً ما يروح ويجيء في غرفته يقرأ بصوت عالٍ، وأحياناً بصوت خفيض.

مسابقة عجيبة:

وكان من تمكنه في العلم وتوسعه فيه، وفي حفظ المطولات، أنه أُعلن عن مسابقة لدرس في جامع باب قِنِّسْرِين - يقال له: جامع

أبو الدَّرَجَين - ودخل المسابقة مشايخ كبار، بعضهم من أساتذته، واشترك شيخنا في المسابقة، وكان أعضاء اللجنة من كبار علماء حلب، منهم شيخنا محمد راغب الطباخ، وكان يحب شيخنا ويعرفه من أيام تلمذته عليه.

فذكر شيخنا أنه بعد أن ترك الخسروية عكف في غرفة والده في الشعبانية - ثالث غرفة على يسار الداخل تحت الرواق - وصار يدرس ويستحفظ المطولات، وكان ذلك مما نفعه في هذه المسابقة، حتى إنه انتهى وقت اختبار المسابقة ولم ينته من كتابة جوابه كله، ثم أعلنت النتيجة بنجاحه وتفوقه عليهم كلهم ولله الحمد، وكان قد جاوز العشرين قليلاً، وكان المرتب نحو ١٥ ليرة سورية، وكانت الليرة الذهبية حينها تساوي خمس ليرات سورية.

وقد عوض الله شيخنا عما ترك فأعطاه علماً عظيماً، ومنحه غنى مالياً، لما زهد به من المرتَّب حرصاً على التمكن في العلم.

قيامه بالدعوة مبكراً:

ولما كان في نحو العشرين من العمر ثقل على والده وظيفة الخطبة والإمامة، فاستعان ببعض المحبين ينوب عنه إماماً وكيلاً في بعض الصلوات، ثم تنازل لشيخنا عن الخطبة والإمامة، وكنا نصلي معهما الجمعة، ونسلم على شيخنا الجد وعليه، وكان حضور الناس كثيفاً.

زواج الشيخ رحمه الله:

وفي هذه المرحلة أيضاً تم زواجه المبارك من السيدة المصون حافظة كتاب الله تعالى بنت صديق والده وتلميذه الرجل الصالح الجواد السخي الحاج محمد ططري رحمه الله تعالى، قال: وكنت

بعيد الفكر عن هذا الأمر، وجعل والدي يعرض عليَّ، ويقرب أمر الزواج إليَّ حتى اقتنعت، وذلك لغاية انشغاله بالتحصيل العلمي وانهماكه فيه، وكانت سنُّه آنذاك تسع عشرة سنة.

رحلة الحج الأولى:

وفي نحو سنة ١٣٦٧ = ١٩٤٦ تقريباً حج شيخنا رحمه الله تعالى حجته الأولى، وكانت بصحبة والده، وهي الثالثة لوالده، وكان شيخنا في نحو الثالثة والعشرين من العمر، وكسب بهذه الصحبة بركة عظيمة، كما حاز فضلاً عظيماً بخدمته، وقد تحدث عن ذلك في ترجمته لوالده جدنا رحمة الله عليهما، قال: قد حج سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى ثلاث مرات، وقد أكرمني الله تعالى بأن حَجَجت معه حجته الأخيرة الثالثة، وكان جاوز التسعين، ووكلني في دروسه، وَحَجَّتي معه رحمه الله تعالى هي الحجة الأولى بالنسبة لي، وقد خدمته في حجته وطوافه، وسعيه، ووقوفه في عَرفة، وتنقلاته إلى المزدلفة ومنى وما هنالك، واكتسبت الكثير من دعواته.

وذكر من كرامات والده جَدِّنا في هذه الرحلة عجائب، فانظرها لأهميتها، ثم قال:

«وإنني لأحمد الله تعالى رب العالمين الذي وفقني لخدمته في حجته الثالثة، وقد كبرت سنه، وضعفت قواه، فكنت أخدمه ما استطعت، وأكتسب من دعواته وبركاته وتوجهاته، وكان يَهمه أمري كثيراً، ويدعو الله تعالى بدعوات عظيمة، وينشطني وينهض بهمتي، ويبشرني ببشائر كبيرة وكثيرة».

ولا شك أن ما ذكره شيخنا له دلالة على مقامه، منذ نشأته، وله

تأثير في زيادة رفع مقامه رضي الله عنه، وتهيئته لمنصب الإمامة في العلم وفي الولاية.

تضلعه من العلوم بأنواعها:

شيخ الإسلام:

وقد اعتنى رحمه الله عناية كبيرة بمختلف علوم الشرع وعلوم العقل واللغة، حتى صار بحراً في كل منها، وما لبث أن طار صيته في العلوم الشرعية وخاصة في علم الحديث ومصطلحه، وظل يزداد من العلم والكمال على مدى الأيام، حتى رأيت أنه يستحق لقب (شيخ الإسلام)، وذلك أني وقفت على بيان ذلك لأحد الأكابر، أن من كمل في علوم التوحيد والفقه والأصول والتفسير والحديث والتصوف فهو شيخ الإسلام، ومن لا يسميه بذلك فهو ظالم له، فقلت له ذلك، وكان بين لفيف من الأساتذة في المدرسة الشعبانية ـ وهو مدير المدرسة ورئيس جمعيتها ـ فتنصل من ذلك على عادته في التواضع والبعد عن الدعوى.

وكان صديقه وزميله صديقنا العلامة الفقيه الكبير الأستاذ الدكتور محمد فوزي فيض الله ـ حفظه الله ـ كثيراً ما يكتب لي يسألني عنه فيذكره بوصف «الشيخ الإمام»، ولا يزال على هذا الوصف له في لقاءاتنا أطال الله عمره وأمتع به.

تكاثر أعماله العلمية:

ونظراً لما عُرف به شيخنا من العلم، طُلِبَ منه التدريس في المدارس الشرعية الثانوية والشعبانية الأولى، أكثر مما يطلب من ذوي الشهادات، إضافة إلى دروسه العامة في المساجد، فكان له دروس في جامع بانقوسا يوم الجمعة بعد العصر، ودرس في الجامع الأموي

يوم الاثنين بعد الظهر، ودرس في جامع الحموي بعد الشمس وخطبة الجمعة، ودرس في المدرسة الثانوية الشرعية (الخسروية سابقاً) وفي معهد العلوم الشرعية (الشعبانية).

النيابة عن الشيخ الوالد:

وكان والده شيخنا الجد الإمام محمد نجيب سراج الدين ـ رحمه الله ـ علامةَ زمانه في علوم الحديث والتفسير والفقه والتوحيد والأخلاق والتصوف، في غاية القوة في دروسه، ومواقفِه من مقلدة الأجانب، ومن أهل الانحراف، وكان علماء الهند يسمونه محيي السنة، وأطلق علامة الحرم المكي الجليل السيد علوي المالكي ـ رحمه الله ورضي عنه ـ على الشيخ محمد نجيب، وصف الإمام فيما سمعت منه بأذني ـ رحمه الله ورضي عنه ـ فلما قعد والد شيخنا عن الدروس لكبر سنه نهض شيخنا بها نيابة عن أبيه، وكان عبئاً ثقيلاً جداً عليه، لمتانة الدروس وتنوعها، وارتفاع مستواها، إضافة إلى ضخامة جمهورها، مع حداثة سن الشيخ، إذ بلغ نحو الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر ! لكن العون الإلهي كان معه، وكان توفيق الله حليفه، فأداها أداء عظيماً، حتى صار كثيرون يوازنون بين الشيخ وأبيه، وكان ـ رحمه الله ـ يغضب من ذلك، ويقول: الوالد أمره عظيم لا يُدرك». وكان كثيراً ما يقول: «الشيخ نجيب أمره عجيب».

أهمية الزاد:

وساعده على ذلك سبق حفظه المتقن للقرآن والحديث، وحفظ المراجع المطولة.

قال رحمه الله تعالى يتحدث عن ذلك (ص ١٩٥): «ولم يزل يتابع تدريسه ـ يعني والده شيخنا الجد رحمه الله ـ بنشاط وهمة، حتى بلغ

أربعاً وتسعين سنة، ووكل إليَّ دُروسه والحمد لله.

وقد دعا لي بالتوفيق، وأمدني بتوجيهاته، ولولا أني كنت حافظاً للقرآن العظيم، وحافظاً جملة واسعة، وعدداً كبيراً من أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ تحتوي على مجلدات، لولا ذلك لكان قيامي بالتدريس عن سيدي الوالد رحمه الله تعالى صعباً عليّ جداً، ولكن الله تعالى أعد وأمد والحمد لله رب العالمين».

علو كعب الشيخ الإمام الجد رحمه الله:

وتتأكد أهمية هذا الزاد بما ذكر بعدُ عن والده فقال في الصفحة نفسها:

«وقد أعطى الله تعالى سيدي الوالد رحمه الله تعالى قوة الحفظ وضبط نصوص الكتاب والسنة النبوية، فكان رحمه الله تعالى حاضر المحفوظ من القرآن والأحاديث النبوية، لا يتوقف فيها، ولا يتلعثم، ويلقيها في دروسه متسلسلة ومتتابعة، ويأتي بالأحاديث النبوية مع بيان رواتها ومخرجيها، وكان له اهتمام كبير واهتمام شديد بالاطلاع على كتب الأحاديث النبوية بأنواعها: الجوامع والسنن، والمسانيد، والمعاجم، والأجزاء، إلى ما هنالك، فيورد في تقرير دروسه جملة واسعة من الأحاديث النبوية، في مقام الحجة والاستدلال».

إعانة الشيخ الوالد شيخنا ابنه:

وكان شيخنا كثير الحديث عن والده، كثير الإكبار له، قلما مرّ مجلس لا يذكره فيه، ومما تحدث عن والده لمناسبة ما ذكرنا من العبء الثقيل أنه قال:

«إنه كان دوماً على باب سيدنا رسول الله ﷺ، وكانت دروسه مليئة بالعلوم التوحيدية والعقائدية ومناقشتها.

وقد ألقى عليَّ حملاً ثقيلاً عندما وكلني بالتدريس محله، ولكنه أمدني، فقد رأيته مرة ـ وكنت في نحو العشرين من العمر[1] ـ في المنام يدق باب البيت، فهُرِعْتُ إليه وفتحت له، ففتح ذراعيه وضمني وألصق صدره على صدري مدة طويلة وهو يفيض علي.

ورأيته مرة أخرى وقد أخذ بيدي وسِرْنا فقلت له: إلى أين فقال: امشِ، فسِرْنا مسافة حتى صعدنا إلى مكان مرتفع فيه خلق كثير ـ وهو مُجْتَمَعُ الأولياء ـ وكلهم ينتظرون تشريف رسول الله ﷺ، ثم عندما أقبل ﷺ ومعه أمهات المؤمنين أسرع الناس إليه فقلت من أين يتسنى لي أن أتقدم وأمامي هـذه الجموع، ففجأة انفتح أمامي درب إلى حيث رسول الله ﷺ، والتفتَ رسول الله إلى يساره وتفل، فوقَعَتْ التَّفْلَةُ على كتف أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، فأسرعتُ وإذا أمامي واحد من أهل البيت يجري أمامي ووصل إليها قبلـي وحاول أخذ البصاقة الشريفة، ولكنه كان قصيراً لم يصل إلى كتف السيدة عائشة، فتقدمتُ وأخذتُها بفمي، واستبشرت خيراً عظيماً ـ بهذه الرؤيا ـ فكل هـذا في صحيفـة والـدي رحمه الله، هذا هو الحق».

وهكذا حملَ شيخنا عبءَ عملٍ عظيم، لكن بتأسيسٍ سابقٍ متين، وتوجيه حكيم، مستمر من والده رضي الله عنه، حتى حار الناس في المفاضلة بينهما، كما ذكرنا.

وكان الجد رحمه الله يخرج يوم الجمعة في أول ما تخلى عن الخطبة والدروس للشيخ ابنه وكنا نتبعهما، ثم ضعف عن هذا

---

(١) في الثانية أو الثالثة والعشرين كما تراه في موضع آخر. وكما يدل عليه قوله في الصفحـة السابقـة: «بلغ ـ والده ـ أربعـاً وتسعين سنة». وكانت ولادته سنة ١٢٧٢ هـ + ٩٤ = ١٣٦٦، وولادة شيخنا سنة ١٣٤٣ هـ رحمهما الله تعالى.

الخروج، فكنا نرجع من صلاة الجمعة مع شيخنا وأزور الجد مع والدي الشيخ محمد عتر رحمه الله تعالى، ويجلس شيخنا معنا حسبما يتسع له المجال إكراماً لنا رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته.

الحدث الضخم:

ثم جاء الحدث الضخم في حياة شيخنا بوفاة والده رحمه الله تعالى، في ٢٦ شعبان سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤/٤/٢٧ م. وقد اهتزت له البلاد، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، حضره من كبار العلماء من مختلف المحافظات والبيئات، وجاؤوا الشيخ يعزونه ويواسونه.

وكان أعظم العلماء تأثيراً في مواساة شيخنا هو شيخ العلماء رئيس رابطة العلماء في دمشق سماحة الشيخ المحدث السيد مكي الكَتّاني رحمه الله تعالى، فقد أطال المكث في المجلس مع شيخنا يواسيه ويشد أزره، وذكر لي رحمه الله تعالى هذه المأثرة لسماحة الشيخ السيد مكي وأثرها العميق لديه نفعنا الله بهم.

الصلة مع آل الكتاني:

وكان شيخنا يزور السيد مكي في دمشق بين فترة وأخرى، وقد صَحِبْتُه في بعض هذه الزيارات، وكان به حفياً، وكان مما قيل: إننا نعرف الشيخ من تلامذته ونلحظ في تلامذة الشيخ عبد الله سراج الدين الكمال والفضل والتواضع، والسلامة من التعاظم أو العجب.

وظلت صلة الأخوة مع فضيلة الشيخ السيد محمد الفاتح نجل شيخنا بالإجازة السيد مكي، وكانت الزيارات بينهما متبادلة في حلب ودمشق، حتى إن شيخنا أرسل قبل مرضه بشهرين يستزير سماحة

الفاتح، فبادر سماحته وتجشَّمَ مشقة السفر إلى حلب، وكان لقاء إيمانياً أخوياً مشحوناً بتحاور الأرواح، رحم الله الشيخ، وأطال عمر السيد الفاتح بتمام العافية امين.

* * *

جهاد الشيخ الإمام بعد والده

تابع شيخنا بعد والده رحمهما الله تعالى جهاده العلمي والدعوي، وعمله الاجتهادي، كما كان من قبل، ومن ثم جدد عهده بالحرمين الشريفين بحجة ثانية.

حجته مع والدته التقية:

وفي سنة ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م حج شيخنا حجته الثانية، وفي هذه الحجة صحب والدته، فازداد بره لوالديه بذلك، وتأمل كلماته يتحدث عن هذا البر، وكانت أمور الحج آنذاك محفوفة بالمصاعب والمتاعب، قال رحمه الله (ص٢٣٠): «كما أني أحمد الله تعالى الذي وفقني للحج مع والدتي الكريمة الصالحة التقية، الطاهرة الزكية، وقد كان الوقوف في عرفة يوم الجمعة في حجتي معها، وقد خدمتها، واعتراها المرض، فكنت أقوم بشأنها، واكتسبتُ الكثير من دعواتها ومرضاتها، فكنت أطلب منها أن تأذن لي بتقبيل رجليها فتمتنع، فكنت أقبل رجليها على حين غفلة منها، ولما انتهينا من أعمال الحج وتوجهنا للزيارة الشريفة، كنت أُكثِر من طلب دعائها لي أمام المواجهة الشريفة، وكانت تدعو لي كثيراً. والحمد لله رب العالمين».

وتابع شيخنا بعد والده الكريم العمل بدأب واشتغال، وقد ازداد الضغط عليه.

خطَّتُهُ في الدروس المدرسية:

التزم شيخنا رحمه الله في دروسه العلمية في المدرسة أصول التدريس الناجحة، فكان يُعْنَى بافتتاح الدرس لتشويق الطلبة، ثم يعرض من المقرر ما يريد شرحه، ويوضح المعلومات المدونة في الكتاب، ويضيف إليها ما يناسب حاجة الطالب، ويكمل فائدة الدرس بما يناسب من توجيهٍ للقلوب إلى الله، وتصفية النية وتخليصها من الشوائب ونحو ذلك. . .

أما أسلوبه فكان فيه تفنن في الإلقاء، من أسلوب غائب إلى مخاطب، ومِن خَبَرٍ إلى أمرٍ أو نَهْيٍ أو استفهام، وينهض بنفسه ويكتب على السبورة بنفسه، وخطه جميل، ويحاور الطلاب، ويجيب على أسئلتهم، فيجد الطالب عنده أنه قد وجد نفسه، وأنه اغتنى بعلم غزير واسع شامل، وأمتع قلبه وروحه من أنفاس الشيخ وروحه الصافية النفاذة إلى القلوب، فكانوا يتشوقون لدروسه.

وحصل بعد وفاة والده أن الدروس في جامع الحموي أُلْغِيَتْ، وألغي المرتب الشهري لها، فكانت: السبت والأحد، والأربعاء والخميس، وكانت في أصعب وقت، وهو بعد طلوع الشمس أربعة أيام أسبوعياً، فاستمر الشيخ يدرسها متبرعاً، وفاء لشرط الواقف، ومحواً لإثم مخالفته عن الناس. وخدمةً لعلم التفسير وعلم الحديث، وسيراً على طريقة والده رحمه الله تعالى، وقد كثر قاصدوا هذه الدروس حتى ضاق المسجد، واحتاج للتوسعة، فسعى لبناء سُدَّة واسعة لأجل ذلك، أجزل الله مثوبته، وكان درساً متميزاً بروح عالية خاصة به.

وكانت له وظيفة إمام في جامع سليمان، فلما كثرت أعباؤه تخلى عنها، وكان يقوم بأعمال تلك الجهات من دون إخلال، وبغاية القوة.

خطته في الدروس العامة:

كانت دروس الشيخ العامة في المساجد تضم جموعاً كبيرة من المستمعين تملأ المسجد حتى يَغصّ بهم، وكان روّادُها من جميع الطبقات، من أساتذة الجامعة، إلى خريجيها، إلى الطلاب إلى العامة، فهي دروس عامة وليست دروس عوامٍّ، وموضوعاتها أبحاث إيمانية، ومعارف من القرآن والحديث، يمتلئ قلب كل واحد من المستمعين لها إيماناً ومحبةً لله تعالى ولرسوله ﷺ، وتعظيماً لله ولرسوله، وتعلقاً باتباع شرع الله، وهذه كتبه التي ألفها قسم كبير من مضمونها هو من دروسه، أجرى عليها تعديلاً يناسب أسلوب التأليف، وعَرْضَ المادة العلمية في الكتاب. فتعلم من قراءتك ما كتبناه عن مؤلفاته أهمية دروسه، وارتفاعها بمن يواظب عليها، وقد كان رحمه الله ذا موهبة عالية في اللغة والبيان، فكان يعرض المادة العلمية من القضايا العميقة بلغة سهلة يقربها لأذهان السامعين كلهم، وبأسلوب متنوع جذّاب، لذلك فإن المستمع غير الدارس للعلوم الشرعية قد يجد لأول مرة علواً على مستواه، لكنه لا يلبث أن يتجاوب مع الدروس، ثم يتشوق إليها، حتى يجد نفسه متعلقة بها. وقد كنا نفيد من دروسه أيام طلبنا للعلم، ثم ظللنا نفيد منها بعد التخرج، نفيد علماً، ونفيد روحاً، رحمه الله تعالى وعوض المسلمين.

وقد تبع في بادىء الأمر ـ منذ تنازل له والده عن الدروس إلى ما بعد وفاته بفترة من الزمن ـ تبع خطة والده، فكان يفتتح دروس جامع بانقوسا والجامع الأموي، بقوله بعد حمد الله والصلاة والسلام

على رسوله ﷺ: أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله. ثم يدخل الموضوع.

وكان يختتم الدروس بمثل ما يختتم والده رحمه الله تعالى.

وكان يعرض في دروسه لآراء الفرق من المعتزلة والمرجئة والمجسمة، وغير ذلك من أمور، ومن دروسه عرفنا أشياء كثيرة في هذه القضايا.

ثم رأى في الرؤيا بعض أئمة الأولياء والعلماء الكبار، فقال لشيخنا: هل أدلك على ما به الفتوح قال له الشيخ: ذاك ما أبغي، فقرأ عليه سورة الفاتحة، وأخذ يفسرها تفسيراً طويلاً جداً، وشيخنا يصغي إليه حتى استيقظ.

من هنا عدّل شيخنا خطته فصار افتتاح دروسه هكذا:

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

ثم يبدأ الدرس.

وقد نوّع بدء دروسه فجعل درسه في جامع بانقوسا عقب الرؤيا تفسيراً مفصلاً لسورة الفاتحة، ثم جعلها ابتداء دروسه في هذا المسجد يقرؤها بعد أما بعد، ويقول تقدم لنا الكلام على هذه السورة، وعلى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ويذكر فيها ما يناسب الموضوع، وينتقل من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] إلى موضوع الدرس الجديد، بربط محكم عجيب.

وجعل ابتداءَ درس الجامع الأموي يوم الاثنين قراءة حديث: «بُنِيَ

الإسلامُ على خمسٍ»، يقرؤه من صحيح البخاري، يقول: بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبدالله محمدبن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ البخاري الجعفي قال: حدثنا عُبَيد الله بن موسى إلى آخر السند والمتن، ثم ينتقل إلى موضوع الدرس.

وأما إذا اختتم الدرس، فعلى نحو اختتام والده مع تعديل في الدعاء، فكان إذا اختتم الدرس يقول: «سيأتي تمام هذا إن شاء الله تعالى». ولم يختتم بعبارة «والله أعلم» التي يختم بها كثير من العلماء، لأن من العلماء مَن كره ذلك لأن هذه العبارة تدل على معنى عظيم من الثناء على الله تعالى، فلا يَحْسُن تحويلها لمجرد علامة على ختام الدرس.

ثم بعد هذا يبدأ الناس بالصلاة على النبي ﷺ الصلاةَ الإبراهمية يقولونها جهراً، ثلاث مرات، ويقولون آخر كل مرة: «عدد خلقك ورِضاءَ نفسك، وزِنَةَ عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون، وغَفَل عن ذِكرك الغافلون». وهذه منقولة عن الإمام الشافعي رضي الله عنه.

ثم يقولون جهراً عشر مرات: لا إله إلا الله.

ثم يُسَمِّعُ مرافق الشيخ بقراءة الفواتح، ثم يتوجه شيخنا رحمه الله بالدعاء، وفيه صيغ ثابتة بعد الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

اللهم احفظ أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم ارحم أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم أصلح أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم وفقنا لاتباع نبيك سيدنا محمد ﷺ ظاهراً وباطناً.

اللهم عطِّفْ علينا قلبَ نبيكَ سيدنا محمد ﷺ.

اللهم اغفرْ للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

ويختم ومعه السامعون «بآية» ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

وحوّل شيخنا موضوعات دروسه، لما تمس إليه حاجة الناس عامة والحاضرين خاصة من قضايا العقيدة والشريعة الأخلاق، ومن معارف القرآن في أبوابه الكثيرة العجيبة. وكان في بادىء الأمر يكثر جداً من إيراد الآيات والأحاديث في دروسه، ثم صار يتوسع في إيراد المعلومات والقضايا، ويستشهد لها من القرآن والحديث.

وكان يذكر الحديث مخرجاً من مصادره، يتبعه بأحاديث أخر، فيزداد الصحيح صحة، ويقوى ما قد يكون في بعضها من ضعف، وكان يحذر بشدة من التسرع إلى تضعيف الحديث لا سيما في قضايا الغيب، والفضائل ونحوها، وفضائل النبي ﷺ، ويقول في بعض المواطن: لا تقل: الحديث ضعيف، أنت ضعيف القلب، ضعيف الإيمان، ثم يأتي بالبيان والبرهان على صحة الحديث وقوته، أو صلوحه للأخذ به في بابه.

وكان لذلك وقع عظيم في نفوس الناس، وعند اهل العلم والفضل، لما جمع من علوم الشريعة بأنواعها، وتزكية النفوس من

أدرانها، وتحصين العقول والقلوب والعقائد، وتربية النفوس، بأسلوب فريد، يعتمد أدلة القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام الصحابة والتابعين، وأهل الزهد العارفين، ويعنى بأفعال السلف الصالح وأهل الورع وأحوالهم.

إشـارات:

لكن هذا أثار بعض الطامحين إلى التفرد بالظهور، فكانوا يُعَرِّضون بأن الشيخ ليس عنده شيء، يعنون أنه لا يتكلم بإلهام، وكان بعضهم يُعَرِّض بأن هذا علم مأخوذ من الأموات، وكان رحمه الله لا يبالي بهم، وإن كان يغضب كثيراً، يغضب لله، لا لنفسه، ويبين ضرورة اعتماد العالم على القرآن والحديث، فهما المعصومان، وهما مصدر أي علم صحيح شرعي.

وأذكر للقارىء الكريم أني ابتليت ببعض من هذا النوع بدمشق، لما افتتحت دروسي في المسجد، وامتلأ المكان، فجاء بعض المحبين ونبهني إلى بعض أشخاص يأخذون أناساً عقب الدرس يقولون لهم: أنتم تحضرون وتسمعون أحاديث البخاري وشرحها، هذا لا ينفعكم، تعالوا إلى مجلس الشيخ الفلاني ينفعكم ويوصلكم إلى الله.

فقلت: الخصومة والخلاف ليست بيني وبين هؤلاء، بل بينهم وبين النبي ﷺ، يزعمون كلامه لا ينفع، وهو المبعوث من الله تعالى!.

وهذا يوضح قول شيخنا في وقت متأخر: «أنا ليس لي شيء عند أحد منهم، أنا آخذ فيهم بحكم النبي ﷺ، مَن أمر بالسماح عنه عَفَوت عنه، ومَن لا يأمر بالسماح عنه لا أعفو عنه».

ففوض أمر منازعيه في الدنيا إلى الله تعالى، وأحسن التعامل

معهم، بالتقدير اللازم، وإصلاح العلاقة.

وكانوا يعمدون إلى الإغراب، لإثارة اهتمام العامة، فيثيرون قضايا عجيبة، يتبعون فيها آراءاً شاذة مصادِمةً لأدلة الشرع، وكان شيخنا رحمه الله يعرض للغلط بالبيان مع الأدلة الجلية من الكتاب والسنة النبوية.

ما مصير فرعون:

ومن المسائل التي أثيرت: دعوى صحة إيمان فرعون وقبول إيمانه، وأنه ناج من أهل الجنة!!.

لوجود ذلك في بعض نسخ من كتاب لكبار الصوفية، وقد تكررت هذه الدعوى في غير حلب، وأثارها بعض الناس غير المتمكنين في العلوم الشرعية والتفسير، أثاروها في دمشق أكثر من مرة، وناقشتُ بعض هؤلاء.

وقد دأب على إثارة هذه المسألة أهل الزيغ لتهوين المعاصي والموبقات على الناس، ولأهواء في نفوسهم، وربما أثارها البعض لمجرد التفرد برأي مخالف، أو غريب!.

وقد عُنِيَ شيخنا رحمه الله تعالى في دروسه بالرد على هذه الخرافة وأطال البحث فيها في دروس متعددة مستدلاً بالنصوص القاطعة من القرآن والحديث.

فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

قال: ليس الذهاب إلى النار ذهاباً لنُزهة، إن سَمومها يلفح القادم إليها قبل وصوله إليها بسبعين سنة. يشير بذلك إلى سخف التفكير بأن فرعون يُدخِل قومَه النار ثم يرجع إلى الجنة!.

ومن الحديث قوله ﷺ في تارك الصلاة: «وحُشِرَ مع فرعون

وهامان وأُبَيّ بنَ خَلَف». وهامان وأُبَيٌّ كافران مخلدان في النار، ففرعون كذلك.

قال: وإذا عاند أحد نقول له: حشرك الله مع فرعون. فهل يقبل!.

قال لي رحمه الله: «وقد انزعجوا من هذا كثيراً، وكنت شاباً»، يشير إلى أنه تمنى لو كان ألين من هذا، وقد طُويت هذه المسألة في حلب، وصلح ما بين الشيخ والآخرين. إنما ذكرتُها لإثارتها في دمشق ولجاج مثيرها.

وقد عرضت على شيخنا ما استدل به مَن أثار القضية في دمشق، وهو قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. قال بزعمه: «لعل للترجي، والترجي إذا صدر من الكريم فهو وعد لأنه تعالى ذو الفضل العظيم».

فأجاب فضيلته رحمه الله فور عَرضي هذا عليه جواباً فيه غاية الدقة في فهم القرآن، قال: ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ هنا لا ترجع إلى الله، بل إلى موسى وهارون عليهما السلام، أي كلِّماه كلاماً ليناً على الرغم من شدة كفره، وأنتما ترجوان ـ أي تأملان ـ أن يتذكر أو يخشى، لا كلام اليائس من الآخر ـ وأقول: شتان ما بين الخطابين والموقفين ـ وذكر لي قصة مناقشاته.

وله رضي الله عنه تصحيحات كثيرة لأخطاء أو أوهام مرشدين في المساجد، دَوَّنها أو أكثرها في كتبه، بأسلوبِ بيان الحق وأدلته، والجواب على أسئلة، وذلك مما ألف عليه قلوب الجميع.

العقل والدين:

ومن أهم هذه القضايا ما أثاره بعض شيوخ التصوف الكبار في أكثر من بلد في حلب ودمشق وغيرهما أنه لا ينبغي إعمال العقل، حتى

صار بعض هؤلاء يجعلون ذلك سُبَّة ونقيصة! يقولون: فلان عقلي. وأنه واجبٌ الأخذ بالنقل فقط. ومرادهم النقل عن الشيخ! فعُنِيَ شيخنا في دروسه ببيان اعتماد الشرع على العقل، ثم ألف بذلك كتابه (هدي القرآن إلى معرفة الحجة والبرهان).

وحدثني مستغرباً جداً أنه زاره في المدينة بعض المرشدين الكبار من بلدة غير حلب، ومعه شيخ آخر مثله، فذكر لهم رأيه في هذا الباب. فقال له المرشد: فَسَّرتُ في دروسي القرآن ثلاث مرات، فلم أجد أدلة عقلية! ورفيقه يقره على ما ذكره!!.

فتأمل أخي القارىء هذا الزعم في شأن كتاب يشيد بالعقل ويأمر به، أو يذكره معلياً من شأنه في نحو ثلاثمائة آية، ثم يقول فيه مسلم هذا!، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما نعيم الجنة:

كذاك كان من مهمات الآراء المُبتَدَعة الدعوةُ إلى الزهد بالجنة ونعيمها، وأنها شيء لا يؤبه له، فعقد لذلك دروساً متتابعة، يُبَيِّنُ فيها ترغيب الله لعباده بالجنة، وحثَّهم على دخولها، ومدح نعيمها في القرآن والحديث، وأن فيها النعيم الحسي، وفيها النعيم المعنوي الذي يفوق الحسي، بل يفوق التصور كما في الحديث: «ولا خطر على قلب بشر». وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

التوسل بالنبي ﷺ:

ومن أهم القضايا ما أثاره بعض الشاذين عن السنة في مسألة التوسل بالنبي ﷺ، ونحوه، وقد تعرض لها في دروسه باستيفاء ثم

عرض لها في ترجمته لشيخنا الجد والده، نسوقه لك بحروفه[1]:

قال رحمه الله تعالى:

تذَكَّر واتَّعِظ وتبصَّر:

«روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قال لي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «هل تدري ما قال أبي ـ أي عمر رضي الله عنه ـ لأبيك ـ أي أبي موسى رضي الله عنه».

قال: قلت: لا.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فإن أبي قال لأبيك: «يا أبا موسى هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله ﷺ وهجرتنا معه، وجهادنا معه، وعملنا كله معه، بَرَدَ لنا[2]، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كَفافاً: رأساً برأس أي لا هو لنا ولا هو علينا.

فقال أبوك لأبي: «لا والله، قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ، وصلينا، وصمنا، وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا بشر كثير، وإننا نرجو أجر ذلك».

فقال أبي ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه: ولكني أنا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك ـ أي: عملنا مع رسول الله ﷺ ـ بَرَدَ لنا، وأن كل شيء عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس» فقال أبو بردة: فقلت لابن عمر رضي الله عنهما: «إن أباك والله كان خيراً من أبي».

فهذا عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين،

---

(١) ص ١٤٨ ـ ١٥٧.

(٢) برد لنا: أي ثبت لنا، ودام ثوابه، وضاعف الله أجره أضعافاً مضاعفة أبداً.

يرجو من الله تعالى أن يقبل أعماله التي عملها مع رسول الله ﷺ: إسلامه، وهجرته، وجهاده مع سيدنا رسول الله ﷺ، وأن يثيبه الله على ذلك، وأن يضاعف له أجره أضعافاً مضاعفة، على وجه دائم بلا انقطاع، وذلك بسبب أنه عمل تلك الأعمال مع رسول الله ﷺ.

فعمر رضي الله عنه يرجو بجاه رسول الله ﷺ عند الله تعالى وكرامته ﷺ على الله وفضله ﷺ عند الله تعالى، متوسلاً بذلك كله إلى الله تعالى: أن يقبل الله تعالى أعماله التي عملها مع رسول الله ﷺ، ويضاعف له أجرها، على وجه لا ينقطع أبداً.

فهذا فيه إثبات التوسل به ﷺ إلى الله تعالى وفضل التوسل به ﷺ عند الله تعالى، وكيف لا نتوسل به وقد أعلم رسول الله ﷺ أمته، وأعلن لهم، وبيّن لهم في مناسبات متعددة، أنه ﷺ هو أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى، وأنه ﷺ هو أحب الخلق إلى الله، وأنه ﷺ هو إمام الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم، وقائدهم، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

صاحب المقام المحمود والشفاعة ﷺ:

وأنه ﷺ صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، ولواء الحمد، وأنه فاتح باب الشفاعة، وفاتح باب الجنة، والكل يدخلون وراءه ﷺ.

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعِثوا، وأنا خطيبهم إذا وَفَدوا، وأنا مبشرهم إذا أَيِسوا، ولواءُ الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد ابن آدم على ربي ولا فخر»، أي: أقول هذا متحدثاً بنعمة ربي، كما أمره بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وعن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، غير فخر».

وهو حبيب الله تعالى الأكرم ﷺ:

جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه، فتذكروا.

قال بعضهم عجباً ـ أي أمر عظيم وفضل كبير ـ إن الله تعالى اتخذ من خلقه خليلاً، فإبراهيم خليل الله تعالى.

فقال آخر: ماذا بأعجب من أنه سبحانه أنه كلم موسى تكليماً

فقال آخر: فعيسى كلمة الله و روحه.

وقال آخر: فآدم اصطفاه الله تعالى.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نَجِيُّ الله وهو كذلك، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك.

ألا وأنا حبيب الله تعالى ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم ومن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يُحَرِّك حلق الجنة ـ أي باب الجنة ـ ولا فخر. فيفتح الله تعالى فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ـ وفي رواية: «فقراء المهاجرين» ـ وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ولا فخر»[1].

---

(١) رواه الدارمي والترمذي، وأبو نعيم كذا في (الخصائص الكبرى).

أي: لا أقول ذلك تكبراً وتعاظماً على الناس، بل تحدثاً بنعمة الله تعالى، شاكراً له سبحانه، وحامداً لله تعالى الذي أعطاني هذه الرتبة. انتهى من شرح المواهب.

وروى الترمذي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي». أي لحبي إياهم.

ومعنى: أحبوني لحب الله، أي لحب الله إياي، فإنه اتخذني حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد نقل الحافظ القسطلاني رحمه الله تعالى في (المواهب اللدنية) عن العارف الكبير، والعلامة الشهير، سيدي إبراهيم الدسوقي أنه قال:

ألا يا محب المصطفى زد صبابة   وضمخ لسان الذكر منك بطيبه
ولا تعبأن بالمبطلين فإنَّما   علامة حب الله حب حبيبه ﷺ

وروى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأَسْتَفْتِحُ، فيقول الخازن: من أنت فأقول: محمد، فيقول بك أمرتُ ـ أي أمرني الله تعالى ـ أن لا أفتح لأحد قبلك».

فما أكرم سيدَنا محمداً ﷺ على الله تعالى، وما أرفع مقامه عند الله تعالى، وما أعظم وجاهته وجاهه عند الله ﷺ!!.

وقد ذكر الله تعالى وجاهة موسى وعيسى ـ صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ـ عنده سبحانه وتعالى، فقال في موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وقال في عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وجاهة النبي ﷺ:

فما ظنك بوجاهة وجاه إمام الأنبياء والمرسلين وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين، فحقيق بالمؤمنين أن يتوسلوا به ﷺ إلى الله تعالى، وأن يتوجهوا بجاهه عند الله تعالى.

وكيف لا يتوسلون به إلى الله تعالى، وبجاهه عند الله تعالى، وقد أقامه الله تعالى في مقام: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦]!.

فحق على المؤمنين أن يتوسلوا إلى الله تعالى بمن هو أولى بهم من أنفسهم، أي هو أرحم بهم من أنفسهم، وأرأف بهم وأحن وأشفق، وأشد عطفاً عليهم من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم.

ولما نزلت هذه الآية الكريمة، أعلن ذلك رسول الله ﷺ، وبيّن أنه ﷺ هو أولى بكل مؤمن من نفسه، ولم يخص بذلك الصحابة رضي الله عنهم، بل أعلم أمته، وبين أن أولويته عامة لجميع المؤمنين في الدنيا والآخرة.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً -أي عيالاً- فَلْيَأْتِنِي فأنا مولاه».

فبين ﷺ عموم أولويته للمؤمنين كلهم، وأنها عامة لهم دنيا وآخرة ﷺ.

فإذا اشتدت عليهم الكروب وعَظُمت الخطوب، فليتوسلوا به ﷺ إلى الله تعالى فإنه أولى بهم من أنفسهم.

ويرحم الله تعالى القائل:

إلهي توسلنا بجاه محمد لعلياك في أمر تعسر حله
إذا ضاق صدري والهموم تزايدت فليس لها إلا الذي عَمَّ فضله

ويرحم الله تعالى القائل:

يا رب يا ر ب يا رب

بالذل قد وافيت بابك عالماً أن التذلل عند بابك ينفع
وجعلت معتمدي عليك توكلاً وبسطت كفي سائلاً أتضرع
فبحق من أحببته وبعثته وأجبت دعوة من به يستشفع
اجعل لنا من كل ضيق مخرجاً والطف بنا يا مَن إليه المرجع
ثم الصلاة على النبي وآله خير الأنام ومَن به يُتَشَفَّع

صلى الله العظيم عليه وعلى آله وصحبه وسلم، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.

هذا وإن جميع ما تقدم ذكره، من بعض القضايا الإيمانية، والمعارف الربانية، والمسائل العلمية، هو مستمد من بعض تقريرات سيدي وشيخي والدي الكريم، وبعض قليل من دروسه التي ألقاها في جامع الأموي الكبير، فإن دروسه ومحاضراته العلمية والعرفانية كانت واسعة جداً وعميقة، كلها مؤيدة وثابتة بالكتاب والسنة، والحمد لله رب العالمين.

من أدلة التوسل:

ومما يدل على حقِّيَّةِ التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم، قبل وفاته وبعد وفاته ﷺ حديث عثمان بن حُنَيْفٍ رضي الله عنه:

روى الإمام الترمذي والنسائي والبيهقي، من طرق متعددة، عن عثمان بن حُنَيْف رضي الله عنه، أن رجلاً ضرير البصر، أتى إلى

النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني - أي بأن يَرُدَّ عليه بصره - فقال له ﷺ إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك.

قال - الرجل -: فادعه.

قال عثمان: فأمره النبي ﷺ أن يتوضأ ويحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إن توجهت بك إلى ربي في حاجتي لِتُقْضَى لي، اللهم فشفِّعْه فِيَّ».

وزاد البيهقي في روايته من طرق: «فقام الرجل وقد أبصر». في رواية: «ففعل الرجل فبرأ ببركته ﷺ».

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد متصل ورجاله ثقات، عن عثمان بن حُنَيْف رضي الله عنه: «أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه - حين كان خليفة - فكان عثمان بن عفان رضي الله عنه لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته - أي لكثرة أشغاله - فلقي الرجل عثمان بن حنيف رضي الله عنه فشكى إليه ذلك.

فقال له عثمان بن حنيف رضي الله عنه: ائت الميضأة - أي موضع الوضوء - فتوضأ ثم ائْتِ المسجد فصلِّ فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتُقضى». وتذكر حاجتك، ورح حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له عثمان بن حنيف رضي الله عنه ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة.

فقال له عثمان بن عفان رضي الله عنه: حاجتك فذكرها له.

فقال له: فاذكر حاجتك ـ أي التي كنت طلبتها ـ حتى كان الساعة.

وقال له: ما كان لك من حاجة فاذكرها ـ أي اذكر لي جميع حاجاتك ـ.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له الرجل جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت لي حتى كلمتَه.

قال عثمان بن حنيف رضي الله عنه: والله ما كلمته، ولكنني شهدتُ رسول الله ﷺ وأتاه ضرير، فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: أَوَتَصْبِر فقال: يارسول الله، ليس لي قائد، وقد شق عليَّ.

فقال له النبي ﷺ: «ائت الميضأة فتوضأ، ثم صلِّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات». ـ أي التي مر ذكرها.

فقال عثمان بن حنيف رضي الله عنه: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قطُّ ـ أي فَرَدَّ الله بصره في الحال سريعاً.

فادع الله تعالى أيها المؤمن والمؤمنة بهذا الدعاء بعد صلاة ركعتين في حاجتك لتُقضى.

وقد نقل الإمام النووي رضي الله عنه في تهذيبه في ترجمة عقبة بن عامر، أنه شهد في فتوح الشام، وكان هو البريد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح دمشق ـ أي هو حامل الأخبار إلى عمر رضي الله عنه من دمشق إلى المدينة المنورة به ﷺ ـ ووصل إلى المدينة المنورة بأنواره ﷺ في سبعة أيام، ورجع منها إلى الشام في يومين ونصف، وبسبب دعائه عند قبره الشريف ﷺ وتشفعه به في تقريب طريقه. اهـ.

فكانت الأرض تُطْوَى له طَيّاً ببركته ﷺ أبداً أبداً.

ومما يدل على صحة وحقية التوسل به ﷺ إلى الله تعالى أنه قد ثبت وصحَّ توسل العبد المؤمن إلى الله تعالى بعمله الصالح الخالص لله تعالى، كما دل على ذلك حديث أصحاب الغار، والتوسل إلى الله تعالى بسيد الصالحين وإمامهم الذي شهد الله له أنه قد نال أعلى مقام في الصلاح، واختصه به الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

فإن تولِّي الله تعالى للمؤمن يكون على حسب صلاحه، فلما كان سيدنا محمد رسول الله ﷺ أعطاه الله تعالى أعلى مقام في الصلاح، خاص به، فلذلك خصه الله تعالى بتولية له خاصة، فوق كل تولية، وأنزل ذلك في كتابه العزيز إعلاماً وإعلاناً». انتهى المقصود منه بحروفه.

تدارك أهل القرى:

وتابع شيخنا رحمه الله تعالى جهاده في العلم والتعليم، والدعوة والذكر، والاهتمام بمصلحة الدين، ومن ذلك أنه علم أن أناساً يطوفون على القرى، يدعون أهلها إلى غير الإسلام، يعطون أشياء مذهبة مصلبة، يزعمون أنها تأتيهم بالخير والمطر، فنظم مجموعة من الدعاة تخرج كل عدة أيام في جهةٍ بسيارة توزعهم على قرى تلك الجهة، ثم يعودون فيها آخر النهار، ورتب عملهم ترتيباً محكماً، حيث إنهم يبدؤون بزيارة المختار، يُعَرِّفونه قصدهم، وأنهم يحملون ضيافات وهدايا لأهل القرية، فيدعو المختار أهل القرية، ويجلسون في المسجد ويقدم الداعية لهم ضيافة وشيئاً مما تيسر، وكان ذلك مهماً جداً لنجاحهم، فقد مَلَّ أهل القرى من زيارات أناس يزعمون الدعوة، وما هم إلا متسولون يأخذون المال، فنفع الله بهذا العمل المخلص إذ حبب إلى الناس الجلوس للعلم، وكان ذلك بداية تأسيس جمعية

التعليم الشرعي، ثم التحق أبناء القرى بمدرسة الشيخ مدرسة التعليم الشرعي في حلب، فصار دعاتها منها.

وقصة ذلك أن شيخنا لما أحسّ بالضرورة لتعليم أهل القرى مهمات دينهم دعا نخبة من الأغنياء الأتقياء بينهم الشيخ عبد اللطيف الباذنجكي، وذكر لهم المسألة والحاجة إلى نشر العلم وقال لهم: بعض العوام يقول: المشايخ لا يعملون، نقول لكم المشايخ يعملون لكن الأمر يحتاج إلى مال فهل الأغنياء ينفقون قالوا نعم، وندفع لك ما تطلب. قال: أنا لا آخذ بيدي شيئاً، لكن نعين شخصاً يستلم ويصرف ويحاسب، ثم صار ذلك جمعية مرخصة هي جمعية التعليم الشرعي.

نحن المدرسة:

وفي سنة ١٩٥٨ م أُلْغِيَ معهد العلوم الشرعية الذي كان مقره في جامع المدرسة الشعبانية في حي الفرافرة، والتحق بعض طلابه بالثانوية الشرعية التي حلت محل الخسروية القديمة، وشُرِّدَ الباقون، وأحس الشيخ بالخطر على المساجد أن يرعاها من ليس أهلاً للإمامة والخطابة، وذلك من بدايات واقع ملموس، فجمعته مناسبة مع عدد من أساتذة المعهد أذكر منهم الشيخ محمد الغشيم، والشيخ عبد الله خير الله، والشيخ محمد المعدل، والشيخ سامي البصمجي رحمهم الله تعالى فقال الشيخ لهم: يا أستاذ، ألسنا موجودين قالوا: بلى، قال ألستم مستعدون للتدريس قالوا: بلى، قال: فالمدرسة موجودة، نحن المدرسة، ليس الجدران(١)، هل ندعو من يرغب من الطلاب للحضور قالوا نعم.

---

(١) وهذا درس بليغ لكل طالبِ علمٍ أن يسعى لنشر العلم على كل حال، فهو مدرسة متحركة، وهو جامعة متحركة، ولا يتقيد لنشر العلم بأسر العادة أنه لا بد من مكان رسمي! فالله سيسألك عن علمك ما عملت فيه، عملاً وتعليماً.

فأعلن عن افتتاح دروس علوم شرعية في جامع الحموي، وانتظم طلاب كثيرون سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م، ودرسوا بِهِمّة، وامتحنهم الأساتذة، وصار هناك صف آخر، وجاء في السنة التي بعدها طلاب جدد، حتى إذا كانت السنة الثالثة أو الرابعة، تولى إدارة الأوقاف بحلب رجل مستقيم ناصح، وتوجه له شيخنا ـ وهو يقص علي ـ بدعاء له صالح ضارع، وقال هذا المدير لفضيلة شيخنا: ماذا تأمر قال أريد المدرسة الشعبانية يأوي إليها الطلاب. فقال المدير: غداً خذوها، قال الشيخ: «كيف نأخذها وقد احتلها أناس أشتات، ليسوا من أهل مسجد ولا شيء!». وكان قد احتل صفوف المدرسة بعد إغلاقها أناس جعلوها مستودعات بضائع، ومراكز تهريب، أو تسلية وعبث، فقال المدير: نخرجهم بقوة الشرطة، فأخرجهم، وأرسل المفاتيح إلى الشيخ، فلقد بلغني وأنا في القاهرة في الدراسات العليا كلام سوء من بعض هؤلاء الشراذم في حق الشيخ، وهذا كما ورد في الحديث: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

المدرسة الرائدة:

وصار شيخنا يأتي كل يوم إلى المدرسة يُمْضِيْ فيها وقتاً طويلاً ينظمها، وهُرِعَ إليه أهل الخير، يقدمون له ما يحتاج، وكانت فكرته مستغربة عند أكثر المشايخ الكبار في حلب، فقد كانوا يكتفون بجلوس الناس إليهم جموعاً كثيرة، وبأخذ بعض الأوراد والأدعية، لكنه كان صاحب عزم وتصميم، لم يبال بذلك، ومضى ينفذ ما رآه لازماً، بعزم لا يُفَلُّ، على الرغم من الصعوبات الشديدة، حتى اكتملت المدرسة، وحصلنا لها على المعادلة بالشهادة الثانوية الأزهرية، يقبل خريجوها في كلية الشريعة في الأزهر، وما لبث مشروع المدرسة هذا أن صار مقصداً للعلماء، وأسوة يُقتَدَى بها،

فافْتُتِحَتْ مدارس عديدة أفادت من تجربته: في حلب والمعرة وحماة ودمشق وغيرها، وفي المدينة المنورة افتتحت مدرسة بإشرافه أيام إقامته فيها بعد ذلك.

وكان رحمه الله يُعْنَى بشرح هدفه من افتتاح المدرسة للناس، وخصوصاً كبار الزوار من خاصة الناس أو المسؤولين وهو الحاجة الضرورية لشغل الوظائف الدينية بأصحاب كفاءات وتدريب على منهج شرعي علمي وتعليمي ضماناً لها من تولي رجال لا تُعرف مقاصدهم، وليس لهم تكوين علمي وذلك يجعلهم يشذون يميناً وشمالاً، ولا ندري ماذا في رؤوسهم! وكان ذلك يجعلهم كلّهم متعاطفين مع فكرته، مؤيدين لها.

بشائر بالمدرسة الشرعية:

وكان شيخنا كلما ذكر عمله هذا، قال: هذا عمل والدي، رأى رسول الله ﷺ في المنام يأمره قائلاً: «أنت يا شيخ نجيب افتح مدرسة» لكنه لم يتمكن، فهذه تحقيق لرغبته رضي الله عنهما.

وذكر لنا مراراً رؤيا قصها عليه أحد الأحبة العلماء المخلصين لما اكتملت صفوف المدرسة بالصف السادس، جاء يوماً مبكراً مُتَبَسِّماً، فقال له شيخنا: خير يا شيخ محمد قال: رأيت الليلة والدك عند باب المدرسة، وهو مشمر ثيابه، وبيده بعض آلات البناء، وهو متعرق جداً، العرق يتصبب منه، فقال لي: انظر يا شيخ محمد، قد أتممت لكم المدرسة، لكن انظر إليَّ، فإذا هو يتصبب عرقاً، وكان شيخنا يقول: هذه مدرسة الشيخ نجيب ليست مدرستي.

ويتمم صورة افتتاح الجمعية والمدرسة ما ذكره في ثنايا ترجمة والده رحمهما الله تعالى، قال[1]:

«ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ورضي عنه أنه رأى في المنام ـ وكان ذلك في أواخر عمره ـ أن النبي ﷺ أمره أن يفتح وينشئ مدرسة شرعية، تُدرس فيها علوم الشريعة».

«وتحدث بذلك في مجالسه مع بعض المحبين من الإخوان، وهمَّ بذلك، وعزم على ذلك، وكان قد اعتراه وجع الركبتين كما هو عادة الطاعنين في السن، فالتزم البيت، ووكلني بدروسه رحمه الله تعالى، ولكن لم تزل الهمة، والعزم الصادق على افتتاح مدرسة شرعية، وحرَّضني على ذلك، ونشَّطني وحثَّني على ذلك، فما مضت مدة إلا وقد يسَّر الله تعالى عليَّ فعل ذلك، فبدأت ترتيب ما يتطلبه أمر افتتاح مدرسة شرعية، تدرَّسُ فيها العلوم الشرعية».

«فبدأت في ترخيص إنشاء جمعية تقوم بحاجات المدرسة ونفقاتها، وقد يسَّر الله تعالى ترخيصها، وهيأ لها أعضاء مؤسسين إداريين أَكْفاء أتقياء، تولوا أمور الجمعية، وقاموا فيها بعزم وصدق وبذل، فجزاهم الله تعالى خيراً، والحمد لله رب العالمين».

«ثم إنه بعد ما كمل تشكيل المدرسة على مدى سنوات ستة متتابعة، وكمل تنظيمها، وتمت صفوفها الستة، وبعدما عدِّلت شهاداتها لدى جامعة الأزهر، وتمت أمور المدرسة من جميع أطرافها، رأى بعض تلامذة والدي الكريم الملازمين له ـ وكانت له دروس يلقيها في المدرسة ـ رأى في منامه سيدي الوالد الكريم في

---

(1) ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

المدرسة، فسأله عن مجيئه ! فقال له سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى: الآن أتممت لكم أمور المدرسة والحمد لله».

«وهذه الرؤيا وغيرها من الرؤيا زادتني طمأنينة ويقيناً أن لسيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ورضي عنه اهتماماً كبيراً في افتتاح مدرسة جمعية التعليم الشرعي، وله معاونة وجهد في إتمامها وإكمالها، حتى بعد وفاته رحمه الله تعالى، ليحقق ما أمره به النبي ﷺ كما تقدم في رؤياه».

«ففكرة افتتاح المدرسة، وإتمام إنشائها وإكمالها، هي فكرته رحمه الله تعالى، ورغبته الشديدة في امتثال أمره ﷺ.

وقد تمت وكملت بنيته الصادقة، وهمته القوية، ودعواته وتوجُّهاته، حتى بعد وفاته رحمه الله تعالى، والمسلمين أجمعين، آمين.

وإنني لأحمد الله تعالى رب العالمين أنه سبحانه وتعالى جعلني واسطة في تنفيذ نيته ورغبته، وطاعته لأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً». انتهى كلامه.

حجه للمرة الثالثة:

وفي سنة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م حج شيخنا حجته الثالثة، صحب فيها السيدةَ الفاضلة النبيلة حَرَمَه المصون، وكان في صحبته ومرافقته الصديق الوفي الشيخ عبد اللطيف البادنجكي رحمهما الله، وعدد من الأصحاب، وقدم الحج راغباً برفقة الشيخ السيد الحاج أحمد ططري وهو عم حرم شيخنا رحمهما الله تعالى، وكان اجتماعاً مؤنساً جداً، وقدم والدي ووالدتي الحج وكنت عامها في المدينة المنورة أستاذاً للحديث النبوي في الجامعة الإسلامية، كنا نتبرك بالشيخ في مجالسته

في الحرم، ونخشع لدعائه وتوجهه، ونتزود من توجيهاته النيرة. وقدَّم الزيارة الشريفة على الحج أخذاً بما ارتآه طائفة من العلماء.

وقد حرص في هذه الحجة على تأمين كل ما يمكن لحرمه المصون.

وكان في غاية الإقبال على الله تعالى، والعبادة، في غاية التواضع، والخضوع، والخشوع، في الحرمين الشريفين.

ولما دنا وقت العودة من مكة بالطائرة رغَّب شيخنا إخوانه بالتخفف من ثقل عادات الناس في الإسراف بالضيافة والاقتصار على التمر وزمزم وضيافة مثل ضيافة العيد مثلاً، ولأهل حلب لا سيما في تلك الفترة وما سبق عادة في التكلف ترهق الكثير من الحجاج. فرغَّب شيخنا أصحابَه بالاعتدال، وباشر ذلك هو نفسه، فوافقه على ذلك بعضهم فغنموا، واستسلم آخرون للعادة، والخوف من قالة الناس فخسروا! خسروا ثواب اتباع السنة في ترك الإسراف، وثواب سَنٍّ السُّنَّة الحسنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد الحج استأنف شيخنا عمله ونشاطه بقوة أكبر، وزاد عمله كثرة وغزارة، وحفل وقته بالدروس من الصباح إلى المساء، وافتتح مجلس ذكرٍ أسبوعي في جامع العثمانية يوم الاثنين بعد العشاء، ومجلس صلاة على النبي ﷺ في فرع المدرسة كل يوم أربعاء بعد العشاء كذلك. وحفلت أيامه بالعمل الدَّعوي والاجتماعي، والعمل العلمي، تدريساً وتأليفاً، مع الاهتمام بمصلحة الدين وحاجة أهله.

الرحلة التركية:

كانت الحاجة ماسة بالشيخ للاستجمام والاستراحة من عناء العمل المتواصل، لاسيما بعد وفاة صديقه الحميم الشيخ عبد اللطيف

بادنجكي رحمه الله ، وتوقف مجالس التنزه في مزرعته (الكَرَم) ، وكان السيد الحاج أحمد ططري عمّ الحَرَم المصون لشيخنا شقيق والدها ، كان على صلةٍ وثيقةٍ بالشيخ ومحبة عميقة موروثة من والده رحمهما الله ، ومؤسسة في قلبه من الحضور على دروس والد شيخنا ثم دروس شيخنا ، فوجّه الدعوة في أثناء زيارة له إلى حلب قصد فيها الشيخ ودعاه لزيارة إزمير بلد إقامته وأعماله ومعامله ، وألحّ وكرر الدعوة وأصرّ كثيراً ، حتى استجاب شيخنا لدعوته ، واستمر عدة سنين يزوره شهراً في الصيف ينزل في منتجع بعيد عن إزمير يتخذ الشيخ مكاناً منعزلاً عن الناس يقيم فيه.

وكان الحاج أحمد من الأغنياء الأثرياء الشاكرين ، أسهم بحظ عظيم في بناء المعهد الإسلامي العالي في إزمير ، على مستوى الجامعة ، وبنى مدرسة شرعية ، وعدة مساجد ، وكان يقدم مرتبات من عنده إضافة لمرتبات موظفي وأساتذة هذه المؤسسات كلها ، لأنها لا تفي بحاجتهم آنذاك.

وبهذا كانت زيارة شيخنا مهمة جداً ، لما يمكن أن تحققه من الفوائد الجليلة في توجيه هذه المؤسسات التي يشرف الحاج أحمد الططري عليها. وقد كان يعقد للأساتذة لقاءات علمية تعالج المشكلات العلمية والاعتقادية والمنهجية ، أفاد علماء البلد منها فوائد قيمة ، وتفتحت أذهانهم على آفاق واسعة لا عهد لهم بها.

كذلك كانت زيارة الشيخ هذه فرصة له مهمة للتأليف ، وكان يصحب معه حقائب كثيرة من المراجع لهذه الغاية.

وكان من ثمار هذه الرحلات لخير البلدة إزمير أن اطلع الشيخ على حاجة الطلاب الحفظة للقرآن الماسة إلى تصحيح مخارج بعض الحروف ، لا سيما الواو ، فحدثهم بذلك ، فرغبوا بإرسال الطلاب

إلى مدرسة الشعبانية بحلب، وجاء وفد منهم أمضوا إجازة صيف نجحوا فيها نجاحاً كاملاً في تصحيح حروفهم، حتى إني لما زرتُ تركية مع فضيلته واستمعنا قراءة طلاب المعهد ظهر تميز هذه الفئة بصحة حروفها على زملائهم ظهوراً واضحاً.

وهكذا جعل الشيخ من رحلته للاستجمام عملاً علمياً وإسلامياً نافعاً، نفع بلدة إزمير التركية، وبلاد سورية والعرب، فَلْتُفِدْ أخي القارئ الكريم من كل ما تستطيع لخير دينك وأمتك.

طموح واعتدال:

وكان الشيخ رضي الله عنه ذا طموح عظيم، وعزم متين، فعزم على افتتاح قسم جامعي سماه (قسم التخصص)، واجتمعنا به أنا وصديقه وزميله في الطلب فضيلة الدكتور الشيخ الفقيه المحقق محمد فوزي فيض الله، وبعض الأساتذة الفضلاء، ووضعنا المناهج لذلك، وبدأ التنفيذ، وطمحنا لافتتاح دراسات عليا، وتحدثنا عنها لكن جاءت أحداث ٨٠ ـ ٨٢ م، لتقوض هذه الآمال، بعد أن كانت قريبةً جداً من التحقيق والمَنال.

ومن لطائف الواقع في مشاوراتنا في اجتماع وضع المناهج، أننا تحمسنا، وأكثر كل واحد الاقتراحات في هذه المناهج ومفرداتها المقررة، وهو رحمه الله تعالى ينظر بعين الواقع والحكمة، فقال لنا ـ ذاكراً عن شيخه مفتي حلب الأسبق الشيخ أحمد الكردي ـ: إن قوماً أرادوا سفراً، فأقعدوا جملاً، وصاروا يحملون عليه الأمتعة، وكل واحد يأتي بما يشتهي، حتى ثقل الحمل جداً، وارتفع، وما زالوا يقولون: هذا مهم، وهذا مفيد، فالتفت إليهم الجمل وقال: ضعوا ما شئتم، فما أنا بقائم!!.

عنايته بحفظ القرآن والقراءات:

وكان رضي الله عنه يتقصى حاجة المسلمين الدينية، فرأى نقصاً شديداً في حفظ القراءات، وخشي انقراض علم القراءات في حلب، ولَحَظْتُ أنه يذاكرني أكثر من مرة في أهمية هذا العلم، لحفظ القرآن، وضرورة وجود عدد كاف من حفاظها، لدفع تقولات المتقولين على الله، وإذا به يفتتح في الجمعية داراً للحفاظ، يُعْنَى فيها بحفظ القرآن على قراءة حفص وبحفظ القراءات (سنة ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م).

قال رحمه الله يتحدث عنها[١]:

«لا تزال إمداداته وتوجهاته، ودعواته، تتوالى وتتابع، فافْتَتَحَتْ جمعيةُ التعليم الشرعي[٢] داراً لحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ثم داراً لأجل تعليم القراءات ووجوهها عن طريق الشاطبية وعن طريق الطيبة، وقد تخرج منها ولا يزال يتخرج قراء كثيرون، يجيدون القراءات، والحمد لله رب العالمين.

ومن المعلوم عند علماء الشريعة أن علم القراءات ووجوهها هو فرض كفائي، أي من جملة الفروض الكفائية التي إذا قام بها وتعلمها البعض الكافي سقط الإثم عن الأمة، وإذا لم يتعلمها البعض الذين فيهم الكفاية فالأمة كلها آثمة ومسؤولة يوم القيامة، فقضية علم القراءات قضية شرعية مهمة، وهو من جملة الفروض الشرعية الكفائية المهمة، لها اعتبارها في الشريعة» انتهى

---

(١) ص ٢٢١.

(٢) انظر هذا التعبير، لم يقل: «افتَتَحْتُ أنا» بل قال: «افْتَتَحتْ جمعيةُ التعليم الشرعي». وهذا على عادته في التواضع رحمه الله.

الحكمة والسّداد:

ولم يفتتح شيخنا العمل كيفما اتفَق، بل أَعدَّ له عُدَّتَه، وكان هناك حافظان جامعان:

أحدهما أخونا الشيخ محمد عادل الحمصي، فرتب له برنامجَ سفرٍ أسبوعي إلى حمص يذاكر بقراءته شيخ حمص في القراءات وفقيهها ومحدثها فضيلة شيخنا الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله وأجزل مثوبته، وهكذا حتى تم المراد.

وأما الآخر فحافظ فاضل، متقن كفيف، هو الشيخ أديب شهيد، وأحدهما يحفظ القراءات عن طريق الطيبة والآخر عن طريق الشاطبية، فَسُرَّ لذلك، وقال: حققنا حفظ القراءات من الطريقين، وشجع الأساتذة والطلاب بمكافآت جيدة، ضماناً لحسن سير العمل.

وهنا دروس في هذا العمل تُعْرَفُ من سرده، أعرض لواحد خفيٍّ، هو أنه توجد في حلب مدرسة حُفّاظ تابعة للأوقاف، كان فيها قصور شديد، فجاء طلابها يطلبون التحويل إلى مدرسته في الشعبانية، فسألهم عن السبب فقالوا: الأوقاف تدفع لنا مكافأة ضعيفة، وأنتم تدفعون أربعة أضعافها!

فقال الشيخ قولة أهل الحكمة وأسد السداد: «نحن نبني ولا نهدم، استمِروا في مدرستكم وندفع لكم بقية المكافأة الشهرية من عندنا». ففرحوا، وظلت مدرسة الأوقاف للحفاظ قائمة.

الإصلاح الاجتماعي:

كذلك قام بنشاط اجتماعي كبير لا سيما بين أبناء الأسر الكبيرة، وقد وقعت خلافات كثيرة تهدد بتمزيق عائلات كبيرة لها سمعة حسنة

وشهرة، فأصلح بينهم وحفظ وحدة الأسرة، ومن أعظم ذلك الإصلاح بين أسرتين كبيرتين جداً، وقع بينهما دم، وكان المصالَحون ذوي شكيمة شديدة، حتى صار خصومهم يختبئون من الخوف فدخل رحمه الله بينهم وألف الله له قلب زعيم هؤلاء الأشداء، حتى رضي، بل إنه لما تم الاتفاق على التسوية وعقد الاجتماع قابل الشيخ بغاية الحفاوة والتكريم، مما لم يُعْهَدْ مثله منه مع أحد.

أهداف جمعية التعليم الشرعي:

وأما جمعية التعليم الشرعي التي أسسها، فقد هدف منها ـ إلى بقية أهدافها ـ هدفاً خاصاً، هو رعاية طلاب العلم والأسر المحتاجة من أسر أهل العلم، فإن مواردهم قليلة، قلما يخلف أحدهم مالاً كافياً، وحرص رضي الله عنه على إمداد طلاب العلم من التبرعات إكراماً لهم، وخصص الزكاة لمصارفها الباقية، لكن وجدته في السنين الأخيرة يشكو إلى الله تعالى من قصور التبرعات عن الوفاء بذلك، وإني أعلنها ههنا، ليتحمل كل ذي قدرة مالية مسؤوليته، فإن إمداد مشروعات العلم فرض على الأمة وأغنيائها أن يَسُدُّوا حاجاتها ليؤدَّى فرضُ الله الذي أمر الله به وأمر رسوله به.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

فهيا يا أيها الموسرون، اخدموا دينكم بمالكم، واستنقذوا أنفسكم

من موقف الحساب غداً بين يدي ربكم، بل استنقذوا دينكم وأمتكم من تسلط عدوكم[١].

صلته بأهل العلم والولاية:

عني -رحمه الله- بالاتصال بالعلماء الفضلاء في سفرات الحج، وأسفار العمرة، ورحل رحلات كثيرة إلى دمشق وحمص وحماة، ورحل إلى القدس نحو سنة ١٩٥١م مع أسرته، ثم بعدها بنحو سنتين رحل إلى بغداد مع ثُلَّةٍ من خُلَّص المحبين، واتصل بعلماء البلاد التي زارها، وكان محل إعجابهم، كما عُني كثيراً بتوثيق علاقته بأهل الولاية منهم، وكان يسافر خصيصاً لزيارتهم والتنور بهم، فأولعوا بمحبته، وبشروه بشريات عظيمة:

منها قول الشيخ العلامة يحيى الصباغ: «أنت لا يخشى عليك الرياء».

ومنها قول الشيخ أحمد الحارون الولي الجليل المشهور: «أنت عليك أنظار رسول الله ﷺ، وإذا سطع نجمك غطّى على الجميع، قال -رحمه الله-: فأخذني من ذلك حال عظيم حتى غبت عما قال».

وكانت صلة الود والحب قوية بينه وبين العلماء الفضلاء، وكانوا

---

(١) من مآسي شح الأغنياء، ما ذكره لي -من أيام- أخ محب يقوم بالدعوة إلى الله في البلاد الأجنبية، قال: أغنياء المسلمين لهم أموال ضخمة، تعادل ثروة الواحد منهم ملايين دولارات، والدعوة تحتاج إلى مال كثير، فكنا نطلب منهم العون، فيبخلون علينا، فالآن جمدت أرصدتهم، ولو كانوا أنفقوا على الدعوة ومشروعاتها لكان للإسلام سمعة عظيمة وهيبة، تحول دون هذا الاغتصاب والظلم.
وأقول: إن هذا يذكرنا بالحديث القدسي الصحيح المتفق عليه: «يابن آدم أَنفِقْ أُنفِقْ عليك». وقال ﷺ كما في البخاري: «ولا تُوكِي فَيُوكَى عليك».

يزورونه في حلب وأخصُّ بالذكر شيخنا شيخ حمص فضيلة الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى، كان كثيرة الزيارة لحلب.

ومن لطيف ما أذكره أن شيخنا مر بحماة عائداً إلى حلب، ووجد الظروف لا تسمح بزيارة شيخ حماة العلامة الزاهد المجاهد الشيخ محمد الحامد، فكتب إليه الشيخ الحامد رحمه الله عاتباً مستزيراً هذا البيت من الشعر:

تَمرُّون الديارَ ولم تَعُوْجُوا زيارتُكم إليَّ إذَنِ لِزَامُ

قال لي رحمه الله: حقت الزيارة[1].

وعُنِي الشيخ في دروسه بالعلم الشرعي والمعارف الإلهية ومحبة النبي ﷺ، حتى صارت دروسه متميزة بذلك، واعتمد في كل ذلك على الحجج والأدلة من القرآن والحديث، وبيان أن كلام العارفين مستمد من الكتاب والسنة، ولم يكن غيره يقوم بهذا على نحو ما يقوم به شيخنا، وعني كذلك بالرد على المنكرين المخالفين للسنة، حتى كانت حلب مدينة له بإنقاذها من كل فكر شاذ، لم يكن فيها من يقوم بالدفاع عن السنة والجماعة غيره، بمثل ما جاء به من الحجج القاطعة والبراهين الساطعة. وذلك مع حرصه على التآلف، وألا يثير عداوة.

وهذا المنهج التوفيقي هو الذي يجب أن تسير عليه فئات المسلمين لجمع الكلمة ورأب الصدع، وإلا ظلوا في الشتات، وضعف الانقسام، فهل يستجيب لذلك من يود تقريب المسلمين!.

---

(١) قلت: ولا أعلمها تحققت. وأحب التنبيه على تلطف الشيخ الحامد رحمه الله ورقته، فإنّ أصل بيت الشعر: (كلامكُمُ عليَّ إذن حرام) فعدل به إلى ما ذكرنا، وهو لطيف ظريف.

ومن هذا المنهج أنه كان رحمه الله يكره أشد الكره تكفير المسلمين، أو التسرع لرمي مسلم بالضلال والابتداع، وكان يقول لرجال فكرٍ مخالفٍ للسنة: نحن هنا أهل السنة ليس عندنا إشكال ضد أحد، إنما الإشكال عندكم بتكفير من يخالفكم، أو الحكم عليه بالضلال والفسق، فراجعوا أنفسكم أنتم.

قلقه على عمله الصالح:

وكان من دأبه رحمه الله النظر فيما يقوم به من عمل هل هو مرضي عند الله وعند رسول الله، ويظل منشغلاً بذلك حتى تأتيه بشرى أو إشارة، ويوضح لك ذلك ما سطره في ترجمة والده فقال(١):

«وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠](٢) أي هم يعملون ما أمرهم الله تعالى به، مخلصين له سبحانه، يبتغون مرضاته، فهم يُنفقون ويتصدقون، وهكذا يصومون ويصلون، ولكن قلوبهم وجلة خائفة من الله تعالى، ومِنْ موقفهم يوم يُرجعون إليه سبحانه، ويحاسبهم ويسألهم، فهم يخافون أن يكونوا غير صادقين الصدق الوفي الكامل في أعمالهم التي عملوها، أو غير مخلصين فيها الإخلاص الكامل.

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم

---

(١) ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) الآية بتمامها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

الذين يصومون ويتصدقون، ويخافون أن لا يقبل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] ».

ورواه الإمام أحمد ولفظه: أنها قالت: يا رسول الله الذين يُؤْتُونَ ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الذي: يزني ويسرق، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، ويخاف الله عز وجل» انتهى.

ازدياد صلته برسول الله ﷺ:

وهكذا ازداد تَوَثُّقُ الصلة بينه وبين رسول الله ﷺ لفرط محبته له، وسعيه فيما يرضيه، حتى كان في دروسه لا يتحدث عن فضيلة أو خلق كريم أو منْزلة أو نحو ذلك إلا وتعرض للحديث عن رسول الله ﷺ، وبيان سيرته وسبقه الأعظم ﷺ. وكان من ذلك أن حفلت كتبه بهذا اللون وتميزت، كما أنه خصص بعض الكتب لهذا الغرض، مثل كتابه الفريد (سيدنا محمد رسول الله)، وكتاب (الصلاة على النبي ﷺ)، وكتاب (شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وتفسير سورة الحجرات، وتفسير سورة الكوثر.

قراءة المولد:

ومن ذلك أنه كان يقرأ في شهر ربيع الأول قصة المولد، في مجالس دروسه، كما كان والده يفعل، ويقول في ذلك[1]:

«ولم تَفُتْني تلك المجالس التي كان والدي يقرأ فيها قصة المولد أبداً.

---

(١) ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

وأما في شهر ربيع الأول، شهر المولد الشريف، فكان هناك جماعة من أهل التقوى والصلاح جيران جامع بانقوسا، يستأذنون سيدي الوالد رحمه الله تعالى أن يسمح لهم بإقامة حفلة قراءة قصة المولد النبوي الشريف في وقت درسه بعد العصر من يوم الجمعة، اغتناماً لكثرة الناس الذين يحضرون وقت الدرس، فكان والدي يأذن لهم، ويحضر حفل المولد الشريف مع بعض إخوانه، وكنت أحضره معه، وينوي في ذلك مشاركتهم في إقامة حفل المولد الشريف، ونيل الثواب والأجر، ويقصد بذلك تنشيط همم المسلمين، وترغيبهم في إقامة حفلات لقراءة قصة المولد النبوي الشريف، مع توصيتهم بالإصغاء والأدب، والتعظيم لسيد العالمين، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه النبيين، وآله وآلهم أجمعين، وعلينا معهم، عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. آمين.

ولما وكلني سيدي الوالد رحمه الله تعالى بالتدريس عنه، اتبعت طريقته في ذلك، وكنت أنا أقرأ قصة المولد النبوي الشريف في جامع الحموي، وفي جامع بانقوسا، وفي الجامع الأموي الكبير، والحمد لله رب العالمين.

ومن المعلوم أن في ذلك أجراً كبيراً وثواباً عظيماً، وإنارة للقلوب، ومغفرة للذنوب، واستنزال الرحمة والبركة من الله تعالى، فإن المجلس الذي تقرأ فيه قصة المولد النبوي الشريف يشتمل على مجموعة من الخيرات والقربات إلى الله تعالى.

فيه تلاوة القرآن الكريم، وصلوات على النبي ﷺ، وفيه ذكر بعض فضائله ﷺ، وأناشيد فيها مدح وثناء عليه ﷺ، وفيه ابتهالات إلى الله

تعالى بالدعاء، والاستغفار، ونحو ذلك، فهو مجلس جامع لأنواع من الخيرات والطاعات والبركات.

روى الإمام البزار عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لله سيَّارةً من الملائكة يطلبون حِلَق الذِّكْر، فإذا أتوا عليهم حَفّوا بهم، ثم يقفون وأيديهم إلى السماء، إلى رب العزة تبارك وتعالى، فيقولون: ربَّنا أتينا على عباد من عبادك، يعظِّمون آلاءك، ويتلون كتابك، ويُصَلُّون على نبيك محمدٍ ﷺ، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم، فيقول الله تبارك وتعالى: غَشُّوهم رحمتي، فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم». كذا في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري رحمه الله تعالى[١].

وقد حذر النبي ﷺ المسلمين من الجلوس في مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه، ولا يصلون عليه ﷺ:

فقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة[٢]، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم».

قال الحافظ المنذري: رواه أبو داود والترمذي واللفظ له وقال حديث حسن، ورواه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا والبيهقي[٣]. اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله عز وجل فيه، ويُصلّون على النبي ﷺ إلا كان

---

(١) الترغيب والترهيب: ٢/ ٢٦٠.
(٢) التِّره بكسر التاء وتخفيف الراء هي هنا: الذنب والنقص القبيح.
(٣) الترغيب والترهيب: ٢/ ٢٦٢.

عليهم حسرة يوم القيامة، وإن دخلوا الجنة للثواب» أي لأنهم حَرَموا أنفسهم ثواباً عظيماً.

قال الإمام المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه أحمد بإسناد صحيح، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري». اهـ[1].

وقد بين النبي ﷺ أن الصلاة عليه تبلغه فوراً، وأنه يُصَلِّي على من يصلي عليه ﷺ، فور بلوغ الصلاة عليه ﷺ.

روى الطبراني (في الكبير) بإسناد حسن، عن سيدنا الحسن بن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «حيثما كنتم فصَلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تَبلُغنِي» أي فوراً، انظر الترغيب للحافظ المنذري[2].

وروى الطبراني، عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «مَن صَلّى عليَّ، بَلَغتني صلاتُه، وصَلَّيتُ عليه، وكُتِبَ له سوى ذلك عشرُ حسناتٍ»[3]. أي والله يضاعف لمن يشاء.

فالذي يصلي على النبي ﷺ يصلي عليه الله تعالى، ويصلي عليه رسول الله ﷺ، وتصلي عليه ملائكة الله تعالى، وتكتب له عشر حسنات، وتمحى عنه عشر سيئات، وترفع له عشر درجات، إلى ما هنالك من الأجر الكبير، والثواب العظيم، كما بينت ذلك مفصلاً

---

(١) الترغيب والترهيب: ٢/ ٢٦٣.
(٢) الترغيب والترهيب: ٢/ ٣٢٦.
(٣) المعجم الأوسط للطبراني: ٢/ ١٧٨ قال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٢٦): رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به.

مع الأدلة في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ) فارجع إليه تجد ما يسرك». انتهى كلامه.

تكامل مناهجه:

وقد تميزت مناهج الشيخ رحمه الله بالتكامل كما هو ملحوظ في مدرسة التعليم الشرعي، فهي علمية شرعية، وتربية إيمانية عرفانية، ووصلة قلبية بالسيرة والشمائل النبوية، مما لا نجد له مثالاً، وهذا من فَرْط تعلقه رحمه الله بالرسول ﷺ، وتمسكه الشديد باتباعه. وقد خَرَّجَتْ مدرسته أفواجاً من خيرة أهل العلم النابغين والمتميزين بمتانة العلم، وعلو الخلق، واتباع السنة، والجد في خدمة العلم والأمة في المساجد وغيرها لِمَا تزودوا به من العلم والتربية، والتغذية بروح الإيمان ومحبة الله تعالى ورسوله ﷺ، ومحبة الناس والعطف عليهم.

ومن كلامه في هذا في مجالسه: إن المسلم حين يصلي على النبي ﷺ، فإن الصلاة تبلغه ﷺ، وهو يصلي على من صلى عليه، فصار بذلك اتصال ومناجاة بين هذا المصلي ورسول الله ﷺ، فينبغي ملاحظة هذا الموقف في أثناء الصلاة عليه ﷺ.

وقال رضي الله عنه: إن الله تعالى جعل علامة على حب العبد له، وهي اتباع النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. وهي شرط لمحبة الله للعبد، فإذا اتبع رسول الله نال محبة الله له. ومن أحبه الله فقد ضمن نفسه في الدنيا والآخرة لأن محبة الله للعبد دائمة باقية، فهو سبحانه لا يحب عبده في يوم ويمقته في يوم بعده جل وعلا.

وكان رضي الله عنه كثير الصلاة على النبي ﷺ، حتى ربما جعلها كل دعائه، عملاً بما ورد في الحديث«أَجْعَلُ لك صلاتي كلها». بل

ربما جعل مجلسه كله صلاة على النبي ﷺ.

وكان له مجلس الصلاة على النبي ﷺ في المدرسة ليلة الأربعاء من كل أسبوع.

وكان يوصي كثيراً بمحبة المسلم لأهل الإسلام، ويقول: أهم شيء ينقصنا أن نحب بعضنا البعض.

الإرشاد لزهد النووي:

وفي أمسية في ٢٠ من رمضان سنة ١٤١٤ هـ دار الحديث بيني وبين فضيلته في أسئلة مني عما يقترح أن نعطي طلاب كلية الشريعة، وأنا أذكر له ما هو مقرر عليهم. وقلت: مناهجنا كأنها مقررة على طلاب منتهين في التقوى والورع.

فأرشدني إلى كتب الإمام النووي، وخصوصاً رياض الصالحين، ومن قبل كان يُعْنَى ويوصي بها كثيراً لهذا الغرض، غرض تهذيب النفس، وقال: زهد النووي وورعه أقرب لهذا العصر من الغزالي، الغزالي قد ذهب من يسير على خطاه (أي الغزالي) من زمان.

قلت: أين نجد ما ذكرت عن النووي؟

قال: في الأحاديث في مضمون الأبواب، وعناوين الأبواب، وتعليقات النووي على إيجازها.

فانتبه أخي القارىء لهذا، فإنه في غاية الأهمية.

وسألته عن أدعيةٍ وأورادٍ لطلاب العلم فقال لي: الوارد في السنة، وخصوصاً التهليل والاستغفار والصلاة على النبي ﷺ. وأشار إلى حزب الإمام النووي، وكتابه (كتاب شيخنا) أدعية الصباح والمساء لأن كل ما فيه مأثور: مرفوع أو موقوف.

وهذا منه رضي الله عنه عمل بقاعدة العلماء العاملين المرشدين: طالب العلم وِرْدُهُ عِلْمُهُ.

تأمل هذا جيداً، تجد يا طالب العلم حملك عظيماً.

التحذير من ارتفاع العلم:

وقد كرر الشيخ في مجالسه القول: إن بساط العلم قد انطوى. (يعني علم الشرع).

واستشهد أكثر من مرة بحديث متفق عليه في أشراط الساعة فيه قوله ﷺ: «يُرفَع العلم ويظهر الجهل».

وفي أحد المجالس ـ وكرره في غيره ـ ذكَّرنا برواية البخاري ومسلم: «ويثبت الجهل». قال: أي إن العلم لن يعود، وإن الجهل لن يرتفع.

وإنا نذكر هذا، لتأكيد المسؤولية على طالب العلم، لا لينخذل الطالب أو تضعف معنوياته، فإن الأمل باق إلى آخر لحظة، لقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله». وشيخنا وهو يحفظ حديث «يثبت الجهل» من شبابه هو أعظم الناس اجتهاداً في نشر العلم، تأسياً بحديث الطائفة، وقال لي مراراً: لولا هذا الحديث «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» ما عملنا شيئاً.

وما أجمل أن أذكِّر القارىء بهذا الحديث الذي صححه ابن حبان وغيره: «لا يزال الله يَغْرِس في هذا الدين بِغَرْسٍ يستعملهم في طاعته» اللهم اجعلنا منهم.

غيرته على مقام النبي ﷺ:

كذلك كان رحمه الله وثيق الصلة بالنبي ﷺ، اتباعاً لسنته، وغيرة على مقامه الشريف، وكان يغضب بشدة لأدنى مساس بمقام النبي ﷺ، ويستنكر القول: «يُخْطِىءُ ولا يُقَرُّ على الخطأ» بزعمهم، ويناقش ذلك بأدلة وبراهين جلية نيرة، منها بحث قيم فياض في كتابه (سيدنا محمد رسول الله ﷺ).

نلخص منه موقف النبي ﷺ من الأسرى يوم بدرٍ فيما يأتي:

أسر المسلمون يوم بدر سبعين من المشركين منهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ من أشقياء قريش، وأشدها عداء لله ورسوله، فأمر النبي ﷺ بقتلهما، فقتلا. وكان من الأسرى العباس عم النبي ﷺ وأبو العاص بن الربيع خَتْنُ النبي ﷺ: زوجُ ابنته زينبَ رضي الله عنها. وكان فيهم غيرهما ممن كان بمكة ينصح للمسلمين، أُخْرِجوا للقتال كُرهاً، ومنهم من لم يكن لهم خطر على المسلمين.

أما النضر وعقبة فأمر النبي ﷺ بهما فقُتلا، وفَرّق سائر الأُسارى بين أصحابه يحتفظون بهم، وقال: استوصوا بالأُسارى خيراً.

ثم استشار النبي ﷺ الناس في هؤلاء الأسرى فرأى فريق منهم أن يقتلهم، وكان ذلك رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم، ورأى فريق منهم أن يعفوَ عنهم ويقبل الفداء، وكان ذلك رأي أبي بكر رضي الله عنه قال: «يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفداء، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً».

فمال رسول الله ﷺ إلى قول أبي بكر، وأخذ منهم الفداء، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

فذهب بعض العلماء إلى أن النبي ﷺ اجتهد في هذه المسألة وأخطأ، وأن هذا من باب ما ادعوه أن النبي ﷺ وكذا الأنبياء قد يجتهدون ويخطئون، لكن لا يُقَرُّون على خطئهم.

وفسّر هذا بعض المعاصرين الأفاضل بأنه ليس خطأ المعصية، فالأنبياء معصومون عن المعصية قطعاً. ونحن نوافق على ذلك، لكنه قال: «إن المقصود بالخطأ هنا عدم مطابقة اجتهاده ﷺ لما هو الكمال الثابت في علم الله عز وجل، وهو لا يتنافى مع عصمته ﷺ».

ودليل الجميع على هذا ما وجدوه من العتاب في الآيات الكريمة.

لكننا نرى أن ما فعله النبي ﷺ هو الصواب، وهو الكمال، لم يخطىء عن الكمال في هذه القضية، لا من الناحية الشرعية، ولا من الناحية الإدارية ورعاية المصلحة للمسلمين.

ويدل على ذلك أمور نذكر منها:

١ ـ أنه وافق عمله ﷺ هنا ما في الكتاب الذي سبق، والتشريع الذي استقر في الدين، كما ذكرت الآية: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ. . .﴾ فكيف يقال: الخطأ هنا «عدم مطابقة اجتهاده ﷺ لما هو الكمال الثابت في علم الله».

لقد أخبر القرآن أن الثابت في علم الله إباحة الغنائم، ومنها فداء الأسرى، إذن فالكمال هو فيما فعله النبي ﷺ، حسب هذا الكلام الإلهي.

والعجيب فيمن يتكلم في هذه المسألة أنه يعتبر قول عمر في ترك صلاة الجنازة على المنافقين صواباً من عمر، وافق فيه ما نزل بعدُ من

القرآن، ثم لا يعتبر قبول النبي ﷺ الفداء من الأسرى صواباً وافق فيه النبي ﷺ ما نزل من القرآن، وأصبح سنة باقية في التشريع.

٢ ـ أن الآية قالت: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقد أثخن النبي ﷺ في الأرض، فقُتل في بدر رؤساء الكفر وصناديد قريش.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا..﴾ هذا ليس خطاباً للنبي ﷺ ولا لأبي بكر، حاشاهما من ذلك، فما كان للدنيا كلها وقع عند النبي ﷺ، وما كان أبو بكر يقصد الدنيا، وهو الذي خرج من ماله كله عدة مرات في سبيل الله، وقال فيه النبي ﷺ: «إن أمنّ الناس عليّ في صحبتِه وماله أبو بكر..»[١].

إنما العتاب هنا لفئة مالت إلى الفداء وأشارت به، لما استشار النبي ﷺ عامة الناس رغبة في المال، فأراد الله إعطاء المسلمين درساً للأبد، فعاتبهم على ذلك. وكانت غزوة بدر أول معركة كبيرة شهدها المسلمون، وكانت نصراً عظيماً مؤزراً، لذلك عُنِي الحق عز وجل بالدروس يلقنها هذه الأمة، كما هو واضح في سورة الأنفال وغيرها مثل سورة آل عمران.

٤ ـ كذلك الشأن في بعض روايات الحديث عن عمر أنه قال: «فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت، وأخذ منهم الفِداء». فلما كان من الغد ـ قال عمر ـ: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان! فقلت: ما يُبكيك أنت وصاحبَك فإن وجدتُ بكاءً بَكَيْتُ، وإنْ لم أجدْ بُكاءً تباكَيْتُ لبُكائِكُما!.

فقال النبي ﷺ: «أبكي للذي عَرَض عليَّ أصحابك من أخذهم

---

(١) رواه البخاري.

الفداء، لقد عُرِض عَلَيَّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة»، لشجرة قريبة من النبي ﷺ»[(١)].

فهذا البكاء هنا والخوف إنما هو من أجل هذه الفئة، بدليل قوله في الحديث: «أبكي للذي عرض عَلَيَّ أصحابُك. . .»، فهذا واضح أن العتاب ليس للنبي ﷺ ولا لأبي بكر، لكن لهذه الفئة فبكى النبي ﷺ وأبو بكر رحمة وإشفاقاً عليهم، وهو ﷺ: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وأبو بكر كما ورد: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر».

٥ ـ أنه سبق أخذ الفداء من الأسرى في سرية عبد الله بن جحش، كما ثبت بالأسانيد الصحاح والحسان، فكيف يكون هذا خطأ هنا صواباً هناك!.

٦ـ نقول من الناحية الأصولية: أن قولهم في النبي «قد يخطىء في الاجتهاد لكن لا يُقَرُّ على خطئه»، هذا لو سُلِّم فإنه غير منطبق هنا إطلاقاً، لأنه لو كان القرار خطأ للزم تصحيحه بمجرد اتخاذه في المجلس والوقت الذي اتُّخِذَ فيه، وقبل تنفيذه. أما أن يأتي التصحيح بعد ذلك فهذا غريب، على أن القرآن الكريم لم ينكر عليهم أخذ الفداء لذاته، بل أقره، إنما أنكر التفكير المادي في إبداء الرأي، وفي ترجيحِ شيء على شيء.

٧ ـ نقول أيضاً لمن يبحث عن الكمال في أمر الأسرى يوم بدر:

هؤلاء الأسرى يتألفون من فئات متعددة:

فئة خطيرة أجرمت في حق النبي ﷺ والإسلام.

فئة لا خطر منها وإن كانت معادية.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد.

فئة مسالمة للمسلمين أخرجت كرهاً.

فئة منحازة للمسلمين، تخفي ذلك، أخرجوا كرهاً أيضاً، منهم العباس عم النبي ﷺ وأبو العاص صهره، وجماعة، وقد نهى النبي ﷺ عند اشتباك المعركة عن قتل العباس أو أحدٍ من بني هاشم، لذلك السبب.

وعلى هذا فليس من الممكن في العدل ولا في رعاية المصلحة للإسلام تعميم حكم القتل على كل الأسرى، وقد قتل النبي ﷺ من الأسرى من كان من الفئة الأولى، كما ذكرنا، لأنهم من نوع من يسمى في عرفنا «مجرم حرب» فما معنى قتل الباقين!!، كما أنه لا يمكن قتل المعادين للنبي ﷺ غير الخطرين، وترك الآخرين الموالين لأنه يكشفهم، ويفقد الإسلام الانتفاع بولائهم للمسلمين، كما أن في ذلك شدة لا تناسب سماحة الإسلام.

وإلا فنحن نقول لمن يظن الكمال في قتل جميع الأسرى:

قد ورد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: (أي يوم المعركة) «إني قد عرفتُ أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يَقْتُلْه، ومَنْ لقي العباسَ بن عبد المطلب فلا يَقْتُلْه، فإنه إنما أُخرِجَ مستكْرَهاً».

فقال أبو حُذَيفة: أنقتُل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيتُه لأُلْحِمَنّه السيف!.

فبلَغَتْ رسولَ الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب:

«يا أبا حفص، أيضربُ وجه عَمِّ رسول الله ﷺ بالسيف!».

هذا ومن المعلوم عند أهل السِّيَر أن العباس وبني هاشم وطائفة في

مكة كانوا عيبة نُصح، أي يعملون بالنُّصح سراً لرسول الله ﷺ.

فليفكر العاقل والباحث عن الكمال، هل كان الكمال إلا فيما فعله رسول الله ﷺ.

انتهى تلخيصنا كلام شيخنا مع إضافة الفقرة السابعة الأخيرة إليه، وكنت عرضت ذلك عليه منذ زمان، وأعجبه رحمه الله وتعالى وأجزل مثوبته.

لون من اتباعه للسنة:

وكان من اتباع الشيخ للسنة وما يحبه النبي ﷺ أنه يلبس جبة من اللون الأخضر أكثر شيء، ويضع فوق عمامته (شالة)، وقد تحدث عن ذلك فقال: إن الطيلسان وهو ما نسميه اليوم (شالة أو لفاحة)، كان يضعه الزهاد إذا مشوا في الطريق لئلا يلتفت أحدهم وينشغل بما يراه، وكانوا يسمونها الخلوة الصغرى، ثم صار كثير من المشايخ في الوقت المتأخر يضعونها لأجل المظهر والفخامة، قال: وكنت لا أضعها في بادىء أمري، ثم رأيت في منامي رسول الله ﷺ لابساً جبة خضراء، وعليه الطيلسان، وأشار إليَّ أن ألبس هكذا، فامتثلت أمره ﷺ.

بشريات صادقة:

وقد جاءته بشريات كثيرة جداً تبشره بمحبة النبي ﷺ إياه وتقريبه له.

منها أنه رأى أنه موكَّل ببيت المُؤْنة للنبي ﷺ، وسُرَّ لذلك كثيراً.

ومنها أنه رأى ذات مرة حضرة النبي ﷺ ومعه سيدنا علي كرم الله وجهه وقد حضرا عليه، وأن النبي ﷺ يقول لسيدنا علي رضي الله عنه: ألبسه العباءة.

وفي رؤيا أخرى رأى النبي ﷺ يلبسه العباءة بنفسه الشريفة المنيفة ﷺ.

وفي رؤيا أخرى رأى قصراً جميلاً داخل حديقة وحولها سور، وأن حضرة النبي الكريم ﷺ في القصر، فيريد الدخول فلا يرى في السور منفَذاً، وإذا بسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فيطلب منه الشيخ أن يدخله، فيسأله: لماذا؟ فيجيب لكي نرى حضرة النبي ﷺ في الداخل. فيُدخله الصديق، فإذا وصلوا إلى القصر (أو البيت) طلب منه الشيخ أن يستأذن على رسول الله ﷺ بالدخول، فيسمع صوته الشريف مِن الداخلِ يقول: ادخلوا، ادخلوا، فيدخل الشيخ فإذا بأنوار ساطعة باهرة، تملأ المكان كله، فلا يستطيع لشدتها رؤية النبي ﷺ، فيخرُّ عند قدميه الشريفتين يقبلهما. انتهى المنام الشريف.

وعن هذا قال رضي الله عنه: أنا علوي، أي نسبة إلى سيدنا علي، صدّيقي نسبة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ومن لا يصدق سأريه، وذكر هذه الرؤى، وله رؤى كثيرة للنبي ﷺ في المنام واليقظة يطول سردها.

وأعظم ما أستحضره الآن رؤياه أن النبي ﷺ قادم من سفر، وكأنه سفر حرب، ويريد أن يغتسل من الغبار، فقام شيخنا هو وربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه خادم النبي ﷺ المتخصص بأمر الوضوء والماء ونحوه، قاما بملء وعاءٍ كبير، وسخّنا الماء، وجاء النبي ﷺ واختبر الماء، فأعجبه، وقال ﷺ لشيخنا: أنت خادم ملازم. قال لي رحمه الله: الحمد لله، رضيني رسول الله ﷺ خادماً عنده.

ورعه في جو المنافسات:

وكان رحمه الله عظيم الورع يحتاط من أدنى شبهة، ولا يرضى أن

يُطْعَن عنده أحد، بل إنه في بعض المرات، خرج من غرفة الضيوف في منْزله وترك الضيف وهو من الوجهاء، لأنه تناول بعض المشايخ بالطعن، وكان المطعون فيه من منافسي شيخنا، وقد حرص كل الحرص على تجنب أي دخول في المنافسات التي دبت بين المشايخ في حلب، بل بذل جهوداً قوية للإصلاح، وأقام لها الولائم في بيته من نفقته، فكان محبباً لقلوبهم جميعاً، وكانوا يثنون عليه عاطر الثناء، ويشهدون له بالعلم والمعرفة والتقوى.

وكان سبب المنافسات الحرص على جمع الناس في الحلقة، وجر ذلك لادعاء دعاوى، وتصريح بأمور فيها مبالغات وغلو، تُزْعَم طريقاً، أو إلهاماً، وكان هو يصحح ذلك بأسلوب لطيف وبعضهم لا يرضى ذلك، ويتنقص من لا يوافقه، ويزعمه لا يوصل مريديه، أو غير ذلك من مزاعم. . . !.

وضع القبول له:

وبهذا المنهج الجامع بين العلم والعمل، والإسلام والإيمان، والورع والتقوى، وُضِع له القبول في الأرض وصار محبباً للجميع، ومرجعاً لهم، وقد تمنى كثيرون لو جالسوه مجالسة خاصة، ووقته لا يتسع لكن لَبّى رغبة نخبة من الأطباء وعقد لهم درساً منظماً شهرياً وأفاض عليهم من علمه وروحه، وفتح حواراً واسعاً معهم فدهشوا، وانتفعوا علماً، وعملاً، وروحاً وتزكية، حتى لحظَتْ نساؤهم وأهلوهم أثر ذلك في سلوكهم وأخلاقهم.

وكان بعض محبيه يخشى ألا يلقى منهجه الديني الروحي قبولاً كاملاً لدى هذه الفئة التي ألف كثير منها الكلام الاجتماعي أو الفكري في الإسلام، لكن الواقع أثبت عكس ذلك تماماً.

لزوم الاحتياط في القراءات الإسلامية:

وأبين هنا للقراء أن تلك الأساليب يكثر فيها التصور الشخصي الذي لا يطابق الشرع، لذلك يجب التحفظ من تلقيها وأن لا تُؤخذ إلا من عالم متمكن، ثم هي في الواقع مقدمة للإقناع، وإزالة شبهات الدس التي تثار، لكن يظل جانب تزكية النفس وتنمية الإيمان ومشاعره بحاجة إلى رِيٍّ، وذلك ما تحققه دروس الشيخ وكتبه(١).

وكان الشيخ رحمه الله تعالى يعامل الجميع بالمودة والرحمة، فهو للجميع، وكان يحرص على الاعتدال بالفكر والسلوك، ويحذر الغلو، ولما ظهرت بوادر من ذلك كان يحذر منها، كان ينبه من يُحِسُّ فيه نزعة لذلك ويحذره، وقد يشدد عليه كما رأيناه وسمعناه مع بعض الأشخاص يقول له بشدة: هذا غلط، هذا خطر، هذا ضرر.. هذا....

التحذير من الغلو:

وكان مَن يوجّه هذا التشدد ينتقصون العلماء الأجلاء ومنهم الشيخ، حتى جاوزوا الحدود، فجمَعَتْ بواحد منهم ـ لعله كبيرهم ـ على كره منه جمعته مناسبة مع شيخنا، فقال له شيخنا: يا أستاذ، نحن الآن نتمتع بالأمان، والناس مقبلون على الدين: دعوا العمل يسير بهذا الهدوء والأمان، فلم يجبه ذاك الرجل بكلمة واحدة، لكن لم يُغيِّر من أسلوبه وسلوكه شيئاً قط!!.

قلت: وكانت في الواقع فترة ذهبية نسأل الله أن يعوض بخير منها، لا يفعل ذلك غيره سبحانه.

---

(١) ومن ذلك صنفت كتابي (فكر المسلم وتحديات الألف الثالثة) حاولت فيه الجمع بين الجانب الثقافي والعلمي في معرفة الإسلام.

ومقابل ذلك كان شيخنا يسعى للنهوض بالمسلمين من وهدتهم بنشر العلم، ويحذر من التدين بغير علم، فهو سبيل الخرافة، وقد زاره ضيوف من بعض المحافظات، وقال له أستاذ منهم: ما في يدنا شيء يا أستاذ!؟ فقال له شيخنا بقوة: في يدنا شيء كثير، لكن لا تريدون التغيير !!.

* * *

الهجرة إلى المدينة المنورة

لكن على الرغم من ذلك فإنه لما دب دبيب الأحداث سنة ١٤٠٠هـ لم يسرع بالخروج من البلاد، بل تأنى وبالغ في التحفظ والعزلة، لكنه وجد الخطر محققاً، موجباً للخروج، فاستعد لذلك وسافر فجراً، ثم غادر بالطائرة إلى المدينة المنورة في ربيع الأول ١٤٠٠ هـ مطلع شباط (فبراير) ١٩٨٠

وكانت والدته في بيته، فلم يملك نفسه أن يرجع من السيارة ثلاث مرات يوصي بها، قبل أن يتوجه إلى دمشق، قاصداً المدينة المنورة.

وقد نزل في المدينة في فندق الزهراء ينتظر استتباب الأمن بين يوم وآخر ليرجع إلى البلاد حتى طالت المدة كثيراً، فعزم على الإقامة بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام بناء على رؤيا نبوية شريفة، وانتقل إلى بيت استأجره على طريق قباء.

وذلك أنه رضي الله عنه رأى النبي ﷺ جالساً، ثم اضطجع واضطجع الشيخ أيضاً، فأوَّل ذلك أنه أُمِر بالإقامة في المدينة المنورة، وكان الناس المحبون يرغبونه بالعودة كثيراً، فيقول: **أنا أقمت هنا بإذن، ولا أخرج إلا بإذن.**

ثم تبعه بعض أولاده وأقاموا معه في البيت على طريق قباء، وافتتحوا محلاً تجارياً لبيع الأدوات المنزلية.

وقد كانت إقامته في المدينة عجباً من العجب، لما حفته فيها من

الاكرامات والعنايات، وأعظم ذلك قضية الإقامة، ومن نظام السعودية عدم منح إقامة للداخل بتأشيرة عمرة، وضاق الأمر على كثيرين، واعتزل الشيخ في البيت لخوف الحرج، ثم جاء الفرج بكرامة عجيبة، شهدتها بنفسي ولله الحمد.

قصة النفحة المحمدية:

وذلك أنه في شهر ربيع الأول ١٤٠٠هـ وأنا عنده في البيت جاء شخص يقول: الوزير أحمد زكي يماني وزير البترول السعودي قادم لزيارة الشيخ، وكان أثاث البيت بسيطاً، فقمنا بترتيبه حسب ما أمكن، وإذا بالوزير يحضر ومعه وزير من السودان وبعض الشخصيات، وعالم فاضل من حلب محب للشيخ، وهو الشيخ عمر ملاحفجي الشهير بأبي قبقابة من إخواننا في الكلتاوية، وهو من أهل الصلاح والصفاء. فَقَدَّم الوزير ومَن معه لفضيلة شيخنا، وأجرى التعارف في لباقة عالية، ثم حكى القضية فقال:

كنا في مجلس احتفال وصلاة على النبي ﷺ مع معالي الوزير فقص عليَّ رؤيا أنه رأى فيها أنه جاءته من شخص نفحة من النبي ﷺ، فقلت له: هنا يوجد من عنده هذا، وهو شيخنا الشيخ عبد الله سراج الدين، فرغب معاليه بلقياكم فوراً، فجئنا إليكم.

فرحب شيخنا بالضيف ومن معه، وتحدث عن فضائل النبي ﷺ، والاحتفال بمولده، وقال: أنا كتبت في شمائله وخصاله ﷺ كتاباً هو كتاب (سيدنا محمد رسول الله ﷺ شمائله الحميدة خصاله المجيدة)، ووصف الكتاب، وقرأ منه بعض أشياء، منها فيما أذكر ما يتعلق بالمولد، وقال الشيخ للوزير يماني: هذه نفحة محمدية. وقدّم الكتاب هدية للشيخ اليماني ممهورة بخطه الكريم بالإهداء لضيفه

العزيز، فشكر الضيف شيخنا لهديته وسر بالكتاب سروراً عظيماً، ثم استأذنا للانصراف.

فقمنا نودعه وقام شيخنا وودعه عند باب الدار ولم يطلب منه شيئاً، مع شدة حاجته الضرورية للإقامة، ومشينا نحن مع الضيف، ووقفنا قرب العمارة نحدثه ونشكره فعرَّفتُه بنفسي، ثم عرفته بمقام الشيخ وفضله على البلاد في علم الحديث خاصة وعلوم الدين عامة، وأننا مدينون له في علم الحديث، بل كل دارس حديث مدين له لكتابه الفريد (شرح المنظومة البيقونية) وما يقدمه في دروسه من معارف القرآن والحديث.

وقد سأل الوزير من نفسه هل للشيخ حاجة؟ فقيل له: نعم يحتاج للإقامة. فسأل: من معه؟ فأخبر، فقال: هذا سهل، أحضروا إلى مكتبي الفلاني الجوازات لنعمل عليها الإقامة، وهكذا حصل شيخنا على الإقامة ممهورة على جواز سفره هو وأفراد أسرته، دوِّن عليها (إقامة للتعبد) وقد تحدث شيخنا بهذا قال: أخذنا إقامة للتعبد ليس لنا شيء آخر.

وقد عتب شيخنا في نفسه بشدة فيما أفضى إلي وأنا في زيارته هناك على رجالات كبار سوريين، منهم حلبيون علموا بقدومه إلى المدينة ولم يسألوا عما يحتاج إليه بل لم يتصلوا للسلام عليه، وكانوا في أيام سبقت يتقربون إليه ويتوددون. . .

وكأن ذلك ـ فيما أرى ـ لأنهم يعلمون أنه لا أرب لهم عنده، لخطته المعروفة باعتزال السياسة، وأبى هو رحمه الله أن يرسل إلى أي واحد منهم كلمة واحدة، مع شدة حاجته.

تأثر صحته بالقلق:

وفي الأشهر القلائل الأولى من هجرته إلى المدينة عانى ضغطاً عظيماً في نفسه بسبب انشغاله بأمور البلاد والغم العظيم الذي لحقه، وقد رآه في تلك الفترة زميله أيام المدرسة وصديقه صديقنا الفاضل فوزي فيض الله حفظه الله رآه في الرؤيا مطرقاً مفكراً واضعاً ذقنه على كفه، قال لي: مثل صورة أمير الشعراء أحمد شوقي تماماً. قلت له يومها: نعم هكذا حال الشيخ.

وبسبب ذلك صار يحس بشيء يتحرك في أمعائه ويتدلى، وإذا هو فتق في البريطون قد أصيب به في موضعين اثنين، ومن ثم صار يضايقه والشيخ يصبر ويتحمله.

هجرة البلد وهجرة القلب:

واشتغل الشيخ مدة مكثه في المدينة بفضائل الأعمال، من العبادات والأذكار وغيرها، ولا سيما الصلاة والسلام على من هو في جواره ﷺ وكان مجتمع السوريين في السعودية وفي المدينة يعج باللغط، فاعتزل الناس، ولزم العبادة بأنواعها، فجمع بذلك بين الهجرتين، هجرة البلد، وهجرة القلب والعمل التي ثبت فيها الحديث: «العبادة في الهَرْجِ كهجرةٍ إليّ» رواه مسلم.

فقلت له مرة: ألا تذهب للعمرة فقال: نحن هنا نؤدي العمرة، يقصد الحديث: «صلاة في مسجد قباء تعدل عمرة».

ومن هنا نؤدي الحج والعمرة، يقصد ما ورد في بعض الأعمال أنه يعدل «حجة وعمرة تامتين».

وفاة والدته وكيف عرفها:

وقد قوي كشفه وإلهامه هناك، ومن ذلك أنه في يوم ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٤٦٠ = ١٩٨٠/٤/٢٧ توفيت والدته عقب مرض شديد بعد سفره بنحو ثلاثة أشهر، وخاف أهله أن يخبروه لأجل صحته، فجاءته في الرؤيا وأخبرته، فأصبح تدمع عيناه، وأخبرهم هو بالأمر، فاعتذروا إليه بالخوف عليه.

وكان في الرؤيا بشارة جميلة، رآها تقول له: لماذا يا ابني يخاف الناس من الموت؟ الموت لا يخيف يا ابني، أنا أُعطيت بيتاً جميلاً، ومفتاحاً أفتح البيت، أخرج إذا شئت، وأعود إليه وأقفله إذا شئت.

اللهم أفض رحمتك عليهما وعلينا يا رب العالمين.

قصة نشر كتاب الشمائل:

وعزم أن ينشر في السعودية كتابه العظيم: (سيدنا محمد ﷺ) فأرسل به إلى الإعلام في المدينة المنورة، ومع تخويلهم الصلاحية بالنظر فيه والفسح له أحاله بعض الموظفين إلى الرياض، تحسباً لما فيه من فضائل النبي ﷺ، وبحث المولد، وتأخر الكتاب، وطالت المدة، ثم إذا بالشيخ يرى رؤيا عجيبة: يرى أنه أمام الكعبة المعظمة وأنه يُعْلَنُ عليها عن شهادة المقبول شهادتهم، فنشر أولاً اسم آخر، ثم نشر اسم عبد الله سراج الدين مقبولة شهادته. فاستيقظ فَرِحاً، مستبشراً أن الكتاب قد فُسِحَ، لكن الفسح تأخر عن ذلك، ثم وصل.

وقد أخبر الشيخ عن أمر غريب آخر حدثني به وحدث بالقضية كلها في مجالس كثيرة شكراً لله تعالى، وذلك أن الفسح جاء يوم

الرؤيا لكن بعض الموظفين أعاده إلى الإعلام بالرياض ليراجعوه، لأن فيه بحثاً عن المولد فاغتاظت الدائرة بالرياض، وكتبت لهم «إذا نحن وافقنا على شيء فنفذوا ولا تراجعوا».

وكان رحمه الله كثير الحمد لله أن كتابه مقبول بفضل الله.

العكوف على العلم والعبادة:

وعكف في المدينة المنورة على العلم تعليماً وتأليفاً، وعلى التعبد بأنواع العبادات والقربات.

ففي التعليم عقد مجلساً للحديث النبوي الشريف في بيته يقرأ فيه صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه فحضره أفاضل أهل العلم، ومن أساتذة الجامعة، وطلاب الدراسات العليا، سوريين وسعوديين وغير ذلك، وطربوا لما سمعوا من روائع الفوائد في شرح الأحاديث.

وفي التأليف بوركَ له في وقته، فألف عدداً من الكتب، وسَّع كتابه القيم: تلاوة القرآن المجيد. وألف: صعود الأقوال ورفع الأعمال، فرغ منه في شهر ربيع الثاني ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، وكتاب: الدعاء، فرغ منه في رجب ١٤٠٤هـ، وكتاب: شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وجاءته بشريات على مؤلفاته مما سنذكر بعضه لمناسبة الحديث عن كتبه إن شاء الله تعالى.

بشارة عظمى:

ومن أعظم بشارة ـ ولعلها أعظمها ـ رؤياه أنه دخل المسجد النبوي الشريف من باب السلام فوجد غرفة كبيرة جلس في صدرها شيخ جليل على كرسي، والشيخ هو القطب، فاستقبل شيخنا وأجلسه على

الكرسي مكانه، وقال له: اجلس هنا، أنا ذاهب. فصار لغط من أناس خارج المكان، ثم دخل رجل الغرفة، وقال للشيخ: هذا محل القطب ما أجلسك هنا؟ أو ماذا تعمل أنت هنا؟ فقال له شيخنا: القطب أجلسني هنا، أنت انظر شغلتك. أو قال له: ما هي شغلتك.

فدل ذلك على أنه قُطِّبَ بفضل الله تعالى، وله سبحانه الحمد.

وأذكر أنه في تلك الفترة طُبع كتاب بعنوان (القطب) لبعض أكابر الصوفية، وأُهدي إلي، فقرأ فيه ابني الشهيد محمد مجاهد رحمه الله، فرأى جَدَّه شيخَنا في الرؤيا هو القطب. ثم تكررت الرؤيا في الليلة الثانية، فقلت له: هذا حتى لا تظن أن الأولى من حديث النفس، فالزم جدك، وكان نعم الملازم لجده الشيخ كلما كان في حلب، وكثيراً ما يبيت في داره، خصوصاً في حالات توعك صحته رحمهما الله وإيانا.

ويؤيّد ذلك وصف علماء المدينة المنورة للشيخ في اجتماع العَزَاء بأنه «الإمام في العلوم الإسلامية، وكبير أولياء الأمة لهذه الفترة الزمنية». وهذا هو معنى القطب، أنه مرجع عصره في علوم الإسلام وحجة على المخالفين وأهل البدع والضلال المعاندين، كما أنه قدوة زمانه في الورع والتقوى، يؤخذ عنه ذلك ويقتدى به، وليست القضية دعاوى ومزاعم، بل بمقياس الشرع، لا نقبل أي معنى مخالف للشرع.

الإشراف على فتح مدرسة في المدينة:

ومما قام به في المدينة المنورة الإشراف على فتح مدرسة لتحفيظ القرآن، وخدمة العلوم الشرعية، أقيمت في قباء: وذلك أنه سمع بالشيخ بعض الصالحين الموسرين فسعى للقياه فدخل في قلبه حب عظيم للشيخ، وعرض عليه أمر المدرسة، فرغبه الشيخ بها كثيراً، فقال: لا أفتحها إلا بإشرافك، فقبل الشيخ، وتم البناء بإشرافه، وقد

زرته مع فضيلته في قباء قبل افتتاح التدريس فيه، وهو مرتب ترتيباً جميلاً، وهذا مع متابعته رحمه الله تعالى قضايا المدرسة والجمعية في حلب، بالهاتف، وعن طريق أبنائه الكرام، والأساتذة القادمين للعمرة أو الحج، حتى سارت المدرسة مدة إقامته في المدينة بانتظام ولله الحمد والشكر.

* * *

العودة إلى البلاد

ثم إنه لما قضت حكمة الله تعالى ورحمته بالبلاد أن يعود الشيخ إلى بلده، رأى رحمه الله تعالى النبي ﷺ يقول له: أذّن. قال: فأولتها أن أرجع إلى التدريس.

قلت: ووجْهُ ذلك أن الأذان في الأصل هو الإعلام، والتدريس أذان لأنه إعلام.

قال رحمه الله: «لم أتوقف أبداً في ترتيب السفر منذ جاءني الإذن بالعودة». مع أنه رحمه الله كُلِّمَ مراراً بالعودة، وأعطي ضمانات، وأنه يجري له استقبال كبير، وينزل في أحسن فندق، فكان جوابه: أنا أقمت بإذن، ولا أخرج إلا بإذن، وعندي في دمشق بيت هو بيت صهري أنزل فيه.

وعوضاً عن الشهرة وضخامة الاستقبال التي يحرص الناس عليها عمل على تقليص هذا الأمر، وأن لا يعلم به إلا نفر قليل من الأقرباء والأصدقاء، حضر الاستقبال في المطار نحو ١٥ شخصاً من حلب ودمشق جلسوا عندنا مع شيخنا في البيت فترة يسيرة لطعام الغداء، ثم فاجأ الشيخ الجميع بالعزم على السفر من يومه، فكان مجموع السيارات التي أقلّت الجميع ثلاث سيارات صغيرة فقط، ووصلوا قرب نصف

الليل، وكان عند البيت نفر قليل جداً أيضاً من الأقرباء والأصدقاء الخصوصيين.

وكانت العودة المباركة في مطلع الصيف في شعبان عام ١٤٠٣ = مطلع حزيران (يونيه) ١٩٨٣م، ولله الحمد.

اكتمال الحياة الطبيعية:

وما لبث الناس أن عرفوا عودته فَهُرِعُوا للسلام عليه، فمكث يستقبل في بيته الجديد في حي الفرقان وكان قد اشتراه من قبل فأكمل أبناؤه إعداده للسكن. فاستقبل فيه أياماً عديدة، ثم نزل يستقبل في المدرسة، ويتفقد أحوالها وأحوال الجمعية وغيرها بنفسه كما هي عادته من قبل، واكتست حلب ثوب فرح وسرور، وأحسّ الجميع أن الحياة الطبيعية استكملت جوانبها بعودة شيخها إليها.

وكان حديثه رضي الله عنه إلى زواره يدور على فضائل النبي ﷺ، وعلو مقامه، وخصائصه ﷺ، وفضائل الإيمان والإسلام، والأمة المحمدية، وكرامتها على رب البرية، فأطرب الزائرين جميعهم، ومنهم مِنْ علية الناس، حتى إن بعضهم خرج وهو يقول بصوت مسموع: كلام الشيخ يُعَبِي الراس!.

وههنا قضية مهمة، هي أن بعض الأصحاب المواظبين والملازمين للشيخ ظهر منهم تقصير عظيم أيام الشدة، فما كان منه رحمه الله إلا أن قابل ذلك بالصفح، مكتفياً بأن عرّض بما حصل، لكن لم يثرّب على أحد منهم بشخصه، وكان ذلك منه غاية الحلم والكرم رحمه الله تعالى.

أول درس بعد العودة:

ثم عاد إلى التدريس كما أُمِرَ رحمه الله، واقتصر على دَرْسَي الاثنين ظهراً في الجامع الأموي الكبير، والجمعة عصراً في جامع

بانقوسا، وذلك بعد غياب طويل استمر نحو أربع سنين تقريباً وذلك مع دروس التفسير والحديث والمصطلح في مدرسة التعليم الشرعي (الشعبانية).

وكان أول درس ألقاه في يوم الاثنين في الجامع الأموي الكبير، وكان موضوعه افتتاحاً رائعاً، هو تفسيره لقوله تعالى في فضل نبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ودهش الحاضرون لعظمة النبي ﷺ وسعة علم الشيخ، منهم بعض أساتذة الجامعة، فقد شغل ساعة كاملة في شرح قوله: ﴿ شَٰهِدًا ﴾!.

وهُرِعَ الناس لمجالسه، وغُصّ المسجدان بالحضور، وجاء المستمعون من بلاد بعيدة، حتى كان بعضهم يحضر من دمشق نفسها، ولا تزال تربطنا به أخوة حفظه الله تعالى.

واقتصر رحمه الله على هذه الجهات الثلاثة من غير إخلال، وأضاف إليها درساً خاصاً أسبوعياً عقده لنخبة من طلاب العلم في التفسير، يقرأ فيه من تفسير (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمام أبي البركات النسفي، ويحل عبارات النسفي وغوامضها، وينبه على تفسيرات الزمخشري التي تابعه عليها النسفي أو غيره، وغيرها أولى منها، وكان يفيض في الشرح من أنواع العلوم في تفسير كل آية. ويذكر ما يتعلق بها من آيات وأحاديث، ويستنبط دقائق الخوافي والغوامض، ويذكر أقوال المفسرين، ثم يُعقِّب عليها بالترجيح والتحقيق للمسألة، بما يدهش الحضور.

ومما سمعته منه قديماً في مجلس خاص، تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦] فسّرها الزمخشري: غير ممنون عليهم به، وتبعه بعض المفسرين من أهل السنة.

قال: هذا يتمشى مع قول المعتزلة بالوجوب على الله تعالى، والأولى غير ممنون: غير مقطوع، تقول العرب مَنَنْتُ الحبلَ إذا قَطعْتَه. فاستشهد رحمه الله باللغة، ولم يَخْفَ عليه مَزْلَق القَدم.

وتخفف رحمه الله تعالى من الأنشطة الاجتماعية، وعكف على التأليف. وصار يتردد على الحرمين الشريفين كل عدة شهور، يجدد عهده بهما.

فتح باب الإجازة:

وقد أصبح رحمه الله موئلاً دينياً علمياً للأمة فتوجه إليه أهل العلم يطلبون إجازته، وكان يمتنع عن ذلك، ثم تسمّح وصار يجيز مَن فيه أهلية، وفي ذلك يقول[1]:

«فبعد أن عدت إلى حلب، وعدت إلى دروسي في المدرسة الشعبانية خاصة درس تفسير القرآن الكريم، والحديث الشريف ومصطلحه، فبعد مضي مدة على ذلك رأيت في المنام أني في غرفة التدريس التي أقرأ فيها تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ومصطلحه، فبينما أنا جالس فيها إذا بسيدي الوالد الكريم ومعه فضيلة المحدث الكبير، والعلامة الشهير، الشيخ السيد بدر الدين الحسني رحمهما الله تعالى، ونفعنا بهما، رأيتهما قد دخلا المدرسة، وأقبلا نحو غرفة التدريس التي أنا جالس فيها، فقمت مسرعاً واستقبلتهما، فدخلا الغرفة فإذا بالغرفة هي واسعة كبيرة فيها الأَسِرَّةُ والكراسي غير ما هي في اليقظة، فجلسا في الغرفة وأقبلا إليَّ وسلّما عليّ وقبلت أيديهما، ورحبت بهما، ثم قالا لي: أنت لِمَ لَمْ تفتح باب الإجازات في الحديث النبوي الشريف؟ فسكتُّ.

---

(١) ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

فقالا لي: افتح باب الإجازات في الحديث النبوي الشريف وسوف يقصدك كثيرون والآن يأتيك رجلان لأجل أن تجيزهما ونحن جلوس.

وإذا برجلين من أهل العلم لم أعرفهما في اليقظة، فقال لي سيدي الوالد الكريم، والمحدث العلامة الشيخ بدر الدين: أَجِزْهُما، فأَجَزْتُهما على مَسْمَعٍ منهما ومشهدهما رحمهما الله تعالى، فَسُرّا لذلك وفرحا، والحمد لله رب العالمين، ودعوَا الله تعالى لي، وأطالا الجلوس في غرفة التدريس. والحمد لله.

فاستبشرت وسررت وأيقنت أن سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى، وأن المحدث الكبير فضيلة الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله تعالى، وأمثالهما من العلماء والأولياء هم لا يتركوننا بل لا تزال عنايتهم ودعواتهم وبركاتهم، محيطة ومتصلة لا تنقطع. والحمد لله رب العالمين.

أولئك أشياخي فجئني بمثلهم   إذا جَمَعَتْنا يا أُخَيَّ المَجَامِعُ»

انتهى كلامه.

لكن شيخنا رحمه الله لم يتسع في الإجازة، بل قصرها على أهل العلم وطلبته، فأجاز جماعة من الفضلاء قصدوه من البلاد الإسلامية والعربية والسورية، وأجاز مجموعات من خريجي مدرسته الشعبانية، ظل لعدة سنين يقيم للدفعة المتخرجة استقبالاً، يوجههم فيه للإخلاص، والحرص على القيام بمهمات طالب العلم، ويكرمهم بالإجازة في الحديث النبوي بأسانيده العالية المتصلة برسول الله ﷺ.

وبهذا يحسّ الطالب بقوة الصلة مع النبي ﷺ، وذلك يزيده قوة روح وصدق اتباع للنبي ﷺ، اللهم حققنا باتباعه على أكمل الوجوه آمين.

العُزلة ومنهجه فيها:

قليل جداً يعرفون أن فضيلة شيخنا رحمه الله كان ينهج منهج العزلة، قبل اعتزاله الكامل في بيته، بل أيام نشاطه السابقة، في الواقع أنه كان يأخذ بالعزلة، ولا يخالط الناس إلا بمقدار ما يؤدي عمله لخدمة العلم والدين، حتى عند قدومه إلى جامع الحموي من بيته القريب جداً من المسجد (مشي ثلاث دقائق) وعودته إلى بيته يركب السيارة، فسألته يوماً فقال: هذا من العُزْلَة، فلما ظهر المَرْجُ في أمر الناس زاد العزلة عنهم، ثم زادها أكثر بعد عودته من المدينة.

ثم صار تعرض له عوارض صحية تعوقه عن الدروس، وهو يجتهد في مقاومتها، ثم اعتزل الدروس كلها، واعتزل كل عمل، وفوض أمر الجمعية والمدرسة لابنه الدكتور محمد نجيب، يساعده فيها إخوته، ويشرف شيخنا على كل ما يجري من بيته، ويتصل هو بنفسه بالقائمين بالعمل كذلك، ويحضرون إليه ليدارسهم الأمور، وعوّض الناس عن دروسه بما قدم من المؤلفات المهمة القيمة التي كانت تصدر، ويتلقفها الناس بغاية الشوق واللَّهْفَة.

كذلك كان يُعْنَى بما يجري من أمور المسلمين في البلاد، وفي البلاد الإسلامية عامة، ويصرح بإنكار المنكر، ويتوجه بالدعاء للمسلمين فيما ينزل بهم، وكانت كلماته للزائر الواحد تنقل ويتداولها الناس، وربما خُطِبَ بها على المنابر.

ومن ذلك تشديده الإنكار على تجار الأراضي لما تآمروا حوالي سنة ١٩٩٤ تقريباً على مضاعفة أسعار الأراضي الصالحة للبناء، فكان ينكر ذلك جداً، لأن السكن من ضروريات الحياة، يجب تيسيره، لا تعسيره، وخفض سعره لا إغلاؤه، وجعل ذلك بعض الخطباء

المشهورين موضوعاً لخطبته صرح فيها بكلام الشيخ، كما أيد خطباء آخرون وأساتذة جامعيون في محاضراتهم استنكار هذا التآمر الظالم، اقتداء بالشيخ رحمه الله تعالى.

ومن ذلك أنه لما هبَّت فتنة الأخوة الأمازيغ (البربر) التي قادها مرتدون في الجزائر، شُغِل الشيخ بها كثيراً، وصار يضرع لربه في قيامه بالليل في أوقاته لصرفها، وصرح لبعض أهله أنه مشغول بها، فاستجاب الله دعاءه وصرفها.

مقدمات غريبة:

واستمر شيخنا يزداد كمالاً وتقرباً إلى الله تعالى واهتماماً بالعلوم والدين وأمور المدرسة والتعليم والإسلام والمسلمين قدر وسعه ابتغاء رضوان الله رب العالمين، ولوحظ عليه من رمضان ١٤٢٢ هـ إقلاله من الكلام عن عادته، إقلالاً كثيراً، وصار يكثر من الدعاء ومن قول: الله يحنّ علينا، اللهم اشفنا وعافنا من كل داء وبلاء، بجاه إمام الأنبياء، اللهم أفض علينا من أنوار رسول الله ﷺ وأسراره وبركاته».

بل لُحِظَ أنه في دعائه ليلة النصف من شعبان التي تجتمع حوله الأُسْرَة فيها لم يدع فيه بطول العمر، وكان في كل موسم سابق يدعو به، وقبل مرضه بشهر سمعَتْه إحدى بناته يقول: «الله يُعَدِّي الشتوية على خير». قالت: لماذا؟ قال: «الله تعالى يعديها على خير».

ثم قبل بدء المرض به بشهر صار يرى والده كثيراً، ويرى معه أحياناً كبار العلماء والأولياء، وفي بعضها، أرى الوالد ولده الشيخ عبد الله مقعده من الجنة. ومرة قال له: يا بُني، اشتقنا لك، أنت مرتبتك عِلْيت (عَلَتْ) فتعال إلينا. وغير ذلك مما رآه رحمه الله تعالى.

مفاجـأة الأزمـة:

حتـى إذا كـان ليـل يـوم السبـت ٤ ذي الحجـة ١٤٢٢ = ١٦/٢/٢٠٠٢م حصل له أزمة اختناق في الفتق، بدأت الأزمة ليلاً بينما هو يصلي قيام الليل الساعة ٣,٣٠، إذا به يجد ألماً شديداً، وكانت بقربه إحدى بناته وكانت أكثر ملازمة له، فقال لها: الألم هذه المرة شديد، ليس كما يأتي عادة، وشرب كأساً من الشاي، وتصبَّر حتى طلع النهار وارتفع، فاتصل بطبيبه، وأخذ بعض العلاجات. وكانت حصلت له أزمة مماثلة منذ عشر سنوات لكنّ الله صرفها. فتأنَّى في إجراء العملية هذه المرة لعل الأزمة تنصرف، وذلك لِورعه رحمه الله تحاشياً من كشف عورته، ولم يجد ما يسوغ كشفها، لأنه قادر على التصرف بأموره من دونها، وضرب لي أمثلة من بعض أشخاص لم يعملوا عملية الفتق.

لكنها في هذه المرة تفاقمت، فلما رأى ضرورة إجرائها، رضي بأمر الله تعالى، وطلبها هو نفسه، ودخل يوم الثلاثاء السابع من ذي الحجة غرفة العمليات بغاية البساطة، وتحدث لأطبائه حديثاً حلواً فيه مزاح، وشكرهم، وحدثهم عن فضل الشكر، وأهمية أن يشكر الإنسان من أحسن إليه، ودعا لهم أن يجعل الله شفاء الناس وشفاءه على أيديهم.

وانتهت العملية بنجاح، لكن قَدَر الله تعالى سبق، وحصلت مضاعفات خِيف منها على الشيخ، ثم خفّت، ثم ضعف من جديد وخيف عليه، ثم تحسنت صحته، لكن لم يمكن الاستغناء عن توصيل الغذاء، ومساعدة النَّفَس بالأجهزة في غرفة العناية المشددة (المركزة)، وتوافد الناس من كل حدب وصوب للمشفى ومنهم كبار رجال الدولة جاؤوا مراراً يستفسرون عن صحته وعما يُحتاج إليه،

ويعودونه، وكثر الزحام كثرة عظيمة، حتى احتيج لبعض إجراءات، وجاءت الاتصالات من خارج البلاد السورية، وضجّ الناس بالدعاء للشيخ في حلب وغيرها وفي مكة ومنى وعرفات(١) والمدينة، حتى قلتُ: لو كان من سنة الله إحياء الميت بالدعاء والقرآن لأحيي، فكيف لا يشفى، وأثّر ذلك الحال في انصلاح حال الناس، كما حدثنا بعض أصدقائنا التجار، بل حدّث بعضُ الأشخاص ابنَ الشيخ ـ وأنا أعرف ذلك الشخص ـ قال: إنه بلغ الآن سبعين سنة لا يصلي، والآن صار يصلي حتى يدعوَ للشيخ بالعافية فيستجيبَ الله دعاءه.

الحادث الجَلَل:

ولم تُجْدِ المحاولات الطبية، وقد استُقْدِمَ أطباءُ من عَمّان وبيروت، فأقروا برنامج التداوي في جملته، وأضافوا بعض أشياء، وأُحضِرَت أدويةٌ من خارج سورية، وكنا على أمل، لا نيأس من الشفاء، وإن بدا أن الوضع صعب جداً، وهكذا فإن حالة الشيخ الصحية تفاقمت حتى جاء القدر المحتوم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وليكون ذلك سبب نيله درجة الشهداء إن شاء الله، كما نال درجة كُمَّل الأولياء، إن شاء الله تعالى، كما نأمل ونرجو. وكانت وفاته مساء يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجة ١٤٢٢ هجرية، الموافق ٤/ ٣/ ٢٠٠٢ ميلادية، الساعة السابعة مع ارتفاع صوت المؤذن في المسجد قرب المستشفى بأذان العشاء تماماً، وكأنه أجاب المؤذن بروحه رضي الله عنه.

ترتيب الأمور:

وقد اجتمعت مع الأخوة الفضلاء أبناء شيخنا في غرفة أخرى في المستشفى وتذاكرنا فيما نعمل، فقررنا ـ بناء على رأيي الذي أكدته

---

(١) إذ كان مرضه موافقاً موسم الحج.

كثيراً ـ أن تُشَيَّع الجنازة محمولةً بالسيارة، مراعاةً لشدةِ الزحام، وأن تُصَلّى صلاة الجنازة في مسجد سيدنا عبد الله بن عباس عَقِبَ صلاة الظهر من الغد الثلاثاء، واتفقوا أن أصليَ أنا بالناس، فكررت لهم الطلب أن يصلي أحدهم وخصوصاً الابن الأكبر لأنه أحسن أنساً للناس، مع الاستحقاق الشرعي، لكن أصروا علي، فقبلت امتثالاً، واتفقنا أن يُنقل الجثمان إلى بيت الفقيد عند الفجر، حتى يَخِفَّ زحام الناس، وأن لا نذيع الآن خبر الوفاة إلا في حدود ضيقة خوفاً من الزحام.

لكن منذ الساعة الأولى بل الدقائق الأولى لوفاته، انتشر الخبر في أنحاء الدنيا بسرعة عجيبة، وجاءت الاستفسارات الهاتفية عن جلية الخبر.

زحف الجماهير الضخمة:

وقد فوجئنا بما لم يكن في حسباننا من كثرة الزحام وشدته، وقد خرجت حلب كلها لتودع شيخها، وقدم وفود كبيرة من المحافظات والعلماء الفضلاء من دمشق وحمص وحماة وغيرها، واتُّخِذت إجراءات مشددة لحفظ النظام من شدة الزحام، في كل مكان، وخصوصاً عند بيت الشيخ، ومسجد ابن عباس، وجامع الشعبانية، والطرق الموصلة إلى كل ما ذكرنا، حتى رأينا ـ بعد نقله رحمه الله إلى بيته ـ لتخفيف الزحام عند البيت برأي الدكتور مدير الأوقاف أن نخرج معه أنا والدكتور الشيخ محمد نجيب ابن الشيخ الأكبر نسبق الجنازة حتى يتبعنا الناس، فوجدنا في المسجد زحاماً عظيماً، وفي الطريق زحاماً، وقَدِم السيد محافظ حلب بنفسه.

كيف صلينا:

وفي المسجد أخّرنا صلاة الظهر قليلاً لنصلِّيَها عند قدوم الجنازة،

لكن الزحام تعاظم على الرغم من سعة المسجد وما يحيط به، حتى التقت الأجساد بعضها ببعض قياماً، وانسحب بعض كبارٍ من الحضور من باب خفي من شدة الزحام.

ورأيت الركوع والسجود غير ممكن، وليس يمكن تعليم الناس صلاة الفرض بما يناسب هذه الحالة، فاقترحت على الدكتور ابن الشيخ ومدير الأوقاف أن نصلي الجنازة أولاً، لنحل أزمة الزحام، ثم يصلي الناس كما يتيسر لهم.

وهكذا تقدمت فصليت أنا إماماً بالناس صلاة الجنازة، وإلى جواري الدكتور صهيب الشامي مدير الأوقاف، فكان جزاه الله خيراً يرفع صوته ليسمع الناس، وساعد ذلك كثيراً في انتظام الصلاة، فقد كان مكبر الصوت أمامي ضعيفاً، حتى إن كثيرين لم يسمعوا صوتي وسمعوا صوته.

التشييع في أعظم زحام:

ثم خرجنا نشيِّع الجنازة إلى مقرها الأخير في مدفن في جامع الشعبانية غربي القبلية فيها، وهي وصية الشيخ، أوصى بها منذ خمس عشرة سنة، وإذا الزحام شديد طيلة الطريق، من طرف حلب الغربي إلى الشعبانية في شرقها، مما لم أشهده في عمري في حلب، و لا في أضخم استقبال أو احتشاد، ولم يكن أحدٌ يقدّر أو يظن أن يبلغ الزحام جزءاً مما وقع، لطويل اعتزال الشيخ الناس، لكن الأمر جاء على العكس، حتى قدَّرْنا أن تغرب الشمس وربما لا تصل الجنازة، لكن استطعنا اختراق الزحام لتمر سيارتنا، وحُمِلت الجنازة على سيارة أخرى غير المعهودة، وسُلك بها الطريق من الخلف من أزِقَّةٍ ضيقة لا يتوقع أحد المرور فيها، فوصلت الجنازة بعد ساعتين من خروجها، وقد وصلنا قبلها، وصلينا الظهر جماعة في جامع الشعبانية.

وقد ساعدت قوات حفظ النظام مساعدة عظيمة لحفظ الأمن، وتأمين دخول الجنازة، ودخول من يصلح أن يدخل معها، وتسلق الناس الجدران واكتظوا على الأسطحة المحيطة بالمقبرة، وفور دخول الجنازة وُضِعَتْ في ساحة المدرسة، وصلى عليها ابن الشيخ صلاة الجنازة مع جماعة لم يستطيعوا الصلاة في المسجد معنا من شدة الزحام، وأنزل الجثمان القبر.

كيف التلقين:

هنا جاءت قضية مهمة هي قضية التلقين، وقد عهد السادة الكرام أبناء الشيخ إليّ بذلك، وكان أشق شيءٍ على نفسي وأشد، لكني امتثلت، ولما جلست مقابلته رضي الله عنه، تفكرت ماذا أقول في حضرة مَن عاش عمره يُعلِّم التوحيد والتنْزيه، وينافح عنه ويدعو الخلق إلى الله، وتذكّرت ما نقل عن بعض الأكابر، وهو الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، أنه لما جاء الملكان يسألانه قال: أتسألانِني عن لا إله إلا الله وأنا الذي كنت أُعلِّم لا إله إلا الله.

فافتتحت بالحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ ثم توجهت أخاطب شيخنا أقول: إنك كنت تُعلِّمنا التوحيد، شهادةَ لا إله إلا الله محمد رسول الله، وألَّفت في ذلك كتاباً، وملأت القلوب محبة لربها ومحبة لرسوله ﷺ، فرضي الله عنك وأرضاك، وألحقك بالمعية الخاصة بالنبي ﷺ، كما كنت تطمح طيلة عمرك، وكلاماً أكثر من هذا بنحوه، وأخذني البكاء وأخذ الناس البكاء خلال الكلام حتى عجلت بالاختتام لغلبة البكاء[1].

---

(١) انظر تحقيق البحث في قضية التلقين في كتابي (هدي النبي ﷺ في الصلوات الخاصة).

ثم قرأنا من القرآن سورة يس وغيرها، وأكثرنا من الدعاء، والصلاة على النبي ﷺ، وودعنا الشيخ في مرقده الأخير راضياً مرضياً، وقلوبنا في غاية الحزن والانكسار.

استقبال العزاء:

أما العزاء فقد كان جرى الاتفاق أن يكون في صالة الاستقبال الكبرى في جامع عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وكان ذلك برأي الدكتور صهيب الشامي مدير أوقاف حلب ـ حفظه الله تعالى ـ. وكنا نريد مكاناً آخر أقرب للناس، لكن أحمد الله أن ألهمنا ذلك، فقد فوجئنا بما لم يكن في الحسبان، من كثرة الزوار وازدحامهم!!

وكنا اتفقنا فيما بيننا أن نعتذر لمن يريدون إلقاء الكلمات والخطب، لما أن شيخنا رحمه الله كان ينتقد كثيراً مما يجري فيها، ولَحَظَ الدكتور صهيب لَمّا أبلغه ذلك ابنُ شيخنا أن ذلك يحرجه، فقلت له: أنا أقوم بإبلاغهم ذلك.

وكان القرار حكيماً جداً، حقق فوائد كثيرة، فقد كان من يمكن أن يتكلموا عدداً عظيماً، لا يتّسع للواحد منهم الوقت لشيء، كما أن الزحام عظيم، حتى كان الزائر لا يستطيع المكث في قاعة الاستقبال إلا قليلاً، ثم يخرج يوسع لغيره من الداخلين، وكثيرون مروا علينا مُسَلِّمين مروراً فقط، وكثيرون مكثوا في ساحة المسجد الواسعة يستمعون القرآن، لم يدخلوا للسلام والتعزية.

وقدمت للعزاء وفود من المحافظات من حماة وحمص ودمشق وغيرها، وأوفد سيادة رئيس الجمهورية محافظَ حلب نائباً عنه للتعزية، كذلك أوفد رئيس مجلس الشعب السيد المحافظَ في اليوم التالي نائباً عنه للتعزية، وفي الثالث ختمت التعزية بكلمة مختصرة

جامعة ألقيتها عن حياة شيخنا الإمام وفضله وكراماته، وأنهيتها بشكر المعزين، خصصت وعممت، واضطر أبناء الشيخ لتمديد الاستقبال بسبب وصول وفود لم يتيسر لها الوصول من قبل من المحافظات والأقاليم، ومن خارج البلاد مثل الإمارات العربية المتحدة والسعودية.

مشاركة العالم الإسلامي:

كذلك كانت التجمعات كثيفة في بلاد أخرى خارج سورية، صُلِّيَ عليه صلاةُ الغائب في مكة والمدينة وغيرهما، وعقدت استقبالات العزاء في مكة والمدينة وجدة والكويت والبوسنة، وغيرها كثير، وتحدث العلماء عن جسامة الخسارة بفقده، وتحدثوا عن علو منزلته، وأسماه العلماء في المدينة المنورة (الإمام في علوم الشريعة وكبير الأولياء لهذا العصر) وأرسلوا إليّ التعزية بالهاتف وأن أبلغها أيضاً إخوتي السادةَ أبناءَ شيخي الفقيد ـ رحمه الله ـ، وخلفاءه، وأنهم يعاهدونهم على تأييدهم في السير على خطاه ـ رحمه الله ـ.

درس القبـول:

لقد وضع الله لشيخنا الإمام القبول في الأرض، فعلى الرغم من اعتزاله للناس نحو إحدى عشرة سنة، خرجت حلب بأسرها لتوديع شيخها وعالمها، وكما لاحظ المحلّلون أن أكثر من نصفهم من سِنِّ الخامسة والعشرين فما دون، أي إنهم لم يروا الشيخ ولم يحضروا دروسه، إنما هي المحبة التي أودعها الله في قلوبهم، ليكون ذلك درساً لنا نحن المرشدين أن نُعرِضَ عن أساليب الدعوى والدعاية، وأن نعتمد الصدق في القول والعمل والحال، والتواضع (إنما الأعمال بالنيات)، و (إن الله سائل كل قائل مقولة فيم قالها).

درس آخر بليغ:

ودرس آخر بليغٌ عظيم يجب أنْ يَعِيَهُ كل قيادي، صغرت قيادته أو عظمت، بل مهما عظمت، هو أن نحرص على عنصر المحبة، نعم، لقد رأيت بوارق النصر تلوح بين الصفوف المتراصة الشديدة التزاحم أينما توجهنا، قلوب جمعتها المحبة، وغلبتها على إحساسها بنفسها، لتقول بلسان حالها: أيها السادة القادة، إن دين المحبة يعمر العالم، ويقهر قوى الظلم والحقد، احفظوا لقلوب أمتكم دين الحب والتواد، وَلْيُغَذِّ إعلامكم هذا الدين وهذه الرابطة، ولتُعْنَ سياستكم بهذا الدين وهذه الرابطة التي تجمع قلوب الأمة على المحبة لتهزم قوى البغي والحقد، والقتل والوحشية. و﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾».

* * *

شخصية الشيخ الإمام
ومنهجه العلمي

أسـرة الشيخ الإمام رحمه الله تعـالى

أسرة الشيخ أسرة عريقة في الفضل، عالية المنزلة في المكرمات، هي نموذج النسب الذي لا يفترق عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، كما ورد في بعض الروايات: «كتاب الله وعِترَتي، لن يتفرقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوض»(١).

والد شيخنا الإمام:

والده: جدنا الشيخ الإمام محمد نجيب سـراج الدين (المتوفى سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م) رحمه الله، الذي لَقّبه علماء الهند: محيي السنة. ووصفه لي الشيخ العلامة الجليل السيد علوي المالكي بالإمام، وأكد هذا الوصف وكرره: «كان إماماً في الفقه .. في التفسير، إماماً في الحديث، إماماً في العقيدة ...» أو نحو ذلك.

---

(١) وقد لحظت ذلك بتتبع الأعلام العاملين في هذا العصر فوجدت في كبارهم أهل البيت، مثل الشيخ الجليل مولانا أبي الحسن علي الحَسَنِيّ الندوي، وخليفته الشيخ محمد الرابع الندوي الحسني، والشيخ سلمان، وسائر أفراد الأسرة الحسنية في لكنو في الهند، كذلك من علماء دمشق الفحول مثل الشيخ السيد محمد الفاتح الكتاني وإخوته الكرام، وفي مكة شيخنا علوي المالكي ثم ابنه الدكتور محمد، وكذا في المدينة، وغيرها.

وقد ألف شيخنا كتاباً في ترجمة والده حافلاً، ومع ذلك اقتصر على جانب يدل عليه العنوان «الإمام العلامة . . . والعارف . . .» .

ونزيد القارئ معرفة بالشيخ الإمام والد شيخنا ، مما كتبه لنا الأخ المفضال الدكتور محمد فوزي فيض الله ، وفيه قوله حفظه الله وفَسَح في مدته :

«كان يطيب لي أن يحدثني الشيخ عبد الله عن والده الشيخ نجيب ـ رحمه الله تعالى ـ إذ كان يتمتع بسمعة لا نظير له فيها : علماً ووقاراً وإكباراً ومحبةً واحتراماً من جميع الناس ، وكان الشيخ يستجيب لي فيحدثني عن والده بما يشاء ويسرني بذلك : فكان يذكر لي أن والده عالم عامل ، يُحِبُّ الإصلاح والتنظيم وقوله الحق بكل صراحة ولطف ، لا يجامل أحداً ؛ يلتزم شرع الله ، وصراطه المستقيم ؛ لا يرد سائلاً ، ولا يستمع لواش ولا لمغتاب ، ولا لمفسد ولا لمرجف أو مُغرِض ؛ يُكْثِر من قولة سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ : «لستُ بِخَبٍّ ، ولا الخَبُّ يخدَعُنِي» . . .

ويحدثني عن عبادات والده : فيذكر أنه كثير القراءة : والذكر ، دؤوب على التهجد وطول القيام ، والتضرع بالدعاء ؛ لا يُرى إلا دارساً في كتاب ، أو كاتباً في قرطاس ، أو مستقبلاً القبلة ، قائماً أو راكعاً أو ساجداً لرب العالمين . قليل التحدث معنا ، لا يسمُر بعد العشاء إلا قليلاً .

كما يحدثني عن بعض عادات الوالد : لا ينام بعد صلاة الفجر ، بل يجلس للتلاوة والدراسة والذكر ، حتى يصلي الضحى ، إفطاره كوب حليب ممزوج ببيضتين فقط ، ثم يذهب إلى جامع الحموي . ثم يعود للقيلولة . . . لا يتناول إلا وجبة طعام بعد العصر ، هي غداؤه

وعشاؤه. لم تكن آنذاك برادات، فتوضع له الفاكهة في سلة، ثم تُدلّى في الجب كيّما تبرد.

يحب العلماء وأهل الفضل، كالشيخ محمد سعيد الإدلبي ـ رحمه الله ـ وكان يقول فيه: «من أحب أن يرى أهل الجنة، فلينظر إلى وجه الشيخ سعيد» ويحب طلاب العلم المخلصين، ولا يحب طلاب الشهادات؛ ولهذا امتنع من التدريس في المدرسة الخُسْرَوِيةَ القديمة، أول افتتاحها، لأن طلابها راغبون في الشهادات، ليصلوا بها إلى الدنيا.

عُرِضَ عليه منصبُ الفتوى، فرفضه؛ كما كان يعتذر عن الولائم، إلا الذين يثق بدينهم وأكلهم الحلال، كآل العتر».

وثمة جوانب عديدة نرجو أن نعرض وجازات عنها في مقام آخر إن شاء الله تعالى[١].

والدة شيخنا الإمام:

ووالدته: السيدة خديجة المكتبي رحمها الله تعالى، وأسرة المكتبي في حلب أسرة علم وصلاح، منها علماء كبار، منهم الشيخ أحمد المكتبي، وكذا غيره، ووالدها السيد وحيد المكتبي من الصالحين المجاهدين، كان ميسورَ الحال، ولما كانت الحرب العالمية الأولى ذهب إليها ولم يَعُدْ.

وذلك أن الخلافة العثمانية دعت للجهاد في الحرب العامة الأولى فذهب بنفسه للحرب، قالت لي رحمها الله: قلت لأبي: أليس معك فكِيك (أي مالاً تدفعه بدلاً من الذهاب للقتال)، وكانوا يقبلون دفع البدل. قال لها: معي فكِيك. قالت: لماذا إذن تذهب للحرب فقال

(١) وسبقت لمحة من ذلك ص ١٨ ـ ٢١.

لها: أنا ذاهب للجهاد في سبيل الله، إن مِتُّ مِتُ شهيداً، وإن عِشتُ عِشتُ سعيداً. ثم ذهب للحرب ولم يعد رحمه الله تعالى، وأسكنه في أعالي منازل الشهداء.

وكانت رحمها الله صغيرة السن آنذاك، فنشأت وتربّت في بيت عمها العلامة الشيخ أحمد المكتبي صاحب الأحوال العالية في الصلاح والتقوى والورع، وكانت رحمها الله تقيةً صالحة متعبدة، لا يَفْتُرُ لسانُها عن ذكر الله، والصلاةِ على النبي ﷺ، وكثيراً ما ترفع صوتَها بذلك.

وكانت والدة الشيخ رحمها الله تعالى مُدَبِّرةً، تحرص كل الحرص على راحة زوجها، حتى كنا إذا ذهبنا إليهم ونحن صغار، فما كان أحد يستطيع أن يرفع صوته لحرصها على راحة الشيخ، فكانت تُهيِّئ لجدّنا الظرف المناسب للمطالعة، وتحضير الدروس، فكانت مثال الزوجة الراعية لزوجها وبيتها وأبنائها، وكانت تقية شديدة في دينها وتقواها، وكانت كثيرة الإحسان للناس، والإحسان للفقراء.

وكانت تزورنا أحياناً، تمكث عدة أيام، فنأنس لها ونأنس بحديثها، ونحس بالبركة بحضورها، فقد كانت مباركة الحضور، وكانت أحياناً تذهب بنفسها وتشتري حاجاتها، ومنها أقمشة تخيطها ثياباً لنفسها، وكانت أكثر ما تشتري من أحد القماشين الصلحاء، فكان إذا جاءت يَحْتفي بها كثيراً ويشغلها بالسؤال عن الشيخ، وكانت تستحثُّه على الإسراع بعرض الأقمشة، وهو مشتغل مع الزبائن، ولَحَظَتْ تكرر هذا التباطؤ منه، فلامته فقال لها ـ وقد حدثتنا بهذا مراراً ـ: يا حاجّة والله حضورك بركةٌ، كلما حَضَرْتِ جاءنا زبائن كثير، فلا تحرمينا البركة، توفيت ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٧/ ٤/ ١٩٨٠ م، ودفنت إلى جوار زوجها رحمه الله، وكانت وفاتها

عن عمر يبلغ التسعين، بعد سفر شيخنا ابنها بنحو ثلاثة أشهر إلى المدينة المنورة، وذكرنا الكرامة بإعلام الله تعالى له بوفاتها، رحمها الله وأعلى منزلتها.

زوج الشيخ الإمام المصونة:

وأما زوج الشيخ: فهي المرأة الصالحة الحافظة لكتاب الله تعالى، الحاجة فاطمة بنت الحاج محمد آل طظري رحمه الله، وكان من أصدقاء الجدّ شيخِنا، ومن تلامذته المخلصين، وكان تاجراً واسع التجارة غنياً شاكراً، كريماً، بذولاً للمال في وجوه الخير، كما مرت الإشارة، وأنا أعرفه شخصياً، وزرته مع والدي أكثر من مرة في محله التجاري الكبير، قرب الجامع الأموي، وكان رحمه الله تعالى وقوراً بشوشاً، جميل الطلعة، مهيباً، وقد أكرمه الله بصحبة والد شيخنا والأخذ عنه، وزاد إكرامَه بهذه المصاهرة المباركة.

وتتمتع زوج شيخنا ـ أطال الله بقاءها في عافية ـ بقوة الشخصية، والحزم، كما أنها صنو أبيها في البُذل والكرم، وقد قامت برعاية زوجها شيخنا وأولاده خير رعاية، وحُنُوٍّ، ويلحظ المتأمل في موقفها من الشيخ موقف الإعزاز البالغ، حتى قلت في مناسبة: إنها ليست زوجة وفية مخلصة فحسب، بل هي أيضاً مريدة متفانية فيه، لذلك حار أولادها حفظهم الله كيف يعرضون عليها أمور الشيخ وهو في المستشفى، ثم حاروا أشد حيرة في إخبارها بالحادث الفاجع العظيم، واحتالوا لذلك بما جعل الإخبار لها يمر، ولا تصاب بما كان يُخشى منه، فأجْزِلْ يا ربِّ مثوبتها، وبارك في حياتها آمين.

السادة أولاد شيخنا الإمام:

وأما أولاد الشيخ: فهم خمسة ذكور وأربع بنات:

فالابن الأكبر من الذكور هو الدكتور الفقيه التقي الشيخ محمد نجيب حفظه الله تعالى خريج كلية الشريعة في الأزهر، والحاصل على درجة العالمية (الدكتوراه) في الفقه من جامعة الأزهر.

ثم ابنه أحمد يحيى دارس علوم الشريعة، والحافظ المتقن الجامع للقراءات، حصل على درجة الماجستير في الفقه من كلية الشريعة في الأزهر، واشتغل بالقراءات حتى حفظها بإتقان بالغ، على فضيلة شيخ القراء الشيخ الجليل عبد العزيز عيون السود رحمه الله، وكان الشيخ معجباً بضبطه وإتقانه يثني عليه. وكان الشيخ أحمد يحيى كثير المساءلة لوالده في قضايا علمية، وأمور عرفانية، حتى أنس منه التمكن في العلم، مع ملاحظة ورعـه حفظـه الله تعالى، ورغب إليه أن يدرّس مكانه رحمه الله تعالى وعهد إليه بمدرسة القراء في الشعبانية.

ثم ابنه الصالح المهندس محيي الدين، وهو كذلك ذو دين، وله اهتمام بالصلاح والصالحين والأولياء وأحوالهم، وأحباب يحضرون مجالس تعلم وذكر.

ثم ابنه الدكتور إبراهيم، اختصاصي طب العيون وجراحتها، والناجح بالدرجة الأولى في امتحانات الشهادة الثانوية الفرع العلمي، وكان يقرأ مع إخوته صحيح البخاري على الشيخ، وتُعجب قراءتُه والدَه رحمه الله، وهو على خير وصلاح مشهور بطب العيون، ولله الحمد.

ثم ابنه الأخ الشيخ عماد الدين، سماه الشيخ كما أخبرني لما سألته، قال: سميته عماد الدين، وهو الاسم -يعني اللقب- الذي اشتهر به الحافظ ابن كثير رحمه الله، وكان شيخنا يحب الحافظ ابن

كثير جداً، ويكثر المطالعة في تفسيره، وكان تفسيره مع تفاسير أخرى وكتب أخرى بقربه، في متناول يده.

وقد تفرغ الشيخ عماد الدين لخدمة والده تفرغاً كاملاً، وهو الذي يستقبل الضيوف ويقدم لهم الضيافة ويقوم بكل ما يحتاج له شيخنا والده، فهو بهذا حامل سر الشيخ الوالد ـ رحمه الله ـ، وجزى ابنه الشيخ عماد عن خدمة أبيه وعنا أيضاً خير الجزاء.

وأما بنات الشيخ فهن أربع: كبراهن زوجي العزيزة وهي أكبر الأولاد كلهم، ونعم العون هي لي في مواجهة المصاعب والمسؤوليات، وإعداد الجو المناسب للتحضير والبحث العلمي، قد حصلت على تعليم المدرسة، ومن علم شيخنا والدها ما يجعلها تَبُزُّ صاحبات الشهادات، وكثيراً ما نتطارح الحديث، فتقول: وراء كل رجل عظيم امرأة.

وأقول: «نعم، لا شك». أي امرأة عظيمة.

وبعدها أختها ثم أختان أيضاً، كلهن ذوات تدين، وتصوُّن، واحتجابٍ كامل، لا يترخصن بشيء أبداً في التزام الحجاب الكامل، والتدين والتقوى ـ حفظهن الله تعالى ـ وبارك فيهن.

ثم أحفاد الشيخ كلهم على تقوى، بنين وبنات، وأولاد شيخنا وأحفاده كلهم على قدم الامتثال لأمره، لا يحيدون عنه، وكلهم يهابونه ويجلّونه. ندعو لهم كلهم بما كان يدعى للشيخ في ختام الدروس:

«اللهم أدم هذا الهَدْيَ والتقوى في ذريته إلى يوم الدين». اللهم آمين.

* * *

ترتيب الشيخ الإمام الإداري

والبحث فيه طويل نعرض لمحة سريعة منه:

ترتيب الجمعية:

عنِي شيخنا -رحمه الله- بترتيب أمور الجمعية وملحقاتها، والمدرسة الشرعية وما تفرع عنها، . . .

وترتيبُ الإدارة يحتاج لحسن اختيار الرجال، وكان شيخنا يملك نظرة ثاقبة يعرف بها الرجال، وقد تدرب على ذلك كثيراً بما تولاه من إدارة أمور والده، وما يتعلق بأصحابه وزواره، كذلك أعمال توزيع المساعدات والمعونات وما تكشف عنه.

وقد حصل خلل في معهد العلوم الشرعية في عهد المعهد الأول بسبب المنافسات بين الأساتذة، فأصروا من دمشق على شيخنا أن يقبل الإدارة لحل هذه المشكلة، فقبل على شريطة أن لا يزيد على سنة واحدة، فأعاد الأمور إلى نصابها على خير ما يرام، وقدر له المسؤولون في الأوقاف في دمشق هذه المقدرة وقرروا إبقاءه، لكنه أصر على إنفاذ شرطه، واستعفى من العمل، فقبلوا منه.

الكل على قلب واحد (الأبدال):

ويتميز اختياره للرجال بوضع كل واحد في مكانه المناسب، ثم

بأن يكون الجميع على مَشْرَبٍ واحد، وقلب واحد، لذلك سلمت المدرسة والجمعية من أي احتكاك يحصل، مع أنه لم يسلم من ذلك قُطّاع خاص ولا عام، وأذكر يوماً تفكرت في هذا الصفاء في المدرسة والجمعية، فقلت لشيخنا: الحمد لله، كل الأساتذة والموظفين على تفاهم وتحابٍّ، على قلبِ رجل واحد، يصلح أن يوصفوا بأنهم من (الأبدال)، لأن وصف الأبدال أنهم على قلب رجل واحد، مثل قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام. أي قلبٍ سليم.

من حكمته الإدارية:

ومن إدارته: أنه يكلف المدرس بمادة في صف، وبعد سنتين أو أكثر يكلفه بها في صف أعلى حتى يمهر في الاختصاص ويتعمق.

كذلك من إدارته أنه إذا ظهر ما يحوج لتغيير عمل شخص، فإنه يعمل ترتيباً متعدد الجوانب، بحيث لا يظهر ما يمكن أن يعد انتقاداً أو انتقاصاً لهذا الشخص، فلا يتأذى.

كذلك من إدارته أنه احتاج لأن يُدَرِّسَ عنده رجل متمكن في أحد الاختصاصات، وبيته بعيد يصعب حضوره منه، فاهتم لذلك حتى هيأ الله لشيخنا شراء بيت لهذا الأستاذ قرب المدرسة، فانتظم عمله بذلك تماماً، وحدث ذلك بما يعد كرامة لشيخنا رحمه الله.

كيف التقاعد عنده:

كذلك نذكر من إدارته وإكرامه للعلماء أن الأستاذ أو الموظف إذا ضعف عن العمل لكبر سنه أو لِمُعوِّقٍ دائم، لا يعزله عن العمل، بل يقول له: يا أستاذ، لا نريد أن تتعب، درِّس في مسجد قريب لبيتك ما تستطيعه ونحن ندفع لك مرتَّبك الذي تأخذه منا كاملاً غير منقوص.

الحزم في الأمور المالية:

كما أنه في إدارة الجمعية في غاية الحزم، لا سيما ضبط الحسابات، وصَرْفِ الأموال، وقد لفت ذلك انتباه مديري الشؤون الاجتماعية، فصاروا يرغبون بزيارة الشيخ الذي لم يروا جمعيةً أكثر ضبطاً من جمعيته، حتى صار بعضهم من خُلّص مريديه، ووقائعُ ذلك محفوظة، وأشخاصها معروفة عندي، لكننا لا نريد إدخال العنصر الشخصي هنا.

يرفض العمل المجاني:

ومن حكمته في الإدارة أنه يرفض العمل المجاني، سواء كان في المدرسة أو الجمعية، وهذا مهم جداً في انتظام الأمور وتحمل المسؤولية، لأن المتبرع كثيراً ما يتساهل في عمله، لأنه متبرع فيه، فأحكم الشيخ أمره بهذا.

ومن ترتيبه الحكيم للأمور أني استشرته في شأن المسجد الذي أدرس فيه في دمشق وموقعه، فأشار إلي أن أختار الأيسرَ عليَّ، وكان ذلك حكمة، لأن البعد يؤدي إلى عناء قد يعيق عن الدرس أو عن فوائد، لا سيما وأني أجلس في البيت بعد الدرس مع طلاب الدراسات العليا، لقضايا رسائلهم، وعلى ذلك دَرَجْتُ أيضاً في حلب، على الرغم من أنه عُرِض علي مساجد كبيرة قديمة، وتوصيل بالسيارة.

ومن حكمته رحمه الله أني قد استشرته لما عُرض علي التدريس في مجمع أبي النور، وأشار علي الزملاء في دمشق بالموافقة، فظل في نفسي شيء، ثم جئت حلب، فكان أن قصدت رأساً زيارته، فعَرَضْتُ عليه الأمر. فقال: نعم درِّس عندهم، هم محتاجون إليك، ولا تدرِّس إلا على منهاجك أنت، فأزال بهذا ما كان في نفسي،

وحصل خيرٌ عظيم ولله الحمد، اللهم تقبله وأعظم وأدم النفع به، وأجزل مثوبة شيخنا عنه.

التأني في الأمور:

ومن حكمته في إدارة الأمور التأني، فكان لا يعجل في أمر مهما بدا مسوِّغ تعجيله، حتى يتبين حقيقته ونتائجه، وكان كثير ممن يحيط به يتمنون أحياناً لو عجل، ثم يتبين الأمر على ما ارتآه وسار فيه، وهذا عمل بالحديث: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة». وذكر لي أكثر من مرة حديث: «لا عقل كالتدبير» وقال: أحاديث العقل فيها كلام كثير، هذا أحسنها.

سياسته الطلابية:

نجدنا محرجين في الجامعة، ونحن نتحدث عن سياسة الشيخ الطلابية وتواضعه وشفقته في معاملتهم، ومن تواضعه وشفقته رعايته البالغة لطلاب العلم، فكان يواظب على تفقد المدرسة يومياً، ويشرف بنفسه على تسلم الطلاب كسوتهم واحداً واحداً، ويدعو لهم، وكانوا يفرحون لذلك كثيراً وينشطون.

ومن نظام مدرسة التعليم الشرعي إلزام الطلاب بلبس موحد عربي، تُقَدِّمُ هذا الملبس جمعيةُ التعليم على نفقتها، فكان ـ رحمه الله ـ يستجيد للطلاب الأقمشة، ويتعاقد على الخياطة لهم على قياس كل واحد منهم، ثوباً عادياً وسترة (بالطو) من الجوخ، وكان يرعى استلامهم وقياسهم عند الاستلام بنفسه، فإذا رأى خللاً أعاد الثوب أو البالطو إلى الخياط، ويقول: نحن اتفقنا على خياطة خاصة بالقياس لكل واحد، لم نتفق على خياط بازاري (أي تجاري) ويأمر بإعادة الثوب أو البالطو. وإذا طابق الثوب صاحبَه مسح الشيخ

على الطالب وهو لابس لـه، ودعا لـه، وكان ذلك مثار فرح عظيم لهم.

وكان يُعْنَى بمعرفة سبب غياب التلميذ، لعله لفقر أو سبب يحتاج إلى معالجة فيعالجه ـ رحمه الله ـ.

وإذا وجد التلميذ ضعيفَ الأهلية أمهله ليحصل ما يمكن له، ثم يصرفه بلطف، وذلك قد نفع هؤلاء، فنجحوا في أعمال حُرّة وظلُّوا على تقوى واستقامة، لحكمة الشيخ في توجيههم.

وكان يُعْنَى بالنظر في نظافة التلامذة ويشدد عليها، وربما كان في طبع بعض التلاميذ الرعونة والتلوث، فهذا يَصْرِفه ويُخْرِجْه من المدرسة بلطف.

كما كان يوسع صدره لشكاواهم، فكانوا يفضون لـه بما لا يفضون لأهلهم، وإذا علم بمشكل عائلي دعا أبوي التلميذ لحل المشكلة، وربما جعل اللقاء بوالدي التلميذ عنده في البيت لغاية العناية والسرية.

وكان من اعتنائه بالطالب يقيم مأدبة للطلاب في فترة، يقدم أطيب الأطعمة من الشواء وغيره، ويقوم عليهم بنفسه، ويقول لهم: كلوا هنيئاً، لا يقل أحدٌ: هذا زكاة، ليس هذا زكاة، فترتاح نفوسهم ويطيب لهم الطعام أكثر وأكثر.

وكان طلاب المدرسة بهذه الرعاية على صلة روحية قوية بالشيخ، يرونه في رؤى جميلة فيها بشارات عظيمة.

بشرى لطلاب المدرسة:

وهذا موقف عجيب مما حكاه لنا الأساتذة:

ذلك أن الشيخ رحمه الله رآه الطلاب في الفرصة، وجاؤوا يقبلون

يده، فامتنع، ثم لما دخلوا دعا طلاب الصف الأخير وأذن لهم بتقبيل يده وقص عليهم رؤيا عظيمة الدلالة، رآها من يومه، هي أنه رأى النبي ﷺ، وتكفَّل للشيخ بتوصيل طلاب الشعبانية إلى نهر الكوثر. . . اللهم زدهم فتوحاً.

* * *

ملامح من شخص الشيخ الإمام رحمه الله تعالى

كان رحمه الله تعالى: **جميل الطلعة**، أخضر العينين، واسعتان باعتدال، كثَّ اللحية، خالطها شيب، مقدارها قبضة أو أكثر، معتدلَ القامة، نحيفَ البنية والقوام، أبيضَ مُشْرَباً بحمرة قليلة، أشقرَ الشعر، مهيبَ الطلعة، مع غاية اللطف، لَيِّنَ الأخلاق، سريعَ الخطو.

وكان رحمه الله حَسَنَ الصوت، حتى كانت الناس لا تمل صلاة التراويح معه ويتمنونه لو أطال أكثر، لِحُسْنِ صوته، لكنه يخفف اتّباعاً للسنة، وكان يقرأ في صلاة الجمعة نحو نصف حزب، فنظنه خفف القراءة لحلاوتها.

وكان يتهيَّأ لمستمع تلاوته كأن المكان يصغي إلى تلاوة الشيخ، أو أن الدنيا تردد معه كلام الله، إذ كان في غاية جمال الصوت، في نغمته، وهدوئه، ووقفاته الخاشعة، وأدائه المبين.

وقد آتاه الله جمالاً ووقاراً وجلالاً مهيباً مع تواضع ولين جانب، مشرق الطلعة، كأنّ المصابيح تضيء في وجهه، أو كأنّ وجهه مصباحاً قوياً مضيئاً، شبهوه هكذا وهكذا، من أهل العلم والفضل.

وهذا يذكرنا بما ثبت في وصف النبي ﷺ: «كأنّ الشمس تجري في وجهه».

وكان رحمه الله حادَّ الذكاء، متوقّد الذهن، سريع البديهة، يتذكَّر بسهولة كل ما مرَّ عليه، وكان أحد المحبين يحضر درس جامع الحموي، لكن لا يسلم على الشيخ لأجل الازدحام، وبعد عشرين سنة اجتمع مع الشيخ في مجلسٍ فعرفه، وقال للشيخ: أنا أحضر دروسك ودرس الحموي، قال: نعم أتذكر.

ومن قوة ذاكرته أنه أراد أن يؤانس مجالسيه قبل مرضه بأسبوعين، فراح يسمعهم شيئاً من مقامات الحريري، يسردها من ذاكرته، وسأله بعض أحفاده؟ فقال: كانوا يَحْفَظُونَها من الصفوف الأولى في الخسروية.

وأما ألفية بن مالك في النحو فقد كان يتذكر أبياتاً منها، وأحياناً يتدارسها مع أبنائه، يلقي عليهم بعض الإعرابات المستعصية، تدريباً لأذهانهم.

كان الناظر إليه ينجذب نحوه، حدثني من قريب جداً جارٌ فاضلٌ صالح، وسألته عن شعوره في درس الشيخ فقال: كيف يكون الإنسان حين يحج لأول مرة، ويشاهد الكعبة المشرّفة لأول مرة، هل يذكر أهلاً أو مالاً لا يذكر أهلاً أو مالاً أو بلداً، كذلك كنا إذا دخل الشيخ إلى الدرس ونظرنا إليه لم نذكر أهلاً أو مالاً.

وقال لي الأخ الصديق الفقيه العلامة الدكتور محمد فوزي فيض الله أكثر من مرة: أنا إذا جلست مع الشيخ أغرق في عيونه، يعني لما يرى فيهما من جمال ونور.

وكان رضي الله عنه حلو المنطق، وجيز الكلام، فصيح اللغة مع بساطة، بريئاً من التكلف في اللغة، وكان يُحَرّض من حوله من الطلبة وأهل العلم على النطق العربي الصحيح، ويستقبح اللهجة العامية.

وكانت كلماته محكمة، تدخل على النفوس في أعماقها وتقع من القلوب موقعاً بليغاً فيها.

وكان رحمه الله دؤوباً على العمل، أعطاه الله تعالى قوة، فكان يقرأ الدرس صباحاً في جامع الحموي ثم يستريح قليلاً، ثم يذهب إلى المدرسة والجمعية يتفقد أمورها، ويلقي بعض الدروس، ثم يرجع مساءً كذلك يعمل، إضافة لمطالعاته واشتغاله بالتأليف، وقد رأيت من ذلك ما أدهشني، فكان له مدد إلهي، لا شك في ذلك.

كان رحمه الله تعالى قوي الصحة، منذ أول نشأته، ثم ضعف لكثرة ما تحمل من أعباء، وما أتعب نفسه في شبابه، كما سمعته يقول أكثر من مرة، فصار يتأثر بالمرض والضعف من تغير الطقس، واشتداد الحر أو البرد، كذلك يتأثر كثيراً من المثيرات، وكان المراجعون له بمؤلماتهم كثيرون، يقص كل واحد عليه ما يحزن القلب، ويرجو دعاءَه، أو أنْ يكلم أحداً له صلة به، وهو يتحمل ذلك منهم لوجه الله تعالى.

وقلت له مرة: هؤلاء يأتون جنابك بما يُحزن ويؤلم، ثم لا أرى لهم وجهاً عندما تنفرج الكروب عنهم، لا يأتونك يبشرونك بأخبار سرور... !!.

وأتعبه إنسان بالمراجعة في مشكلات له كثيرة، ولمدة طويلة، ثم انفرجت عنه آلامه، فلم يَعُدْ يراه، فلقيه مرة، ولم يكن من عادة شيخنا العتاب، فقال له: أنت تحضر في القبض وتغيب في البسط.... !!.

وكان رحمه الله تعالى يلبس الثوب العربي (القباء) وعمامة بيضاء على قبعة بيضاء، وكان قديماً يلفها على طربوش أحمر، فلما كان عهد ظلم واستبداد تطاول صاحبه على العلماء، ومنع هذه العمامة إلا

بترخيص، جعل الشيخ عمامته على قبعة بيضاء، وكان كثير من الناس غير العلماء يلبسونها، لأنه رحمه الله تعالى أنف أن يأخذ الترخيص للعمامة على الطربوش.

وكان يختار الألوان الجميلة، والأقمشة الجيدة، وصار أخيراً يعنى باللون الأخضر، ويضع الطيلسان (الشال) على رأسه، لرؤيا رأى فيها النبي ﷺ.

وكان يعنى بنظام شعر رأسه ولحيته، وقد لُحظ دقة نظامه وحسنه، ويعنى بالطيب لا يفارقه.

والحاصل أنك تجد فيه شبهاً كثيراً بما ورد في شمائل النبي ﷺ، حتى قد رأى كثيرون النبي ﷺ في صورته، فكان إذا قيل له ذلك قال: النبي ﷺ معروف، لكن هذا بشارة بتحقق الاتباع له ﷺ إن شاء الله تعالى.

* * *

مجالس الشيخ

كانت مجالسُ الشيخ مجالسَ ذكرٍ لله تعالى وصلاةٍ على النبي ﷺ.

كان يرحب بزواره ويسألهم عن أحوالهم وأحوال الناس، ثم ينطلق في الحديث وغالباً ما كان يدور حول مواضيع الشمائل المحمدية، أو قضايا إيمانية، وكان يكثر أن يذكر والده الشيخ نجيب ويعدد مزاياه وفضائله وقلما يتحدث عن نفسه.

وكانت مجالسه محفوظة من الغيبة والنميمة. مرةً قال لأولاده: إذا كان غيبة أو نميمة لا تُسَمِّعونا، فما يُسمع في مجالسه غيبة أو نميمة قط. وكان يقول إذا دخلوا إلى غرفته هل من خبر سارٍ.

وكان يستقبل ضيوفه قديماً في غرفة الضيوف، ثم صار في السنوات العشر الأخيرة يستقبلهم في غرفة جلوسه، وهي غرفة متوسطة المساحة، قد أُعِدَّ فيها الكراسي اللازمة بصورة مستمرة، وكان يجلس دائماً على كرسي طويل، يستخدمه للاضطجاع استراحة أو للنوم، وكان كثيراً ما ينام متكئاً على ذراعه لا يستلقي، وكان يتوجه في جلوسه دائماً إلى القبلة، وقد أُعِدَّتْ له أَريكة كما وصفناها، وجُعِلَ لها رفوفٌ وُضِعَ عليها مجموعةٌ من المصادر الأمهات، تكون

في متناول يده وهو جالس على هذه الأريكة الطويلة، يتناول ما يريد من الكتب بسهولة ويُسر.

ومن المصادر التي كانت بجانبه دائماً: تفسير ابن كثير، وتفسير السراج المنير للخطيب الشربيني، والتسهيل لابن جُزَيّ، وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي وتفسير الآلوسي وغيرها.

وفوق هذه الأريكة التي يجلس عليها وفوق رفوف الكتب تُرى صورة بارزة للعيان، هي صورة كبيرة جداً للمواجهة الشريفة، جعلها فوقه عالية.

وكان الضيوف يجلسون عنده في الغرفة قريبين منه، يجلسون عنده وكأن على رؤوسهم الطير، لشدة جذبه للقلوب وتأثيره فيها، ولما أعطاه الله تعالى من المهابة والجلال والجمال.

وكان يراعي رحمه الله تعالى في مجالسه كل قومٍ وما هم عليه من الحال العام لانتمائهم إلى شريحة معينة من المجتمع، أو الحال الخاص بالشخص، وله في ذلك فراسة وكشف عجيب.

فمع طلاب العلم: (خاصة طلاب الشعبانية الذين كان يستقبل عدداً منهم كل فترة، وخاصة طلاب السنة الأخيرة) كان يُزَوِّدُهُم بنصائحه، ويبيِّنُ لهم فضلَ طلب العلم، ويحثُّهم على مداومة الاشتغال والتحصيل، وكان يحكي لهم كيف أنه تخلى عن الشهادة في الخسروية لمّا عُدِّلَت المناهج وتقرر إعادةُ الطلاب سنتين إلى الوراء، وكان يَذْكُر لهم إكرام الله تعالى له، وكيف كان تأتيه الطلبات للتدريس مِن مختلف مدارس حلب الشرعية، على الرغم من أنه لم يحصل على شهادة التخرج.

كانَ رحمه الله تعالى يذكر لهم هذه القصة لكي لا تكون الشهادة

همهم الأكبر، فإذا حصلوا عليها رفعوا كتبهم على الرفوف، وتركوا الطلب والتحصيل. وكان يَحُثُّ الطلابَ ويؤكد عليهم دائماً أن العلم لا ينفع إلا مع العمل، ويعظهم بأن الإنسان سيُسْأَلُ عن ذلك.

أما مجالسه مع الأساتذة والمشايخ: فقد كانت مجالسَ حافلةً بالقضايا الكبرى. وما يهم المسلمين من أمور الدين والعلم. وكان -رحمه الله تعالى- يحضُّ الأساتذة على الإخلاص ورعاية طلابهم وبذل كل ما يمكن لهم.

وفي مَرَّةٍ كان عنده مجموعة من الأساتذة الشباب، فصار يذكِّرُهم بضرورةِ قيامِ الليلِ، ولو كان في الحد الأدنى: ركعتين، وأكد عليهم ذلك تأكيداً شديداً، ثم قال لهم: إذا أنتم ما قمتم مَن يقوم الليل. وقال لهم: المسلمون الآن حالتهم ضعيفة.. وهم بحاجة إلى دعاءٍ ضارعٍ كثيرٍ.

وأما مجالسه مع التجار والأغنياء: فقد كان دائماً يذكرهم بأمور الزكاة ومساعدة الفقراء والمحتاجين، ويشدد عليهم في ذلك كثيراً، ويؤكد أمرَ الزكاة كثيراً جداً، حتى إن بعض هؤلاء كانت وجوههم تحمر وتتلوّن خجلاً لما يشعرون من تقصيرهم في هذا الميدان.

وكان الشيخ رحمه الله تعالى، يُرْجِعُ كثيراً من مصائب المسلمين في هذا الزمان إلى أن التجار الكبار لا يدفَعون الزكاة كما ينبغي ويجب، وكم من المرات الكثيرة يذكرهم وينصحهم، ويشدد على أمر الزكاة، والوعيد الشديد المخيّف لمن منعَها أو تهاون فيها.

وكان رحمة الله عليه يحارب إعطاء الزكاة للمساجد بشكل قوي جداً، ويعلن معارضته لذلك، ويناقش المخالفين، ويرد عليهم بالحجج الدامغة المفحمة.

وأما موقفه من الربا فهذا من المواقف المشهورة في حياة الشيخ، وكان يقول: «في هذا الزمان ما حدا إلا وقد أصابه بخار من الربا أو غبار، كما في الحديث الشريف...».

سئل مرة عن الاستدانة من البنك لأجل شراء بيت فقال: إذا لم يجد الشخص بيتاً بالإيجار ولم يمكنه السكن حتى صار إلى الخيمة في الشارع فعند ذلك له أن يستدين، والوزر يقع على المسلمين...

وكان من عادته أن يرشد من يريدون الحج إلى الأخذ بالرخص وخاصةً من معه نساء...

وكان دائماً يَذْكُرُ في مجالسه مشايخه ويثني عليهم ويدعو لهم، وخاصةً الشيخ أحمد الكردي (طبعاً ما عدا والده فهو دائم التذكر له). والشيخ عبد الوهاب مصري، حكى لنا كيف أنه حرصَ أن يحضر على الشيخ إبراهيم السلقيني والد شيخنا، وكان يُدَرِّسُ في الصف الثاني والشيخ في الأول، لكي يتبارك به لما كان يسمع عن فضله وورعه وتقواه، فترك صَفَّه لما جاء الشيخ نائباً عن ابنه وذهب إلى الصف الثاني، ليحضر حصة الشيخ إبراهيم السلقيني، وكان وقتها درس النحو. قال شيخنا: «فنحى ذلك النحو (العلوي)» أي انتقل إلى التصوف والخشوع كما كان عادته رحمه الله.

وكان إذا أراد ختم المجلس ختم بالصلاة على النبي ﷺ والدعاء، وكان يطلب إلى الزائرين الدعاء له بظهر الغيب، ويقول: تدعون لنا وندعو لكم، والمَلَك يقول: «ولك بِمِثْلٍ» ما في مِنَّة لأحد على أحد، لا أنا لي مِنَّةُ عليك، ولا أنت لك منة عليّ.

وكان هذا الاختتام بالدعاء يزيد طيب المجلس، وطيب نفس الزائر، لما في دعائه رضي الله عنه من المعاني العظيمة، ولما في حال الشيخ من التوجه والخشوع.

أخلاق الشيخ الإمام الكريمة

كان رحمه الله تعالى قدوة في المكارم والفضائل، متأسِّياً بصاحب الخلق العظيم ﷺ مقتدياً به، أمنيته أن يتحقق بهذا الاقتداء، يدعو به في كل مناسبة بضراعة من أعماق قلبه: «اللهم حققنا باتباع نبيك سيدنا محمد ﷺ ظاهراً وباطناً».

ولذا فإن مَن يدرس أخلاق الشيخ يستطيع أن يرى فيها شبيه ما يقرأ في الشمائل الكريمة، حتى قد وصف خلق الشيخ بين عارفيه بأنه خلق محمدي.

ونعرض للقراء الكرام وجازاتٍ عن بعض جوانب مهمة من ذلك فيما يأتي:

المحبة:

حب الله تعالى وحُبُّ رسوله ﷺ ظاهرة أولى عظيمة في أخلاق الشيخ رحمه الله تعالى، وهو المحرك الأساس والموجه لهمته وإرادته. وله في دروسه جولات وصولات في محبة الله ومحبة رسول الله ﷺ.

أما وجوب محبة الله تعالى فذلك لأن الله تعالى هو رب العالمين،

المتصف بجميع الكمالات والمحاسن التي لا نهاية لها، والمتصف بالجمال المطلق على وجه ليس كمثله شيء في ذلك كله، وَمِنَ المعلومِ قطعاً أنّ الكمالَ والجمال محبوبان لذاتهما.

كما أنه سبحانه وتعالى متصفٌ بالعطاء والكرم، والنّوَال والإنعام، بأنواع النعمة والإكرام، على جميع عباده، على وجه لا يُحصى ولا يُسْتَقْصَى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

فحُقَّ ووجب لمن له الكمال الذاتي، والجمال المطلق، والذي منه العطاء والإنعام والنوال حُقَّ له ووجَب أن يكون أحبّ إلى عباده من كل محبوب.

وكذلك محبة النبي ﷺ، فالواجب على المؤمن أن يكون رسولُ الله ﷺ أحبَّ إليه من نفسه ومن والده وولده والناس أجمعين، وذلك لأنه ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أرحم بهم، وأرأف بهم، وأشفق عليهم، وأحرص عليهم من أنفسهم، ومن آبائهم وأمهاتهم وأبنائهم والناس أجمعين، وقد أعلم الله عباده بذلك، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقد نص القرآن صراحة على وجوب محبة المؤمن لله تعالى ولرسول الله ﷺ محبة تفوق كل محبوب قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أصناف المحبوبات للإنسان من المخلوقات: الآباء، والأبناء والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال الكثيرة التي اقترفوها ـ أي: اكتسبوها وجمعوها ـ وتجارة ـ أي: تجارة عظيمة ـ من أمتعة أو أطعمة أو نحوهما،

اشتريتموها وبذلتم جهوداً وأموالاً كثيرة للحصول عليها، رغبة منكم في ربحها الكثير، فَأَنتم تخشون كسادها، ومساكنُ ترضونها ـ أيْ: تُعجبكم الإقامة فيها لسعتها وأناقتها، وزخرفتها، وإتقانها ـ.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه إنْ كان شيء من تلك الأصناف المحبوبة لديكم أو كانت بمجموعها: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: انتظروا ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ﴾ أي: بعقابه سبحانه وتعالى لكم عاجلاً أو آجلاً ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ.

ففي هذه الآية الكريمة دليل قاطع، وبرهان ساطع على وجوب محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، محبةً هي أعظمُ وأشدُّ من محبة كل محبوب.

روى الشيخان وغيرهما، عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وَمَن أحبَّ عبداً لا يُحبه إلاّ لله، وَمَن يكره أَنْ يعود في الكفر بعد أنْ أَنقذَه الله منه كما يكره أَنْ يُقذَف في النار».

وفي رواية: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أَنْ يكون الله ورسوله أَحبَّ إليه مما سواهما، وَأَنْ يُحبَّ في الله وَيُبغضَ في الله، وَأَن توقد نارٌ عظيمة فيقعَ فيها أحبُّ إليه مِنْ أن يُشرك بالله شيئاً».

وفي هذا الحديث دليل صريح على وجوب محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، على وجه أعظم مِن محبة ما سواهما، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يتحقق بذلك لم يجد حلاوة الإيمان وطعمه، لأنه ﷺ قال: «وجد بهنَّ حلاوة الإيمان وطعمه».

وإن زيادة العلم بالله تعالى وبرسوله ﷺ والتفكر في ذلك يزيد هذه المحبة، وقد توفر لشيخنا الإمام الحظُّ الأوفى منهما وذلك لأنه حفظ القرآن والحديث، وفيهما أسماء الله الحسنى، وفيهما صفات النبي ﷺ وفي القرآن تجلى الله لعباده، وفي الحديث مجلى كمال رسول الله ﷺ، ودَرَس التفاسير والشروح وتوسع فيها، كما توسع في الرجوع إلى كتب العارفين الذين يُعْنَوْنَ بهذا الركن الإيماني والأخلاقي العظيم.

ومن هنا نلفت الانتباه إلى تأمل هذه الجوانب لدى قراءة القرآن والحديث وتفسيرهما، لغرس مزيد المحبة لله ولرسوله في القلب.

كذلك فإن القدوة والصُّحبة مهمة جداً في هذا الباب، وقد أُتِيحَتْ له على أعلى مستوىً، بصحبة والده العارف الكبير، والعالم الإمام الشيخ محمد نجيب رضي الله عنه، صَحِبَه صُحْبَة تلميذٍ محبٍ متذوقٍ للمحبة، وببره والدَه بِرَّ ولدٍ متفانٍ في والده، ثم بالحرص على لقاء الأولياء والصالحين والجلوس إليهم والأخذ عنهم، وقد كان يرحل لأجل ذلك، فبلغ في هذا الباب ما لم يبلغ غيره، فحفلت دروسه بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله، كما أن كتبه أُلْبِسَتْ هذا الثوب، في أي موضوع كَتَب. كذلك اشتغل بالعبادة ليلَه ونهارَه بمختلف أنواع العبادات القلبية، والقولية والعملية والعلمية، حتى كان مجلسه ومجالسته يُغذّيان العقل والقلبَ بمحبةِ الله تعالى ومحبة رسول الله ﷺ.

وكان رحمه الله كثير التوجيه إلى الإكثار من الأذكار والاستغفار، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار ﷺ، ويطلب من الخطباء والأساتذة أن يبذلوا ما في وسعهم لأجل تحبيب الناس بالنبي ﷺ، ويقول: «معلش، خلٍّ يقولوا: إننا مجدوبون في النبي ﷺ» ويستشهد بقول الشاعر:

إذا الله أثنـى بـالـذي هـو أهلـه   عليه فما مقدار ما يمدح الورى

ومن هذه المحبة انصبغت أخلاقه بالصِّبغةِ المحمدية، مما يجعل دارس كتابه في الشمائل يجده متخلقاً بأخلاق المصطفى ﷺ، كيف وكان من دعائه الدائم: «اللهم حققنا باتباع نبيك سيدنا محمد ﷺ ظاهراً وباطناً. اللهم عطف علينا قلب نبيك سيدنا محمد ﷺ». اللهم آمين لنا كذلك يا رب العالمين.

التواضع:

كان شيخنا مع إبائه لين الجانب، جمّ التواضع، بعيداً عن حب الظهور وعن الدعوى، إذا مُدِحَ أو ذكرت له رؤيا أو كرامة تنصل، وحمد الله، وتوجه بالدعاء.

ومن تواضعه أنه كان يصغي لكل من يقصده لحاجة، يستمع إليه ويساعده، وما أكثَرَهم.

بل إنه كان في بادىء أمره في حدود الخامسة عشرة من عمره وهي فترة زهو، ووالده عزيز الجناب، رفيع المقام، تهتز البلد لكلمته، كان منذ تلك الأيام يطوف بنفسه على الفقراء ينظر أمورهم، ويعطيهم المساعدة.

ومن ذلك جولة قام بها قبيل الحرب العامة الثانية حيث اجتاحت حلبَ مجاعة وشدة، فتبرع بعض الأغنياء الصالحين بمبلغ عظيم، هو الحاج محمد ططري رحمه الله، فندب شيخنا الجدُّ ولدَه لهذا الأمر، وأرسل معه من يساعده، ووضع لهم خطة العمل، أن يبدأ بحثهم في كل حي من مختار الحي، ثم يذهبون إلى البيوت ينظرونها ويقدمون المساعدة، وأن يُعْنَوا بمن كان من أهل العلم، فرأى عجائب من الفقر، وكان لجولته أثر عظيم، وتوجهت القلوب بالدعاء الضارع

للشيخ محمد نجيب، وسجل الثواب عن ذلك لولده شيخنا كذلك. . .

وهكذا تأصلت فيه الرحمة والتواضع، فكان عطوفاً جداً على الفقراء، لا سيما الذين هم من أسرة عالم، وجعل ذلك من المهمات الأساسية لجمعيته جمعية التعليم الشرعي، وله في ذلك مآثر عجيبة جليلة.

كذلك تواضعه للطلاب ورِفْقُه بهم، فإنه عَجَبٌ من أمور الإدارة، ذكرنا نبذة عنه.

ومن تواضعه قيامه بما يلزم لنفسه بنفسه، وقد يكون حوله أهله وأولاده أو غيرهم، فما يشعرون به إلا وقد نَهض لإحضار شيء، أو كأس ماء أو غير ذلك، فكلهم يقول لو أمرتنا ولم تتعب نفسك، فيأبى إلا أن يخدم نفسه بنفسه اقتداء بالنبي ﷺ.

وربما يكون عنده بعض أحفاده، وقد أراد عمل شيء وذلك بعد ما ضعفت صحته كثيراً، فيقول لحفيده بغاية اللطف: بالله، يا فلان افتح الشباك، أو أغلق الستارة (البرداية) أو نحو ذلك!!.

ومن تواضعه رحمه الله تعالى تركه ادعاءات الوصول والتوصيل التي لهج بها آخرون، وبالغ بعضهم، حتى جعل الوصول عنده إلى الله تعالى محدوداً بثلاثة أيام!!.

وقد سمعته مراراً كثيرة، يردد هذا البيت من الشعر:

وبالعُلماءِ العاملين وعلمِهم   وبالأولياء السالمين من الدعوى

وكم جَرَّتِ الادعاءاتُ إلى مجادلات ثم إلى تسويغات، وكم أدت إلى زيادة منافسات، وما لا تحمد عُقباه. فليحرص المسلم عامة وطالب العلم خاصة على التواضع والخشية لله، وليذكر قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وكان جدنا الشيخ محمد نجيب رحمه الله يكثر من قراءتها، فلما جلست إليه مجلساً لم أسمعها منه فيه، ويقول أحياناً معقباً: «ما صار الأنبياء أنبياء ولا الأولياء أولياء... إلا بفضل الله تعالى».

اللهم تفضل علينا.

إنك تجد هذا التواضع الجم تجده عند شيخنا مع ما عنده من العلم، وماله من أعمال يجيز له ادعاءات كثيرة وكبيرة، لكنه رحمه الله تعالى لم يفعل شيئاً من ذلك، بل يقول: أنا معلم للقرآن والحديث، أنا خادم صغير على الأعتاب، ويشير إلى صورة المواجهة الشريفة الكبيرة المعلقة فوقه، فرفعه الله تعالى على الكل رحمه الله تعالى.

وكان إذا ذُكِرَتْ له كرامة أو رُئِيَتْ له بشارة، تنصل، وقال: نحن لسنا أهلاً لذلك، ولكن نرجو الله تعالى أن يَمُنّ علينا، وربما أجاب بقول: «الحمد لله» لا سيما في السنين الأخيرة، كأنه يشير بتواضعه إلى الافتقار لربه، وبالحمد إلى التحدث بنعمته.

كرمه وجوده:

شيخنا كما هو المثل «كريم ابن كريم» و«جواد ابن جواد» شَابَهَ أباه الإمامَ الشيخَ محمد نجيب في الكرم، كما قال الشاعر قديماً:

شَابَهَ عَدِيّ أبَهُ في الكرم ومن يُشَابِه أبَهُ فمَا ظَلَم

كان رحمه الله تعالى كثير البذل، لا يرد من يسأله، ويحض على البذل كذلك، وأن يتبرع الإنسان ولو بالقليل، وكان لا يطرق بابه سائل إلا يعطيه عطاء جزيلاً، يسلمه له بيده إن لم يكن مانع يمنعه من القيام إليه، وكثيراً ما يأتي السائل المحتاج الشيخَ في الطريق، ولا يكون معه ما يناسب حاجته، فيقترض ممن حوله، فيقولون نحن ندفعها من عندنا، فيأبى، ويقول: لي فيه نية.

ومرة دخل سائل غرفة الأساتذة في الشعبانية، وفيها الشيخ وبعضُ الأساتذة والزوار، وكان في السائل جذب، فمد يده للسؤال، وأعطاه الشيخ وبعض الحاضرين، فعاد يسأل، فأعطاه الشيخ، ثم سأل أيضاً فلم يجد شيخنا ما يعطيه، فاقترض ممن بجانبه أكبر قطعة نقد آنذاك، وهي مائة ليرة، تعدل مبلغاً كبيراً الآن، فقال الرجل: بل أنا أدفعها من نفسي، قال الشيخ: لا، أنا نويتها، وأعطاها الشيخ بيده هذا السائل، فعند ذلك انصرف.

وكان رحمه الله دائم الإرسال للهدايا الكثيرة إلى الأقرباء، كذلك الأصدقاء، وإذا عاد من سفر عُنِيَ بالإهداء جداً، ومن لا يعرف ذلك يعجب من كثرة حقائب السفر التي مع الشيخ، وهذه سياسته في إكرام الأساتذة والموظفين، كذلك الطلاب، ولا سيما في المناسبات، عنوان جوده وسخائه، ولو كانت من الجمعية، فإن البخيل لا يستطيع البذل، ولو من مال غيره.

وكان يقول: أتمنى أن يكون لي مال كثير لأُعلِّم الأغنياء الكرم.

وكتب ابننا محمد مجاهد رحمه الله: قال لي جدي مرة: أردتُ لو كان عندي سعة من المال فأبني جامعاً. فجاءني هاتف سمعته يقول لي: أنت بنيت جوامع.

قلت: أي والله، وأي جوامع! إن الجامع من دون إمام أو خطيبٍ كفءٍ ليس جامعاً محققاً للمقصود. لقد عمر الشيخ جوامع كثيرة بأهل العلم والتقوى الذين رباهم ونشَّأهم لتعمر بهم بيوت الله تعالى.

ومن لطيف أخبار كرمه أنه لما طبع كتابه (الصلاة على النبي ﷺ) وجاءت النسخ إلى حلب كان الشيخ متأهباً للسفر للعمرة سنة ١٤٠٥، وجاء الناس يسلمون عليه، وصار يهدي من الكتاب كل من يسلم عليه، حتى بلغ إهداؤه نحو /٥٠٠/ نسخة.

وللشيخ في البذل والسخاء فضائل كثيرة، حسبنا هذه الإشارة إليها.

صبره:

والصبر مرتبة عليا ذكرها الله في كتابه بثناء عظيم، وأثنى عليها رسول الله ﷺ.

وحسبنا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصبر صبران: صبر لله تعالى فيما أمر، وصبر على تحمل المكاره.

وقد صبر شيخنا لله تعالى فيما أمر، فلزم اتباع المصطفى ﷺ، في كل شيء، حتى النوافل والمستحبات، وترك خلاف الأولى.

وصبر على إيذاء المختلقين عليه، من منافسين وغيرهم، فلم يحقرهم، ولم يبادلهم بمثل ما فعلوا أو قالوا. إنما قام بواجب الشرع بتصحيح ما أخطؤوا، مستدلاً بالحجة والبرهان من كلام الله تعالى، وحديث رسول الله ﷺ. وقال: أنا أحتكم فيهم لرسول الله ﷺ، كما ذكرنا.

ومن صبره تحمله هجوم المتشددين المغالين ضده كما سبق ومواجهته لهم إذا لقي أحدَهم بالهدوء، وكانوا يتحاشون لقياه لأنه يَحُجُّهم، وقد لقي بعضَهم في مناسبةٍ ونصحه بقبول الاعتدال، واغتنام إقبال الناس على الدين، كما سبق أن ذكرنا.

وأما صبره على المكاره، فقد واجه فَقْدَ والده بكل قوة وتَحَمُّل، كما صبر لموت والدته، ثم كان صبره عظيماً لفقد حفيده ولدِنا الدكتور محمد مجاهد رحمه الله تعالى في الحادث المروع، وكان تعلقه بالشيخ عظيماً، وحب الشيخ له حباً جماً، فصبر، بل إنه عزّانا وواسانا بما يخفّف ألم المصيبة عنا.

كذلك سبق أن آذاه بعض من له رابطة انتساب إليه بقرابةٍ إيذاءً شديداً، وذهبنا لزيارة الشيخ بهذه المناسبة، فلم يتأتّ لنا القول المناسب لهيبة الشيخ في نفوسنا، فصار هو يتكلم بما يعزّي النفس، ويخفّف عنها.

ومن الصبر الذي يجب أن يُذكر تحمل آلام الفتق البريطوني، وإرجاءُ العملية لإصلاحه، لأن فيه كشفَ العورة، فتحاشى ذلك، وتحمّل ما يسببه من آلام، وكثيراً ما كانت شديدة، من دون أنْ يظهرَ أي شكوى، إلا لسبب، مثل الاعتذار عن استقبال ضيف، وكان يلحظ أهل البيت هذه الآلام بآثارها بادية على وجهه، وهو صابر لا يشكو.

كذلك تحمل بسبب الفتق تغيير نظام طعامه، والاقتصار على طعامٍ خفيف يُصنع له من الكوسا، والطعامُ أمامه بأشكاله، بل ربما وجدَ أهلَ البيت يتحرّجون من هذا التباين، فيقول مؤانساً لهم: هذا (أي طعامهم) طعام العُبّاد، وهذا (أي طعامه) طعام الزُّهّاد.

وإن في هذا لعبرةً عظيمةً لرجال ونساء يكشفون عوراتهم، وتظهر المرأة عورتها للرجال لسبب غير مقبول شرعاً، مثل إسقاط الحمل، أو غير ذلك. أو لغرض ترفيهي تجميلي!.

فاعرف أخي القارىء حرمة أحكام دينك وراعِها، ولا يَستَخِفَّنّك المتساهلون في أمر هذا الدين، وحُكْمِه المتين.

ومن صبره رحمه الله أنه في السنين الأخيرة زاد وهنه بسبب تقدم السن، فكان إذا سألناه عن صحته قال: الحمد لله، ثم يقول: كان والدي يقول إذا سئل عن صحته: «الحمد لله على هذه الصحة، صحة اختيارية». أي صحة كبير في السنِّ، ويقول شيخنا: يعني أن الشيء إذا وقع على قانونه لا يُستغرب.

وكان إذا اشتدت به الآلام فزع إلى الصدقة، والتقرب إلى الله بالذبائح، يتوسل بها إلى الله للشفاء، وفي سنة ١٤١٤ هـ في شوال= ٢٢/٣/١٩٩٤م، عراه تشنج وآلام، فذبح ثلاث ذبائح، وزعها كلها، فخف عنه الألم وأسرع له الشفاء ولله الحمد.

لقد تحقق رحمه الله بالصبر بأنواعه، امتثالاً لأمر ربه، وابتغاء أجره ومثوبته: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ثقته بالله وتوكله عليه:

الثقة بالله والتوكل عليه من ثمرات الرسوخ في الإيمان بالله تعالى، وأنه الفعال لما يريد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي مواليهم وناصرهم، وأَمَر الله نبيه ﷺ بالتوكل فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣] وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

ولفضيلة شيخنا رحمه الله تعالى في هذا سبق عظيم ومواقف يَقْتَدِي به فيها من أراد سلوك هذا الطريق.

وأول ذلك تأسيس جمعية التعليم الشرعي في ظروف صعبة. ثم افتتاح مدرسة التعليم الشرعي ومواجهة المعارضين المنافسين.

ومن ذلك اقتصاره في التبرعات على ما يُقَدَّمُ من حلب وبلاد سورية فقط، لا يقبل من جهة أخرى، وفي بعض السنين من قديم، بذلت جهات متعددة عربية مسلمة من خارج سورية مساعدات للجمعيات، فكلهم قبلوا، ورغب أعضاء الجمعية بالموافقة لمصلحة الجمعية، وتفرد الشيخ برأيه بالرفض، ونفذ ذلك، ثم ظهر للجميع

غاية الحكمة والسداد فيما رآه، عليه رضوان الله.

وأعظم من ذلك أنه في شدة الأزمة (سنة: ٨٠ ـ ٨١) جاءه من يعرض في المدينة المنورة مساعدات فأبى واعتذر، وقال: أنا عندي مال لست بحاجة، ولا أقبل للجمعية شيئاً. ورفض أي مساعدة، فأكرم الله تعالى الجمعية، ويسّر لها أمورها، ببركة توكل الشيخ وثقته بالله تعالى.

وكان من دعائه رحمه الله تعالى: «الله لا يقطعنا ولا يمنعنا».

بره بوالديه:

وشيخنا مثال يُحتذَى في هذا الباب، بل لا نعرف له مثيلاً، في بره بوالديه وهو صغير، ثم هو شاب، في تحمل الكبير في كبره وتغير حاله، وفي حله وترحاله، وفي حجته الأولى بخدمة والده، ثم الثانية بخدمة والدته، وتقبيل رجلها مغافلاً لها، وهي تمتنع رحمة الله عليه وعلى والديه أجمعين.

وليس نعرف برّاً مثل بره بوالده، فقد ظل يلهج بالعرفان له بالجميل وينسب إليه كل عمل، وكل مأثرة وكل مجد، إلى آخر لحظة في حياته فالمدرسة مدرسة الشيخ نجيب، والعلم علم الشيخ نجيب، والعمل للشيخ نجيب، والشيخ نجيب أمره عجيب، الشيخ نجيب حجة الإسلام، الشيخ نجيب إمام المسلمين، ويشرح كل واحدة، ويعلق عليها، ويقول عن نفسه إنه واسطة عن أبيه الشيخ نجيب!!.

مع أنه كما يرى من عرف والده سبق والده وقرر ذلك لي فضيلة الشيخ السيد محمد الفاتح الكتاني أمتع الله الأمة به، في لقاء قريب بعد وفاة شيخنا، وقال: إنه سبق والده لكنه يكتم ذلك تواضعاً، وتأدباً مع والده.

ولمناسبة بر الوالدين أذكر يوماً وجدته فيه مغضباً، قال: هذا فلان: شخص من خريجي الدراسات الجامعية يقدم أبوه الشاي لضيوفه وهو جالس يتبسم، كيف يكون هذا طالب علم!..

فليعرف كل مسلم حق والديه، ولا يغتر بما قد يكون له من فضل، وقد لحق الدمار أناساً أعرفهم افتخروا بأنفسهم على والديهم وهم أموات منذ زمن، فحل بهم البلاء.

وأقول: الابن حسنة في صحيفة أبيه، فاعرف ذلك، وفقني الله وإياك.

وكان الشيخ رحمه الله على غاية البر بوالديه لما كبرا، فلما قعد والده في البيت بسبب كبر سنه لزم الشيخ خدمة أبيه ما استطاع، حتى كان الأب لا يعرف في آخر أيامه إلا عبد الله، يلهج بذكره ويدعو له.

ثم بعد موت والده بمدة انتقلت والدته وسكنت معه، لبيع الدار التي كانت تسكنها منذ حياتها الأولى مع ابنها الأكبر، فأنزلها شيخنا عنده في أحسن غرفة وهيأ لها ما يلزم لاستقلالها، ثم خصص لها كل يوم وقتاً يمكث فيه عندها يؤانسها، وهو وقت ما بين المغرب والعشاء، إضافة لسلامه عليها كلما دخل الدار أو خرج، وسؤالها عما تحتاج، وكان يُدْخِلُ لها الطعام بنفسه، لا يترك ذلك لأحد غيره. وهذا التخصيص لوقت والاطلاع على الوالد أو الوالدين المساكَنَين يغفل عنه الأبناء كثيراً، مما يؤدي إلى سوء الظن، وتَوَهُّمِ نسيانهما بسبب الزوجة، فتسوء العلاقة.

ولما اضطر للسفر إلى المدينة المنورة بسبب الأحداث (سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢م) تردّدَ مرات وهو يوصي بها، وبعد سفره بنحو ثلاثة أشهر توفيت، فخافوا أن يخبروه في يومها، وإذا به يراها في الرؤيا ويعرف كل شيء، وتأتيه البشرى من والدته نفسها بحسن حالها،

وتقول له: لماذا تخافون من الموت ليس في الموت ما يخيف، أنا أُعطيت بيتاً ومفتاحاً له كلما أردت خرجت وذهبت أنى شئت ثم رجعت. فأصبح حزيناً، وبادأ أهله هو بالخبر.

عبادته:

العبادة والعبودية والعبدية شغل الشيخ الشاغل، بحثاً وعلماً، وترغيباً، وشرحاً لمقامات كل منها، وعَملاً مجتهداً آناء الليل وآناء النهار.

كانت أوقات شيخنا كلها عامرة بعبادة الله تعالى، مشغولة بالتقرب إلى الله، وكتابه (التقرب إلى الله تعالى) بيان نظري، وأيضاً فإن عمر الشيخ هو برنامج عملي للتقرب.

فقد عني بأداء الفرائض عليه (الفرائض الدينية المعروفة من الصلوات الخمس) والصوم والزكاة والحج، وصلة الرحم، والتزام مكارم الأخلاق والفضائل والمكارم، وأداء حقوق العباد ومراعاتها، وكان حذراً في أدائها.

وأحكَم أداء هذه الفرائض، ليحقق حديث الأولياء: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه».

ولكي تعمل بهذا عملاً صحيحاً، فانظر كلام شيخنا إذ يقول في كتابه[1]: «التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بما شرعه الله تعالى، فإن شريعة الله تعالى هي الطريقة الموصلة إلى قربه وحبه سبحانه وتعالى، ومن المعلوم في اللغة العربية أن: الشِّرْعة، والشريعة هي الطريقة قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) التقرب إلى الله تعالى ص ٥٢ ـ ٥٧.

فالتقرب إلى الله تعالى هو القيام بما أمر الله تعالى به شرعاً، وترك ما نهى عنه، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

فبالسجود لله تعالى يكون الاقتراب إليه.

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[(١)].

وهكذا الصلوات والصدقات والصيام والحج وجميع الأوامر الشرعية ـ كلها قربات يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، وكلها عبادات يقوم بها العبد أداءً لحق الله تعالى عليه كما قال ﷺ: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» الحديث[(٢)].

وإن تلك العبادات، وتلك القربات التي شرعها الله تعالى هي على نوعين: فرائض ونوافل.

فالقائم بجميع الفرائض: له مقام قرب الفرائض، والقائم بالنوافل فوق الفرائض: له مقام قرب النوافل، وهو أرفع وأفضل من الأول، والدليل على ذلك هو ما يلي:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: مَنْ عادى لي ولياً فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرَّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افْتَرَضْتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي

---

(١) متفق عليه.

(٢) تتمة الحديث: «ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال أن لا يعذبهم» رواه البخاري ومسلم.

يسمعُ به، وبصَرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعْطِيَنَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه» الحديث.

فدلنا هذا الحديث على طريق التقرب إلى الله تعالى، كما دلنا على أن القرب، على مقامين، وكل مقام هو على منازل متفاوتة، ودرجات متعددة:

فهناك مقام قرب الفرائض وهو المطلوب أولاً، وذلك بأن يؤدي العبد جميع ما فرض الله تعالى عليه، وما أوجبه عليه كاملاً موفراً، ويدخل في ذلك ترك جميع المحرمات.

وهناك مقام قرب النوافل، والنوافل هي الزيادات على الفرائض، ولا تتحقق النافلة وتعتبر زيادة على الفرائض والواجبات إلا إذا كملت للعبد فرائضه وواجباته، كماً وكيفاً، فتعتبر الزيادة عند ذلك نافلة.

وأما إذا كانت الفرائض أو الواجبات ناقصة، فإن النوافل تعتبر مكملة لذلك النقص، وليست بزيادة عليها، وحينئذٍ لا تعتبر نافلة، ولا تأخذ حكم النافلة، لأن النافلة في اللغة العربية هي الزيادة على أصلٍ.

وبناءً على ذلك، فكم من متنفلين ظاهراً ولكن في الحقيقة لا نافلة عندهم، لأن فرائضهم التي يؤدونها ناقصة، فنوافلهم هي جوابر ومكملات، وليست بنوافل وزيادات.

روى أصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولَ ما يُحاسَبُ عليه العبدُ يومَ القيامة من عمله الصلاة، فإنْ صَلَحَت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقصَ من فريضته شيئاً قال الله تعالى لملائكته: انظروا

هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك».

فالنوافل تكمل نقص الفرائض، فإذا كانت الفرائض كاملة ليس لصاحبها نوافل فإنه في المقام بقرب الفرائض، وهذا مقام أصحاب اليمين، ويقال لهم المقتصدون، ويسمون الأبرار، عند مقابلتهم بالمقربين، فافهم كما تقدم وَبَيّنا ولا تخلط بين المراتب لسوء فهمك.

واعلم أن مقام قرب الفرائض لا يكمل للعبد إلا إذا أدى جميع الواجبات، وانتهى عن جميع المحرمات، ولذلك يجب على المكلف أن يتعلم ما أوجبه الله تعالى ليؤدي تلك الواجبات، كما يجب عليه أن يتعلم ما حرم الله تعالى عليه ليجتنبه.

فمن المسلمين من يظن أن الفرائض الإسلامية هي خمسة لا غيرها، وهي الخمس الواردة في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان».

فيظن بعض المسلمين أن تلك الفرائض الخمسَ هي الدين كله، وذلك من جهله في أمور دينه، أو اغتراره بنفسه أو ماله.

فيقال له: إن هذه الفرائض الخمسة هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها، وهي متعينة على كل مكلف بأدائها.

ولكن هناك فروض وواجبات إسلامية غيرها، وهي كثيرة ولا يتحقق العبد بمقام القرب إلا بأدائها كلها.

فمن ذلك: أداء حقوق العباد المالية والثابتة في الذمة والتي دخلت عليك من غير طريق شرعي، والعدل في المبادلات المالية

والمعاملات دون ظلم، ولا بخس حق، ولا غش، ولا تطفيف كيل ولا نقص وزن، ولا تدليس عيب، ولا قول كذب، ولا خيانة أمانة، ولا إخلاف في وعد، ولا نقض عهد، ولا رجوع عن عقد بعد إبرامه دون خيار.

ومن الواجبات **إغاثة الملهوف**، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وصلة الرحم، ورد السلام، وحسن اللقاء، ومعاملة الناس بخلق حسن، والنصيحة لعباد الله تعالى، وحب الخير لهم كما تحب لنفسك.

ومن الواجبات: حسن القيام بحقوق الزوجية الواجبة على الزوجين قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والملاطفة في المعاشرة الزوجية، وحسن الجوار، والبعد عما يؤذيهم.

ومن الواجبات الإسلامية: **تحسين الظن بالمسلمين** ما لم يشاهد منهم غير ذلك، والستر على العصاة المستترين، والنصح لهم مع الدعاء لهم بالعافية من ذنوبهم.

ومن **الحقوق الواجبة على الإنسان**: **حقوق الحيوانات**: فيجب على الإنسان الرفق بالحيوان، فلا يجيعه، ولا يوجعه، ولا يتعبه، ولا يزعجه، ولا يحمِّله فوق طاقته، ولا يؤذيه بنفسه، ولا في أولاده، سواء في ذلك البهائم والطيور وغيرها.

روى الإمام أحمد وغيره عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «لو غُفِر لكم -أي: لو غفر الله لكم- ما تأتون إلى البهائم، لغفر لكم كثيراً». أي: لأنكم قد تغفلون عن أداء حقوقها.

ومن **الفرائض الإسلامية**: **إبعاد النفس عن المحرمات** وهي كثيرة،

فمنها: الربا، والزنا، والخمر، والميسر، والغصب، والظلم، وشهادة الزور، واليمين الغموس، وقول الزور، وانتهاك الأعراض بالقذف ونحوه، والسباب، والتعيير، والتفسيق، والتبديع، والتكفير من غير دليل قطعي ثابت شرعاً، وتتبع عورات الناس وزلاتهم وأخطائهم وهفواتهم.

والسب، والشتم، واللعن، وكشف ستر المسلم، والغيبة، والنميمة، وسوء الظن، والسخرية بعباد الله تعالى واحتقارهم، والتكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والغرور، وحب الظهور، والمفاخرة أو المكاثرة بالمال، وحب المال، فإن ذلك يفسد دين صاحبه، قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

فحب المرء للمال والفخر والظهور وحرصه عليهما يفسد عليه دينه، أعظم من إفساد ذئبين جائعين أرسلا في غنم قد غفل عنها راعيها.

فإذا كملت الفرائض، وأتى صاحبها بنوافل متعددة كثيرة، فإنه يرتقي إلى مقام قرب النوافل، وهو مقام السابقين بالخيرات، المقربين قرباً خاصاً.

وهذا المقام له خصائصه وكراماته وفضائله، فمن ناله نال تلك المكرمات والخصوصيات، وذلك أنه يرتقي بصاحبه إلى مقام المحبوبية الخاصة، كما جاء في الحديث القدسي الذي تقدم: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ـ وفي هذه الصيغة من الكلام ما يدل على الإكثار من النوافل ـ حتى أحبه». وفيهم يقول سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وإذا انتهى العبد وارتقى إلى مقام قرب النوافل الذي تثبت له فيه

المحبوبية، نال خصوصياته ومكرماته كما جاء في الحديث:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه». انتهى كلامه.

وقد أحكم شيخنا رحمه الله تعالى فرائضه كلها، وعُنِي كذلك بالنوافل:

فكانت أوقاته كلها عامرة بالعبادة: صلاة الضحى، وسنن الصبح والظهر والعصر، والصلاة المشهورة بالأوابين فيما بين المغرب والعشاء، وقيام الليل، فأي ليلة نظره الإنسان وجده قائماً آخرها، وربما اضطررنا لطرق الباب عليهم أواخر الليل بسبب ولادة أو شيء فنجده جالساً، مشتغلاً بالصلاة، أو مشمراً لوضوء قيام الليل، وكان يُذَكِّرُ ويحضُّ بقوة على قيام الليل، خصوصاً عندما يطول الليل بعد انصرام الصيف، لاغتنام طول الليل، ويرغب من لا يستطيع القيام آخر الليل أن يصلي آخر سهره قبيل النوم، فهذه من صلاة الليل.

وكان رحمه الله تعالى مكثراً بصورة مستمرة من قراءة القرآن، وهو حافظ متقن ماهر، ومن دأب الحفاظ الختم كل ستة أيام أو كل أسبوع، وقد سبقهم الشيخ رحمه الله، خصوصاً لَمّا اعتزل في البيت، فصار يختم القرآن كل ثلاثة أيام، عملاً بالحديث.

وكان رحمه الله تعالى دائم المطالعة لكتب العلم، ولا سيما التفسير والحديث، وخصوصاً المطولات، ويراجع في المسألة جملة كتب ليحقق بحثها، تحضيراً لدرس أو لتأليف كتاب. وهذا عبادة عظيمة.

وكان رحمه الله تعالى مكثراً من الصلاة على النبي ﷺ بصيغة

الإبراهيمية المعروفة، والصلاة العظيمية، وصلاة: «اللهم صل على اللهم صلٍّ على سيدنا محمد مفتاح خزائنك، اللهم افتح لي به ﷺ ما أغلق عليّ، اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً».

ويوصي بالصلاة الإبراهيمية لتوسيع ما ضاق وتفريج الكرب.

وسألته مرةً لماذا يختار العلماء صِيغاً للصلاة على النبي ﷺ، مع أن الصلاة الإبراهيمية أفضل فقال: هي أفضل، لكنهم يضمنون في صيغ الصلاة على النبي ﷺ أدعية(1).

وقد وجدت بخطه في أثناء إعداد هذه الطبعة الثانية هذه الصيغة المباركة:

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، صلاة تفتحُ لنا أبوابَ الرضا والتيسير، وتُغْلِقُ بها أبوابَ الشر والتعسير، أنت مولانا، فنعم المولى ونعم النصير». وكتب تحتها «العدد ١٠٠٠ مرة في الثلث الأخير ليلة الجمعة». انتهى.

وكان رحمه الله تعالى يكثر من أنواع الذكر: التهليل، الاستغفار، التسبيح، التحميد.. وكان الناس حتى أهل العلم. يسمعون منه من صيغ الأذكار والأدعية ما تهتز له قلوبهم، لا يعرفونها، ولا سيما ما سمعناه منه في أواخر عمره المبارك.

وكان يأمر أن لا ينقص الإنسان المبتدىء كل يوم عن مائة مرة التهليل، أي لا إله إلا الله، ومائة استغفار، ومائة صلاة على النبي ﷺ، وغير ذلك مما بينه في كتابه (أدعية الصباح والمساء).

---

(1) أقول للقراء: لزم النبي ﷺ في حجته تلبيته، وهي الصيغة المعروفة، ولبّى الناس بما حضرهم فلم يردّ ﷺ عليهم شيئاً، فلا داعي لإثارة الجدال.

ورعـه:

وأما ورعه فكان يأخذ نفسه بالعزائم في العبادة والمعاملة.

أما في العبادة: فحال خشوعه فيها ظاهر جلي، من لفظه بالقراءة وحركاته وظهور تأثره، كما أنه تمسك بآدابها ونوافلها، مثل قيام الليل وصلاة الضحى، وغير ذلك من أدعية وأوراد، وغير ذلك، وقد سبق بيانه.

وكان رحمه الله تعالى يحذر الغيبة ويبتعد عنها، ولا يقبل سماعها، ولو فيمن ينافسه، وكان يحتاط في الفتوى، فكثيراً ما يُسْأَلُ عن الشيء فيقول: اتركها حتى أراجع، أو يقول لننظر فيها.

وأما المعاملة: فكان يترك ما فيه شبهة أو كراهة أو خلاف ويبتعد عنه، بل بلغ أعظم من ذلك، ولا أنسى يوم دخلت داره في شارع حول القلعة (منذ قرابة ٢٥ عاماً) فإذا في البيت (شوالان كبيران مليئان بالصابون) يزن كل واحد مائة كيلو غرام، فسألت، قال: هذه حصةٌ من شركتي مع فلان ـ سماه لي ـ شاركته في طبخة صابون، وربح مائة بالمائة، ويريد أن نستمر معه (يعني لما رأى من البركة). قلت: هذا جيد، وتزيد المال المشارك. قال: لا، لن أستمر معه. فعجبت وسألته، فأشار إلي بتخوُّفه أن يذكر التاجر ذلك للناس لغرض في نفسه مثل اجتذاب الناس، والزبائن، كما فعل أهل تجارة أخرى مع بعض المرشدين، ولم يبال صاحب الاسم !!.

ومن ورعه أنه كان لا يعطي موعداً لزيارته قبل وقت طويل، لأي شخص كان من قاصدي زيارته، وخصوصاً في السنين الأخيرة، ويلحظ في ذلك الاحتياط أن يقع له مانع طارىء يمنع من استقبالهم، فيقع في شبهة الإخلاف للوعد، وربما قيل له: يا سيدي نأخذ

الموعد، ونأتي، وليس هناك أي حرج إذا لم يتيسر لكم الأمر، فيأبى. وهذا احتياط منه رضي الله عنه أن يقع في شبهة إخلاف الوعد فضلاً عن صريح إخلاف الوعد.

وهكذا كان يتوقى الشبهات بشدة، عملاً بالحديث الصحيح المشهور: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

وكان في هذا الباب ـ كما هو شأنه كله ـ ذا عزيمة لا تُفَلّ، لا يغير نيته إطلاقاً.

ولحظت من قديم معرفتي به أنه إذا احتاج لأخذ شيء من الأرض وهو قائم، أو أراد لبس الحذاء لا ينحني، بل يجلس القرفصاء، فسألته فقال: هذا مثل الركوع.

خشوعه:

الخشوع وصف المفلحين، فكيف لا يكون وصف الكاملين في العبادة والتقرب إلى الله تعالى.

وقد كان شيخنا يبصِّر الناس بالخشوع ومراتبه، ومن ذلك التفريق بين الحضور والخشوع، فالحضور مفتاح الخشوع وبابه، ومعناه تفهم ما تقرؤه في صلاتك من قرآن وذكر وتسبيح... الخ. وأما الخشوع فهو الخشية والهيبة من الله تعالى.

فكانت خلجات جوارحه في صلاته وذكره تنبىءُ عن خشوعه، كذلك تصعيدُ بصره وتصويبُه، بل كانت نبرة صوته توقع الخشوع في قلب سامعه، لا يذكر الله إلا خاشعاً، ولا يذكر النبي ﷺ إلا مصلياً عليه معظماً مقامه، من غير ما تعجيل فيها، ولا ملل من تكرارها، أو قلة تأثر بسبب تكرارها، أو تكرار أي ذكر غيرها.

وفاؤه:

كان رحمه الله تعالى يوصي بالوفاء في دروسه ومجالسه، وسمعته مراراً يذكر حديث إكرام النبي ﷺ امرأةً جاءته إكراماً خاصاً، وأنه سئل فقال ﷺ: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

فكان الشيخ يبر من له حق عليه، ويكرمه، ويحترم ويكرم أصحاب والده، ويبَرُّ مشايخه كثيراً، فكان شيخُه الشيخ عبد الوهاب المصري إذا دخل عليه قام لأجله، وأجلسه بجواره، وأشاد به، وربما كان ذلك في جمع حافل مثل استقبال الزوار يوم العيد، فكان إذا حضر شيخه في هذا الجمع الحافل والزحام أمر بالتوسيع له، حتى يجلسه بجواره، ويشيد به، ويعرف الناس به.

كذلك كان يوقر شيخه فضيلة الشيخ محمد السلقيني، شيخنا أيضاً رحمهما الله تعالى، فيستقبله من الباب ويودعه إلى الباب على الرغم من ألم الفتق الذي معه، ويعظمه، وسمعته يوماً وقد زاره الشيخ السلقيني في بيته يُطْرِي شيخه كثيراً، حتى استحيى الشيخ، فقال شيخنا له: أنت شيخي، هذا حق.

وأذكر أنه لما توفي والدي رحمه الله وأعلى مقامه، قدم شيخنا الشيخ عبد الله يزورنا معزياً، وكان في المجلس، حشد كبير من الناس، فتطلع الناس لكلمة منه، فلم يتكلم، وتقدَّمْتُ إليه ألتمس منه كلمة بهذه المناسبة، فاعتذر مني، ولم أعرف سبب ذلك أولاً، ثم عرفني السبب، وهو أنه كان شيخه السلقيني موجوداً، فلحظ الأدب معه ولم يتكلم شيئاً، ثم طلبنا منهم الدعاء ووجه شيخنا الطلب إلى الشيخ السلقيني فاعتذر، ثم قال لشيخنا أنا أدعو وأنت تدعو، فكان

المجلس مواسياً لنا بهذا أكثر، رحمهما الله وأعلى مقامهما[١].

وأما ذكره والده فكان عجباً من عجائب البر والوفاء، لا نجلس إليه مجلساً لا يذكره فيه، ويكرر دائماً القول: أنا ليس لي شيء، كله للشيخ نجيب، المدرسة مدرسة الشيخ نجيب... الشيخ نجيب أمره عجيب...! الشيخ نجيب حجة الإسلام... رحمهما الله تعالى ورضي عنهما.

* * *

(١) وأذكر في المقابل أني من قريب كنت في عزاء أقرباء لنا في والدهم، وهو من الصالحين الورعين والتجار الأمناء الصادقين، له مآثر في هذا الباب، فدخل شخص يتزيى بزي علماء الشرع، فما إن جلس حتى أوعز لشخص ليوقف القارىء ويقدمه، وتقدم فتكلم غير عابىء بشيء، ثم راح يتحدث عن الفقيد وهو لا يعرفه، فغمطه حقه وقصّر، كل ذلك حباً في الظهور، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

منهج الشيخ الإمام العلمي

كان رحمه الله متمكناً في مختلف العلوم الشرعية والعقلية والنقلية واللغوية، وله نظر في علوم العصر الكونية، وكان رحمه الله تعالى محيطاً بآراء العلماء ومذاهبهم، في قضايا العقيدة، والشريعة، وكثيراً ما يذكر رأي الجمهور وأدلتهم، ثم يذكر ما يراه مذهب المحققين وأدلتهم، ويرجح مذهب المحققين، مستدلاً بالحجة والبراهين، مستحضراً كل ما يتصل بالمسألة، أيّما استحضار، متبعاً المنهج العلمي الصحيح والدقيق في كل بحث لما أنه تمكن في العلوم، وفي الأصلين، بل الأصول الثلاثة: أصول العقيدة، وأصول الفقه، وأصول الحديث.

منهجه ومذهبه في العقيدة:

أما في الخسروية فقد درس مادة التوحيد حسب المنهاج المقرر، والذي فيه الميل إلى التأويل، ثم درس علم التوحيد من المطولات مثل شرح المواقف المشهور، وما ألف في عقيدة السلف، مثل شرح عقيدة السفاريني العالم الجليل، كما أنه درس الأديان والْمِلَلَ والنِّحَل، وكثيراً ما كان يذكر في مجالسه الشهرستاني (في الملل والنِّحَل) وينقل منه المعتقدات، وينقدها بالأدلة النقلية والعقلية، وعرف مناهج المتكلمين ومذاهبهم.

أما مذهبه في العقيدة فهو مذهب السلف، على الفهم الصحيح لمذهب السلف، كما كان عليه والده جدنا رحمهما الله تعالى، وقد بيّن ذلك في حديثه عن أبيه وهو[1]: «إن عقيدة والدي الكريم رحمه الله تعالى في باب علم التوحيد هي ما كان عليه جمهور السلف الصالح، فإنهم صدر الأمة، المشهود لهم في الخيرية، كما جاء في الحديث عن سيد العالمين، وخير البرية، عليه أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية، حيث قال ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» متفق عليه، وجاء في رواية، «ثم الذين يلونهم» الحديث.

وكان والدي الكريم رحمه الله تعالى يقول: «إن مذهب السلف الصالح هو أعلم وأحكم وأسلم، قائم على الكتاب والسنة، وجرى عليه خيار الأمة، وكبار الأئمة، وكان يبين ما هي عقيدة السلف الصالح فيقول: إنها إثبات الكمالات المطلقة الواردة في الكتاب والسنة، على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، مع التنْزيه عن التشبيه، والتمثيل، والتنظير، والعيوب والنقص.

فهي إثبات ما ورد على ما ورد، مع التنْزيه ونفي التشبيه والمماثلة قطعاً، فلا تشبيه (أي لا تشبيه لله بشيء من خلقه في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله)، ولا تمثيل (أي لا نمثل الله بشيء من خلقه كذلك) ولا تجسيم، (أي لا نعتقد فيه الجسمية، واعتقاد التجسيم في الله كفر)، ولا تكييف، بل هو كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

قلت: وقول الشيخ في مذهب السلف: «أعلم وأحكم وأسلم» رد

---

(١) ص ٢١.

على المقولة الذائعة: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف (أي المؤولين) أعلم.

ووجه قول الشيخ: إن مذهب السلف أعلم ترك موضوع الصفة المذكورة في الآية أو الحديث مطلقاً، فهو من هنا أعلم، كما أنه أحكم أيضاً لهذا، وهو أسلم من التأويل، لأن في التأويل احتمالَ الغلط، وغيرَ ذلك، مما لا نطيل به[1].

وقد أتى قوم في تعريف مذهب السلف بعبارة موهمة فقالوا:

إن المراد من هذه الآيات المتشابهة في الصفات هو معناها الحقيقي على وجه يليق به تعالى.

وهذا تعبير منتقد من حيث اللفظ والمعنى:

أما انتقاده من حيث اللفظ فلأن السلف لم يأتوا بكلمة «حقيقة»، وهذا باب دقيق يجب التقيد فيه بالعبارات المنقولة تماماً، فكيف نقحم على كلامهم ما لم يقولوا؟!

وأما انتقاده من حيث المعنى: فلأن قولهم «المراد معناها حقيقة» يوهم تشبيه الله تعالى بخلقه، وقولهم «على وجه يليق به» ينافي ذلك، فصارت العبارة متناقضة موهمة، حتى وجدنا كثيراً ممن نظر في كلام أصحاب هذا الرأي أو اعتقده يتجه فهمه إلى التشبيه من حيث لا يشعر.

وإنّ مَنْ نظر في سياق تلك الآيات الواردة من متشابه الصفات

---

(١) هذا هو مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم، وليس كما ينسب إليهم من كلام فيه تغيير لهذا. انظر تحقيق ذلك بالنقل عن الأئمة في كتابنا (علوم القرآن الكريم) ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

وتمعن في الغرض الذي سيقت له علم بُعْدَها عن إرادة المعنى الظاهري ، واستحالة تفسيرها به .

تأمل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٧٣] وقوله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١] ، وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧] ، تعلم أن هذه الآيات وردت في مقام بيان قدرته تعالى ، وورد فيها اليد مفردة ومثناة وجمعاً ، مما يدل على استحالة إرادة المعنى الظاهري .

وحسبنا في هذا كلام الإمام الحافظ السلفي ابن كثير ، قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾(١) : «أي الأمور كلها تحت تصريفه ، وهو المعطي المانع ، يَمُنّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام . . .» .

وقال في تفسير آية : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(٢) : «أي هو حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ» .

وقال في آية ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾(٣) : «أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه» .

وهكذا الشأن في قوله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] : ما ورد هذا التعبير إلا في مناسبة بيان عظمة سلطانه تعالى ، وأنه هو

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧٣ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٩ .
(٢) سورة الفتح ، الآية ١٠ وتفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣١٢ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٦٤ وتفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٣٨ .

وحده المتصرف في الأكوان بقهره وجبروته كالأمثلة التالية :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [طه: ٥ ـ ٦] .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة: ٤] .

قال الإمام ابن كثير في آية الأعراف[١] ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ : «وإنما يُسْلَكُ في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارُها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهرُ المتبادِرُ إلى أذهان المشبِّهينَ منفيٌّ عن الله ، فإن الله لا يُشْبهُهُ شيءٌ من خلقه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

وهكذا سائر الآيات يفسرها السلف رضي الله عنهم على هذه الطريقة[٢] .

وقد اتفق الجمهور على وجوب تأويل الآيات الواردة في متشابه الصفات في بعض الأحوال مثل :

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٢٢ وكذا قال في تفسير آية (٢) من الرعد ج ٤ ص ٣٥٢.
«يُمَرَّر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، تعالى الله عُلواً كبيراً» .

(٢) انظرها في مواضعها من تفسير ابن كثير . . .

١ ـ أن يكون للمتشابه تأويل واحد يفهم منه فهماً قريباً، فيجب القول به إجماعاً، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فهذه الآية ليس لها إلا تأويل واحد، هو الكينونة مع الخلق بالإحاطة بهم علماً وسمعاً وبصراً وقدرة وإرادة.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: «أي رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء...»[(١)].

٢ ـ أنه إذا توقف الدفاع عن الإسلام على التأويل لهذه المتشابهات وجب تأويلها بما يدفع شبهات المشتبهين ويرد طعن الطاعنين[(٢)].

ونقول أيضاً: إنه إذا خيف من ترك التأويل سوءُ فهم الناس ووقوعُهم في الزيغ ترجح التأويل والأخذ بمذهب الخلف، وما أكثر ما يُحتاج إليه في هذا الزمن الذي قل فيه العلم وكثر الجهل، وشاعت في أوساط المتعلمين أساليب التفكير العامِّيّة، وطرق التصور السطحية[(٣)].

أدلة الترجيح لمذهب السلف:

قال شيخنا في ترجمة والده يبيّن أدلته، وهي أدلة لشيخنا أيضاً رحمهما الله تعالى[(٤)]:

وكان والدي الكريم رحمه الله تعالى، يستدل على ذلك بوجوه من الأدلة الكثيرة، أذكر طرفاً منها:

---

(١) ج٨ ص ٣٤.

(٢) انظر هاتين المسألتين في مناهل العرفان ج ٢ ص ١٨٢.

(٣) انظر هذا التحقيق في كتابنا (علوم القرآن الكريم): ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٤) ص ٢١ ـ ٢٨.

الأول: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فقد نفى سبحانه وتعالى المثل له، والشبيه به، وأكد ذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ولم يقل: ليس مثله شيء، فهذا فيه قوة التأكيد في نفي المثيل له، والشبيه به، فلا مماثلة، ولا مشابهة بينه سبحانه وتعالى وبين خلقه، لا يشبههم ولا يشبهونه، نفياً عاماً من جميع الوجوه، فهو سبحانه وتعالى هو كما هو، لا يشبه خلقه، ولا الخلق يشبهونه، فبعد ما نزه نفسه سبحانه وتعالى عن المثل والشبيه، بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فأثبت لنفسه سبحانه وتعالى صفات الكمالات المطلقة، كما يليق به سبحانه وتعالى، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: والعليم والقدير، والعزيز والحكيم، إلى ما هنالك من صفات الكمالات المطلقة التي لا نهاية لها، على وجه لا مثل له في ذلك ولا شبيه، ولا نظير ولا عديل.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فيه تنزيه عن المماثلة والشبه، والحدوث، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه إثبات الكمالات المطلقة لله تعالى وحده، على الوجه الذي يليق بكماله جل وعلا سبحانه وتعالى.

فالعقيدة الإيمانية في توحيد الله تعالى قائمة على أساس إثبات ما جاء في الكتاب والسنة، من صفاته سبحانه وتعالى، وأسمائه وأفعاله، على وجه الكمال المطلق اللائق به سبحانه وتعالى، مع التنزيه عن المماثلة والمشابهة من جميع الوجوه.

الدليل الثاني:

إن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم عن الملائكة عليهم السلام، أنهم دائماً في تسبيح لله تعالى، وحمد له جل وعلا.

قال الله تعالى مخبراً عن حملة العرش العظيم ومن حوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧] الآية.

وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: ٥] الآية.

والتسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل مالا يليق به من النقائص والعيوب، والمماثلة والمشابهة، والحدوث، وما هنالك.

وأما الحمد فهو إثبات المحامد والكمالات له سبحانه وتعالى، كما اتصف به، وكما أثبته لنفسه من صفات الكمال التي لا نهاية لها، وحده لا شريك له في ذلك كله.

وقال الله تعالى مخبراً عن جميع الملائكة عليهم السلام: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

جاء في الحديث الذي رواه البيهقي بأسانيد متعددة، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه قال: «سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال ﷺ: هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء» أي: عيب وشبيه، ومثيل وحدوث.

بل هو سبحانه وتعالى متصف بكل كمال مطلق لا نهاية له، وحده لا شريك له في ذلك، ولا شبيه، ولا عديل، ولا كُفْءَ.

فالتسبيح له سبحانه وتعالى تنزيه له عما تنزه عنه سبحانه وتعالى، والحمد هو إثبات المحامد والكمالات له سبحانه وتعالى، التي أثبتها لنفسه تعالى على وجه لا حد له ولا انتهاء، ولا إحصاء ولا استقصاء.

فالتسبيح والتحميد له سبحانه متلازمان، فقد يذكران معاً في

الآيات القرآنية، وقد يفرد أحدهما بالذكر فيدخل الآخر فيه ضمناً ولزوماً.

فإذا ذكرته سبحانه وتعالى بالحمد فقد أثبتَّ له الكمالات والمحامد صريحاً، ونزهته عن النقائص والمذامِّ لزوماً.

ألا ترى أنك إذا قلت: إنه سبحانه وتعالى عليم، فقد نزهته عن الجهل، وإذا قلت: إنه على كل شيء قدير فقد نزهته عن العجز.

وإذا ذكرته بالتسبيح، فقد نزهته عن النقائص والشبه والنظير وما هنالك، ودخل في ذلك ضمناً ولزوماً إثبات الكمالات له، كما أثبت لنفسه سبحانه.

ألا ترى أنك إذا قلت: هو سبحانه لا شريك له، ولا شبيه له، فقد أَثْبَتَّ أنه واحدٌ أحد، وإذا قلت: إنه لا يُعجِزه شيء، فقد أثبت أنه قادر على كل شيء، وهكذا دواليك.

فالعقيدة الإيمانية التي كان عليها السلف الصالح، المشهود لهم بالخيرية، كما جاء في الأحاديث الشريفة النبوية، تلك العقيدة هي القائمة على أساس الحمد مع التسبيح ـ أي الإثبات مع التنزيه ـ أعني: إثبات ما جاء في الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة مع التنزيه عن التمثيل والتشبيه، والنظير، فهو سبحانه لا يشبه المخلوقات، ولا المخلوقات يشبهونه، من جميع الوجوه والحيثيات، فلا مماثلة ولا تشبيه.

الدليل الثالث:

قول الله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٤] فقد بين الله تعالى أن جميع الأشياء تعلم أن لها رباً خلقها وأوجدها، وأنه

سبحانه متصف بالكمالات التي لا نهاية لها، ومنزه عن النقائص والعيوب والآفات، وحده لا شريك له، ولا شبيه ولا مثيل له، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أي ما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمده، وهذا كما قال جمهور العلماء المحققين: هذا عامٌّ في الحيوانات والنباتات، والجمادات، والدليل على ذلك الأحاديث الشريفة التالية:

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه قال: «كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

وروى الإمام أحمد وأصحاب المسانيد، عن أبي ذر رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسُمِع ـ أي سمع رسول الله ﷺ وأصحابه ـ لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم».

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: إني قاص عليكما الوصية: آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنين.

أنهاكما: عن الشرك بالله والكبر، وآمركما: بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانت حلقة، فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء».

وروى النسائي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال: «نقيقها تسبيح».

قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لأن لغتها خلاف لغاتكم، إلا من علمه الله تعالى ذلك وأطلعه على ذلك فهو يسمع ويفقه.

فقد أطلع الله حبيبه الأكرم ورسوله المعظم ﷺ على ذلك كله، فهو يفهم ذلك كما قال ﷺ في نقيق الضفدع إنه تسبيح، وكما كشف الله تعالى للصحابة وفهمهم ببركة رسول الله ﷺ وأنواره وأسراره تسبيح الحصيات، كما تقدم في الحديث، وتسبيح الطعام، ونحو ذلك.

الدليل الرابع:

قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١ ـ ٢].

فوصف نفسه جل وعلا في هذه الآية بأنه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

فاسم العزيز يدل على النزاهة والترفع عن الشبيه والمثيل والنظير وما هنالك من سمات العيوب والنقص.

واسم الحميد يدل على اتصافه سبحانه وتعالى بصفات الكمال والمحاسن، والجمال والجلال، على الوجه الذي لا نهاية له، فإنه هو ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الحميد الذي يحمد على جميع أسمائه وصفاته وأفعاله، فموقع اسم الجلالة من الإعراب النحوي بعد قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ موقعه الإعرابي النحوي هو: بدل مطابق.

الدليل الخامس:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾.

وفي هذا تعليم من الله تعالى لعباده أن يقرؤوا في إثبات الكمالات لله تعالى، التي اتصف بها على وجه لا نهاية له يقرؤون ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

وأن يقرؤوا في تنزيهه عما لا يليق به، وفي نفي الشبيه والمثيل له، ونفي الكفْءِ والنظير له سبحانه، يقرؤون: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ صدق الله العظيم، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وعلى هذا جرى السلف الصالح ومنهم الإمام مالك وأمثاله رضي الله عنهم.

روى الإمام البيهقي عن عبد الله بن وهب قال: «كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى.

قال فأطرق مالك، وأخذته الرحضاء ـ أي العرق في وجهه ـ ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة، أخرجوه».

وروى الإمام البيهقي بإسناده أيضاً، عن يحيى بن يحيى قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى.

قال فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول ـ أي الاستواء معلوم معناه العلو ـ والكيف غير معقول ـ أي: لا تدركه وتحيط به العقول، فهو مجهول ـ والإيمان به واجب ـ يعني:

أن الإيمان بأن الرحمن استوى على العرش واجب ـ والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً فأمر به أن يخرج».

فقول الإمام مالك: الاستواء معلوم غير مجهول، في هذا إثبات ما ورد على وجه الكمال اللائق به سبحانه وتعالى، وقوله: والكيف غير معقول، وقوله أيضاً: ولا يقال كيف؟ وكيف عنه مرفوع: وفي هذا تنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة والتجسيم، فإنه لا مشابهة بين الخالق والمخلوقات ولا مماثلة، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا كما وصف نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ صدق الله العظيم، وبلغ رسوله الكريم ﷺ، ونحن على ذلك من الشاهدين» انتهى.

توحيد المحدثين:

قلت: وسمعته يذكر توحيد المحدِّثين، فأشرحه خوف أن يكون غيري سمعه منه، ولم يفهمه على الوجه الصحيح. وذلك أن الترمذي وهو إمام جليل من المحدثين عرض لهذه المسألة، لَمّا روى الحديث[1]: «ما تصدّق أحد بصدقة من طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرةً، تربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه[2] أو فصيله».

---

(١) في الزكاة (فضل الصدقة): ٣/ ٥٩ رقم ٦٦١.

(٢) هكذا ضبطها في اللسان، وذكر وجوهاً (فَلْوَّه، فُلُوُّه، فِلْوَه) انظر اللسان (فلا (١٥ / ١٦٢)، وقال النووي في شرح مسلم (٧ / ٩٨): «في الفلو لغتان فصيحتان أفصحهما وأشهرهما فتح اللام وتشديد الواو، والثانية كسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو». قال ابن حجر (فتح الباري: ٢٧٩): «هو المهر لأنه يفلى أي يفطم، وقيل هو كل فطيم من ذات حافر، وضرب به =

وهو حديث صحيح متفق عليه[1]، ذكر اليَمين والكَفَّ، منسوبين إلى الله تعالى، وهذا من المتشابه، لإيهامه ما لا يليق بالله تعالى بحسب الظاهر.

قال الترمذي يحل الإشكال: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد تُثْبَت الروايات في هذا، ويُؤمنُ بها، ولا يُتوَهَّمُ، ولا يقال: كيف.

هكذا روي عن مالك، وسفيان بن عُيَيْنَة، وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا في هذه الأحاديث: «أَمِرُّوها بلا كيف». وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة. . .

وقال إسحاق بن إبراهيم (هو الإمام الحافظ إسحاق بن راهويه معاصر الإمام أحمد بن حنبل وصِنْوُه): إنما يكون التشبيه إذا قال يدٌ كيد أومثلُ يدٍ، أو سمعٌ كَسَمْع أو مثلُ سمع. . . فهذا التشبيه. وأما إذا قال كما قال الله تعالى: يدٌ، وسمعٌ، وبصرٌ، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سَمْع، ولا كسَمْع، فهذا لا يكون تشبيهاً، وهو كما قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾. انتهى كلام الترمذي.

= المثل لأنه يزيد زيادة بَيِّنَةً، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيماً، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل ابن آدم لا سيما الصدقة، فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال، حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم، نسبة ما بين التمرة إلى الجبل».

(١) البخاري (الصدقة من كسب طيب) رقم ٧٥١ ومسلم (قبول الصدقة من الكسب الطيب) ٧ / ٩٨ بشرح النووي وجامع الترمذي: ٣/ ٤٩ ـ ٥١.

قلت: فآل توحيد المحدثين إلى التنزيه، ونفي التشبيه كما ذكرنا عن السلف، فتنبه. وهو الذي نذهب إليه كما يعرف من تتبع كتاباتنا.

كما أن شيخنا كان يرد شذوذات المعاصرين والماديين، ويناقشها بالحجج من العقل والنقل. فروى ظمأ مستمعيه، وأغناهم.

منهجه في التفسير:

وقد استكمل عُدّته بحفظ الحديث، والتوسع في اللغة، والتمرس بأساليب البيان، وقواعد اللغة، وكان رحمه الله تعالى ذا حسٍّ مرهف لجمال الكلام وحسنه، وكان أديباً شاعراً، له قصائد شعر، وقد اجتمع له العلم بالتفسير بأنواعه: المأثور، والرأي، والإشاري، وله فيه باع طويل، والتفسير الفقهي، والمعاصر، والتفسير بالعلوم الكونية.

وقد اشتغل بالمراجع الأمهات في التفسير وعلوم القرآن، فكان يورد ما يتصل بالآية من آيات وأحاديث، وأقوال الصحابة ومن بعدهم، وآراء المفسرين، ثم يبين المختار عنده وأدلة رجحانه، وكان يُمَتِّع العقول، ويطرب القلوب بما يقدمه من علوم ولطائف حول الآية، فلا يمل الجالس إليه.

وكان له درس خاص لنخبة من طلاب الشعبانية يقرأ فيه تفسير النسفي، يقدم فيه من علمه الغزير تفسيراً جليلاً ضخماً، منه تفسير النسفي، وحل عباراته، ومقاصده الدقيقة.

ولغاية عمقه في التفسير طلب إليه كثير من العلماء تأليف تفسير جديد، وعزم على ذلك، لكن لم تُتَحْ له الفرصة.

وكلَّمْتُه يوماً في هذا، فقال: كثرت التفاسير، لم يبق لي مجال! قلت: بل المجال لكم، فأنتم أقوى شخص في هذا الباب، وأكثر هذه

التفاسير المعاصرة كتبها غير متخصصين، فأصدر رحمه الله تفاسير لتسع من سور القرآن، لَحَظ فيها معنى الدعوة، لذلك عنون لها بقوله «حول تفسير سورة كذا. . . » ومن تأمل صنيعه وجده ينطوي على علم منقح، وعمق فريد في فهم كتاب الله تعالى.

كما أنه جاء في مجالسه بمفاهيم جديدة، لتعمقه واشتغاله بإشارات القرآن، لكنه فيما يعرض منها يلتزم شرط التفسير الإشاري، ولا يبعد عن النص.

قبسات من مجالس تفسيره:

وقد أدهش تفسيره لآيات القرآن الكونية، لما جاء فيه من العجائب، مما دل على الإلهام والفتوح من الله تعالى.

وهذه اقتباسات من مجالسه رحمه الله تعالى قالها على البداهة، فيها لطائف ودقائق:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

لما أغرق الله جيش فرعون وأطبق عليهم البحر، وجّه هذا الخطاب لفرعون، وجاءت العبارة هكذا ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾.

طرح شيخنا هذا السؤال: «لِمَ جيء بالباء، ولم يقل: ننجي بدنك، أو ننجيك».

ثم قال: الباء هنا تفيد التضمين، والمعنى المقدر: ننجيك أي من أن تأكلك حيتان البحر، وننحيك ببدنك، أو ننحي بدنك، أي نخرجه من البحر ليراه الناس، فحرف الباء هنا جاء ليحل محل كلمة ننحيك.

أقول ـ أنا العبد الضعيف كاتب هذه الأسطر ـ:

والمقصود التخييب له من النجاة، أي ننجيك ملابساً بدنك فقط، لا مع روحك، كما قرره بعض المحققين، وهذا يتمشى مع ما قرره الشيخ، كما يتمشى أيضاً مع تفسير الباء بأنها للملابسة.

٢ - قال أيضاً في آية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]:

قال: هذا التضمين ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، ولم يقل: من عباده؟ والمعنى: يقبل التوبة ويعفو عن عباده، فضمن سبحانه وتعالى قوله: ﴿يَقْبَلُ﴾ معنى العفو في الآية، مشيراً إليه بحرف الجر «عن».

قلت: معنى التضمين إدخال معنى كلمة في كلمة أخرى، فتتعدى تعديتها، وهذه التعدية تشير إلى التضمين وتدل عليه، كما بين فضيلته.

٣ - مدلولات «رجال» في القرآن:

قال رحمه الله تعالى إن لكلمة رجال ثلاثةَ معانٍ في القرآن الكريم:

أولها: الرجال عكس النساء، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

ثانيها: الراجلون غير الراكبين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

ثالثها: الرجولة، أي القوة في عبادة الله تعالى، وهذا قد يكون في الرجال وفي النساء، كقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٤ ـ قدمت لفضيلته تفسيراً مختصراً للقرآن، كتبه بعض العَصْريين الهواة، من غير علماء الشرع، وقد قدم للتفسير بهالات من التقاريظ والرؤى المنامية النبوية!. ثم زرت الشيخ بعد أيام فعاب هذا التفسير كثيراً، وتعجب من أهل العلم الذين قدّموا له بالثناء والمديح!! وذكر أشياء مهمة انتقدها، أذكر منها تفسير هذا المفسِّر قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠] قال يفسرها: يا حسرتنا ويا ندامتنا!!.

وهذا يعني أن المفسّر يصف رب العالمين بهذا، وهو جهل منه بالله تعالى، وجهل باللغة، إنما المعنى: يا حسرةً عظيمة على العباد لا يقادرُ قدرها احضري في كل قلب، فهذا أَوَانُكِ . . .

فلم يُبَالِ رحمه الله بهالات الدعاوى والرؤى النبوية والتقاريظ أمام الحقيقة العلمية.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

أشار الشيخ إلى كلام أذيع من التلفاز حول هذه الآية، وأنه دار ولَفَّ حول مفاتيح الغيب، وأنه سبحانه يعطيها من يشاء.

وهذا يوهم أو قد يشير إلى أنه أعطاها للغربيين فعرفوا علوم الكون.

قال الشيخ ناقداً: مَن هؤلاء الكفار حتى يعطيهم الله تعالى علم

غيبه؟! وأين هو من الحديث: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله».

أقول: يريد شيخنا بهذا أن الاكتشافات والاختراعات ليست علم غيب، لأنها تكون بمقدمات وعلامات وتجارب يُستدل بها على المجهول. والحديث المشار إليه يفسر الآية، وما ذكره صاحب الكلام يصادم تفسير رسول الله ﷺ لهذه الآية، ولفظ الحديث بالتمام هكذا:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أخرجه البخاري[1].

وقد اختتم شيخنا المجلس فقال داعياً: «اللهم فهمنا القرآن على طريقة فهم السلف الصالح: الصحابة والتابعين، إن هذه الأفهام المعاصرة توهم أنهم ما فهموا القرآن».

قلت يريد رحمه الله الأفهام التي تعارض فهم السلف أو منهجهم.

منهجه في علوم القرآن:

هذا عنوان لعلم مهم، هو «المباحث الكلية التي تتعلق بالقرآن الكريم، من ناحية نزوله، ومكيه ومدنيه، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، وغير ذلك».

وواضح أن حفظ القرآن وعنصر الروايات الحديثية مهم في هذه

---

(١) في آخر كتاب الاستسقاء: ٢/٣٣، وانظر تفسير ابن كثير آخر سورة لقمان فقد أورد جملة كبيرة في ذلك. وانظر كتابنا (في تفسير القرآن وأسلوبه المعجز): ١٠٣ ـ ١٠٨، فقد حققنا تفسير الآية، وأجبنا عن إشكال الأرصاد الجوية وغير ذلك فراجعه.

البحوث، وقد تمكن شيخنا في هذا العلم، وزاد تمكناً على غيره، بكونه حافظاً للقرآن وحافظاً للحديث النبوي عن ظهر قلب، فكان يأتي في بحث أي مسألة فيه بما لا تجده في المراجع، لاستحضاره ما يتعلق بها من القرآن ومن الحديث النبوي، وأقوال الصحابة والتابعين.

ومن علوم القرآن التي عُني بها شيخنا: **علم خواص القرآن**: وهو معرفة ما يفيده قارئ آية أو سورة من جَلْبِ خيرٍ أو دفعِ ضرٍّ.

وقد ورد في بعض السور والآيات أحاديث صحيحة، لا خلاف فيها، كالفاتحة، والبقرة، والمعوذات، وآية الكرسي، وورد عن بعض العلماء أقوال، فأنكر بعض الناس عليهم، بأنه قول بغير علم من الشرع، فأجاب الشيخ بقوله في مجلس خاص: لا داعي للإنكار، لأن هذا العالِم لا يدعي ثبوتاً شرعياً، إنما هي تجربة، فهناك مرويات، وهناك مُجَرّبَات!!.

قلت: وأعرف شخصاً عقد موعداً لضيوف يزورونه، فجاءت رياح شديدة والوقت شتاء، شديد البرد جداً، والمدفأة لا تتقد، فألهمه الله آية قرأها داعياً بها، فسكنت الريح تلك الليلة.

وكان الشيخ كثيراً ما يرشد إلى بعض الآيات أو السور، فيتحقق المقصود.

ومما أذكره عنه أنه قال رحمه الله تعالى: آيتان في كتاب الله تعالى كل واحدة منهما تشمل حروف الهجاء كلها، ويستحب قراءتهما لقضاء الحوائج أياً كانت، وهما:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ

يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

منهجه في الحديث والمصطلح:

وقد أخذهما في الخسروية عن محدث حلب شيخنا الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى، ولحظ الأساتذة تفوق الشيخ وهو طالب في هذا العلم في رواية الحديث وشرحه وحفظه، كما يُلحظ في الصفوف العليا تفوقه في مصطلح الحديث، وكان الكتاب المطلوب صعباً هو (علوم الحديث) لابن الصلاح، المشهور بمقدمة ابن الصلاح.

وتقدم لنا بيان اهتمامه البالغ رحمه الله تعالى بحفظ أحاديث الكتب الستة، فجاءت دراسته في غاية الفائدة، إذ صار متكاملَ التكوين، درايةً لأصول الحديث، وحفظاً لنصوصه حفظاً واسعاً شاملاً، ثم تعمقاً في شرحها، واستنباط الفوائد منها.

وكان له من دروس والده بشرحه للبخاري، وقراءة إرشاد الساري للقسطلاني، وشرحه الواسع لهذا الشرح خير مُعين وموسع لعلمه.

ثم لحظ فضيلته من تجربته الشخصية طالباً، ثم تجربته مدرساً للحديث والمصطلح الحاجة إلى تأليف مختصر ميسر، فصنف (شرح

المنظومة البيقونية) الذي ناسب حاجة طلاب العلم، **وصاروا يطلبون** اعتباره الكتاب المطلوب، وكان مدرسنا **للمصطلح رحمه الله شديد** الحساسية والغيرة، فيرفض ويغضب لهذا المطلب، **ويملي علينا من** اختصاراته وإملائه، ثم يعود الطلبة يطلبون شرح المنظومة، **على عادة** الطلبة، بتكرار ما يثير بعض المدرسين!.

أما منهجه في المصطلح:

فقد كان في المصطلح يسير على مذهب الجمهور، لكن يَسْتَقوي أحياناً مذهب غيرهم، فهو يرى أن التضعيف المطلق للحديث المرسل ليس جيداً، وقد احتج به الحنفية والمالكية والحنابلة، وقد عرض أدلة الجميع بإنصاف ودقة.

كما أنه لا يرى ما زخرت به المراجع من تشديد الحملة على المستدرك للحاكم، وأقول: إن مما يقوي هذه الوجهة أن الحاكم أدرج الحسن بقسميه: الحسن لذاته، والحسن لغيره، في الصحيح، فلا يصح الاستدراك عليه بمجرد أن يوجد في السند راوٍ ضعيف.

كذلك كان يستشهد في دروسه بتصحيح الإمام أبي حاتم محمد بن حِبان، وهو قول جماعة من العلماء، لأن الراوي ما دام لم يجرحه أحد فهو على ظاهر العدالة في المسلم، وتَقَوَّى بأن حديثه ليس منكراً، أي ليس مخالفاً، وأنه وقع في الإسناد بين ثقتين، وهذا التصحيح وإن وصفه الجمهور بالتساهل، لكن إهماله وإلغاءه كما يقع من أهل العصر ليس جيداً، فتنبه.

وأما في **حجية الحديث الضعيف**، فهو يرى العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ويوردها في كتبه، لكنه قلما يكتفي بحديث واحد في المسألة، حتى لو كان صحيحاً، فكيف بغيره، بل

يُتبعه بدلائل أخرى من الحديث أو غيره غالباً، وذلك جَرْي على عادة المحدثين، فإنهم يوردون أكثر من حديث في المسألة، لزيادة التقوية، وحتى تتعمق الفكرة في قلب السامع والقارئ.

وقد دافع الشيخ عن عمله بقوة في بعض كتبه، منها مقالته في آخر كتاب (الصلاة على النبي ﷺ)، فقال رحمه الله[1]:

«قد يقول بعض الناس: ما لَكَ تأتي في كتبك ببعض أحاديث فيها ضعف؟!.

فالجواب عن ذلك: أنني أجري في ذلك على **منهاج جمهور علماء الحديث العلمي والعملي**، ولا شك أن الحق هو مع الجمهور، ويد الله تعالى على الجماعة.

أما منهاج جمهور المحدثين العلمي الذي انتهجوه فهو: كما بيَّنه الحافظ السخاوي في خاتمة كتابه (القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ﷺ) حيث قال في ص ٢٥٨:

قال شيخ الإسلام أبو زكريا النووي رحمه الله تعالى (في الأذكار): قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم:

يجوزُ ويُستحبُّ العملُ في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعاً، ، وأما الأحكام كالحلال والحرام والبيع والنكاح والطلاق وغير ذلك فلا يُعمل فيها إلا بالحديث الصحيح أو الحسن، إلاّ أن يكون في احتياط في شيء من ذلك: كما إذا ورد حديثٌ ضعيف بكراهة بعض البيوع أو الأنكحة، فإن المستحب أن يتنَزّه عنه ولكن لا يَجِب. اهـ.

قال الحافظ السخاوي: وخالف ابن العربي المالكي في ذلك فقال

---

(١) الصلاة على النبي ﷺ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٧.

ـ أي أبو بكر ابن العربي ـ: إن الحديث الضعيف لا يُعمل به مطلقاً.

قال الحافظ السخاوي وقد سمعتُ شيخنَا ـ يعني الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ـ مراراً يقول ـ وكتَبَه لي بخطه ـ: إن شرائط العمل بالضعيف ثلاثة:

الأول: متفق عليه ـ أي الشرط الأول متفق عليه ـ أن يكون الضعف غير شديد، فخرج به من انفرد به أحدٌ من الكذابين، والمتهمين بالكذب، ومن فَحُش غلطه.

الثاني: أن يكون مندرجاً تحت أصل عام، فيخرج ما يُخترع، بحيث لا يكون له أصل أصلاً.

الثالث: أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يَقُلْهُ.

قال ـ يعني الحافظ ابن حجر ـ: والأخيران ـ أي الشرطان الأخيران ـ عن ابن عبد السلام وعن صاحبه ابن دقيق العيد، والأول نقل العلائي الاتفاق عليه. اهـ.

قال الحافظ السخاوي: قلتُ: وقد نُقل عن الإمام أحمد أنه يُعمل بالضعيف إذا لم يوجد غيره، ولم يكن ثَمّ ما يعارضه، وفي رواية عنه ـ أي عن الإمام أحمد ـ أن ضعيف الحديث أحبُّ إلينا من رأي الرجال، وكذا ذكر ابن حزم أن جميع الحنفية مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أن ضعيف الحديث أولى عنده من الرأي والقياس.

وسُئل أحمد عن الرجل يكون ببلد لا يوجد فيها إلا صاحب حديث لا يَدري صحيحه من سقيمه، وصاحبُ رأي: فمَنْ يَسْأَل.

قال: يَسْأَلُ صاحبَ الحديث، ولا يَسْأَلُ صاحبَ الرأي.

قال الحافظ السخاوي: ونقل أبو عبد الله ابن مَنْدَهْ عن أبي داود صاحب السنن ـ وهو من تلامذة الإمام أحمد رضي الله عنهما ـ أنه يخرّج الإسناد الضعيف إذا لم يجد في الباب غيره، وأنه أقوى عنده من رأي الرجال. اهـ.

فتحصَّل أن في الضعيف ثلاثةَ مذاهب:

أوّلها: لا يُعمل به مطلقاً.

ثانيها: يُعمل به مطلقاً إذا لم يكن في الباب غيره.

ثالثها: وهو الذي عليه الجمهور يُعمل به في الفضائل دون الأحكام كما تقدم بشروطه.

قال ـ أي الحافظ السخاوي ـ: وأما الموضوع فلا يجوز العمل به بحال، وكذا روايته إلا إن قُرنتْ ببيانه، لقوله ﷺ فيما رواه مسلم في (صحيحه) من حديث سمرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «من حدَّثَ عني بحديث يُرى أنه كذبٌ فهو أحد الكاذبين»[1].

قال: وكفى بهذه الجملة وعيداً شديداً في حق من روى الحديث وهو يظن أنه كذب، فضلاً عن أن يتحقق ذلك ولا يُبيِّنه، لأنه ﷺ جعل المحدّث بذلك مشاركاً لكاذبه في وضعه.

ثم قال الحافظ السخاوي: قال ابن الصلاح رحمه الله تعالى ما لفظه بعد تعريفه الصحيح (في علومه): ومتى قالوا: هذا حديث صحيح، فمعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس من شرطه أن يكون مقطوعاً به في نفس الأمر، إلى أن قال ـ يعني

---

(١) قال الحافظ: «يُرى» مضبوطة بضم الياء بمعنى يَظُنُّ، وفي «الكاذبين» روايتان: إحداهما بفتح الباء، على إرادة التثنية، والأخرى بكسرها على صيغة الجمع. اهـ.

ابن الصلاح ـ: وكذلك إذا قالوا في حديث: إنه غير صحيح، فليس ذلك قطعاً بأنه كذب في نفس الأمر، إذ قد يكون صدقاً في نفس الأمر، وإنما المراد أنه لم يصحَّ إسناده على الشرط المذكور. والله تعالى أعلم.

قال الحافظ السخاوي: وينبغي ـ كما قال النووي رحمه الله تعالى أيضاً ـ لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرة ليكون من أهله، ولا ينبغي أن يتركه مطلقاً بل يأتي بما تيسَّر منه، لقوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «فإذا أمرتكم بشيءٍ فافعلوا منه ما استطعتم».

ثم روى الحافظ السخاوي (في جزء الحسن بن عرفة) بسنده إلى أبي سلمة وجابر رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «من بَلَغَه عن الله عز وجل شيء فيه فضيلة فأخذ به إيماناً ورجاءَ ثوابه أعطاه الله ذلك وإن لم يكن كذلك».

ثم قال: وكذا أخرجه أبو يعلى بسند ضعيف عن أنس بلفظ: «من بَلَغه الله فضيلةٌ فلم يُصدِّق بها لم ينلها».

قال السخاوي: ولهذا الحديث شواهد من حديث ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة، رضي الله عنهم، وعن سائر الصحابة أجمعين. اهـ.

والبحث في الأدلة على جواز العمل بالضعيف مفصلاً يأتي في موضعه، وقد ذكرنا جانباً من الكلام عليه في شرحنا على المنظومة البيقونية.

وأما منهاج جمهور المحدثين العمليُّ: فإن أئمة الحديث قد أوردوا في مصنفاتهم الحديثية جملة من الأحاديث الضعيفة، تتعلق بفضائل

الأعمال، والترغيب والترهيب والمناقب، مستدلين بها ومستشهدين على ذلك، فمنهم:

الإمام البخاري في كتاب (الأدب المفرد)، والإمام الترمذي في (جامعه)، والإمام أبو داود في (سننه)، والإمام النسائي في (سننه) والإمام ابن ماجه في (سننه)، والإمام أحمد في (مسنده)، وغير هؤلاء من أئمة الحديث أصحاب السنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء، فكلهم جَرَوْا على إيراد الحديث الضعيف في الفضائل والترهيب والترغيب والمناقب، مستشهدين بها تحت عنوان: أبواب أو فصول أو غير ذلك.

قال أبو عبد الله الرصَّاع المالكي في (تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار) بعد أن ذكر جملة من الأحاديث الواردة في فضل الصلاة والتسليم على النبي ﷺ:

قال: ربما نظر بعض ضعفاء الإيمان في بعض هذه الأحاديث، فيقدح فيها ويقول: إنها لم ترد في الصحاح، وهو من سوء العقيدة، والقدح في شريعة سيد المرسلين ﷺ، بل الصواب تلقي ما تلقاه العلماء بالقبول، لأن عدالة أمته ﷺ تمنعهم من الكذب على سيدنا رسول الله ﷺ، وقد قال ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

قال: وحاشا أهل العلم الخائفين من الله تعالى أن يتعمدوا الكذب على رسول الله ﷺ، وأحاديث الترغيب معلوم ما فيها عند العلماء». انتهى كلامه.

وأما منهجه في علم الحديث رواية:

وهو علم رواية الحديث، فقد سبق شيخنا زمنه فيه، فقد بادر منذ

أيام الطلب وحفظ أحاديث الكتب الستة متوناً، ثم تابع فحفظ أحاديث غيرها من المسند والترغيب وغير ذلك، ثم حصل علم الأسانيد بحسب ما يقع له في الدروس والبحوث، فحصل علماً عظيماً.

لكن الشيخ على الرغم من حفظه هذا لم يكتف به، بل حرص على الاتصال برسول الله ﷺ، بواسطة السند، فحصل على الأسانيد بواسطة الإجازات، وكان أول ما حصل من والده رحمه الله تعالى، وكان عنده جملة أسانيد عالية عظيمة، ثم ظل على الأخذ من فضلاء وسادة مسندي العصر، وقد زاد عددهم على العشرة، منهم شيخنا بالإجازة السيد مكي الكتاني، والشيخ عبد العزيز عيون السود، وشيخنا الشيخ العلامة السيد علوي المالكي المكي، وشيخنا أيضاً الشيخ المسند إبراهيم الختني مسند المدينة وغيرهم[(١)].

وآخر من حصل منه على الإجازة الدكتور الشيخ يوسف الكتّاني المغربي لما زار حلب الصيف قبل الماضي، فسعى لزيارة شيخنا، واستجاز شيخَنا، واستجازه شيخُنا أيضاً، فتدبّجا، أي حققا ما يسميه المحدثون: «المُدَبَّج».

وأما في شرح الحديث:

فكان يُعنى بتحليل لفظه، ودلالاته اللغوية، ويورد روايات الحديث يستعين بها على شرح المعنى، ويورد آراء الشراح، ثم يبين المختار عنده، والدليل المرجح للاختيار، ويورد ما يستدل له من

---

(١) انظر التفصيل لشيوخه، وأسانيده، والكتب التي يرويها بالإسناد في الكتاب القيم (إعلام الطلبة الناجحين فيما علا من أسانيد الشيخ عبد الله سراج الدين) جمعه من إجازات شيخنا وأصوله المؤرخ الشيخ أحمد سردار رحمه الله تعالى. لكنه لم يستوعبها، فلم يعرض لأسانيد الدكتور يوسف الكَتَّاني؛ لأن إجازته متأخرة.

الحديث، ويبين كيفية دَلالته، مما ينمّي العقول، ويروّضها على دقة الفهم وسلامته، وعمق الاستنباط والتفقه.

وللشيخ تعمق في الأحاديث المنتقدة على الصحيحين، يبين اندفاع الطعن عنها، ومن ذلك حديث مسلم «خلق الله التربة يوم السبت»، الذي ظُنَّ أنه مخالف للقرآن، وكان الشيخ يقول: مسلم ليس أجْدَبَ، ليوْدِعَ الحديث في صحيحه وهو غير صحيح، الحديث يتكلم عن خلقٍ آخر غير المذكور في القرآن.

أقول: وقد كتب بعض المحققين الجامعيين بحثاً مطولاً حقق فيه صحة الحديث نشرته مجلة كلية الشريعة الكويتية، فلينظر.

والحاصل أنه قد اجتمعَتْ لشيخنا آلةُ الحديث بحفظه عن ظهر قلب، حتى قَلّ حديث لا يحفظه، وبقواعد هذا العلم، وبتحصيل أسانيده إلى رسول الله ﷺ، وتمييز صحيحه من سقيمه ومدخوله، وما يصلح للعمل وما لا يصلح، مع سعة الاطلاع على شروحه الواسعة، مثل فتح الباري، وغيره من شروح البخاري ومسلم وغيرها من المطولات، يرجع إليها بتمكن، ويحقق المراد، فتكامل تكوينه في علم الحديث، بما لا يوجد إلا عند الحفاظ الكبار المحققين، كالحافظ ابن حجر وأمثاله رحمه الله تعالى وإياهم وإيانا معهم. آمين.

منهجه في الفقه:

وقد اشتغل شيخنا أيام طلب العلم بالفقه الحنفي، ودرس كتاب الدرر الحكام شرح غرر الأحكام، بتدريس الشيخ مصطفى الزرقاء رحمه الله، وكان الشيخ الزرقاء يتوسع في حل العبارات الغامضة، لكون الكتاب مُكَثَّفَ العبارة، ويتوسع في الجانب الفقهي والأدلة كثيراً، حتى توهم الطلبة أنه يأتي بالتأصيل وجوانب التفقه من نفسه،

لكن شيخنا بعلو همته عرف مصدر أستاذه، وهو بدائع الصنائع للكاساني رحمه الله.

وهذا يدل على اعتنائه بالمطالعة قبل حضور الدرس، وأن حضوره كان مذاكرة في العلم، كما قال شيخه وشيخنا الشيخ محمد السلقيني رحمهما الله تعالى.

وقد عُني شيخنا بالفقه كثيراً، فقرأ أيام الطلب أيضاً حاشية ابن عابدين «رد المحتار» على الفقيه الدقيق النظر، الشيخ أحمد الكردي، أمين فتوى حلب ثم مفتيها، لكنه لم يتمها عليه، بل أتمها لنفسه بإشراف والده، وكان شيخنا يكثر من ذكر شيخه الكردي والترحم عليه، ويذكر بعض لطائف في درسه، وكانت الحاشية مستحضرة لدى شيخنا، كأنه ينظر إليها، بحيث إنه لما جاء بعض الشاذين حلب سنة ١٩٦٥م في عهد مفتي حلب الأسبق الشيخ محمد بَلَنْكُو رحمه الله، وطلب الاجتماع بالعلماء، فعرض فيه قولاً لأبي حنيفة ليستدل به على قول شاذ يبدِّع به المسلمين، وكان في المجلس نخبة علماء حلب، فسألوا هذا الرجل عن المرجع؟، فقال بإدلال: هذا يجب أن تعرفوه أنتم! فحاروا، فبادر شيخنا وقال له: هذا الكلام موجود في حاشية ابن عابدين، في الحظر والإباحة، وليس هذا لفظه، لم يقل هذا القول أبو حنيفة، بل قال شيئاً آخر، يريد به التحفظ على مذهب المعتزلة، بقولهم بالوجوب على الله، وجاءوا بالكتاب، فوجدوا النص والمسألة كما قال شيخنا.

على أن الشيخ لم يقف في التفقه عند مذهب الحنفي، بل تابع فحصّل علم المذاهب الأربعة، عُني بها وبأدلتها، ومنها مذهب الإمام أحمد، واستقدم من مصر (المغني) أحْضَرْتُه له بنفسي، وكان يشيد بالموفق ابن قدامة رحمه الله تعالى، وكان يتخير في الفتوى أحياناً،

وكان ينظر كتب الأدلة، وكتب الحديث، وما يميل إليه كل واحد من كتب الحديث من المذاهب، أو ما يكون تَوَفُّرُ أدلة مذهبٍ ما فيه أكثر.

وكان رحمه الله تعالى يأخذ نفسه بالعزائم، ويفتي العامة بالرخصة، لأن العامة لا تتحمل إلزام العزائم، وهذا درس لطالب العلم، عهدته في شيخنا، وأقرانه أمثاله في الورع، مثل شيخنا العلامة الكبير الشيخ عبد العزيز عيون السود، علامة حمص وفقيه الجهة الوسطى في سورية رحمه الله تعالى.

وكان شيخنا يلفت نظر طلبة العلم للاهتمام بالفقه، وقد وجَّه طلبة المدرسة لذلك، لشدة الحاجة إليه في انتظام الحياة، ولكثرة الغالطين، والمروِّجين للأقوال الشاذة، والآخذين ببعض المذاهب المهجورة أو غير المعقولة، في هذا العصر، يتظاهرون بها أمام الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومما اشتد إنكاره عليهم إفتاؤهم بجواز صرف الزكاة في بناء المساجد، وما أشبهها، كالمشافي، والمدارس ولو لتعليم الشرع، ونحو ذلك.

ويستدل على ذلك بأن الله تعالى فصَّل مصارف الزكاة تفصيلاً دقيقاً عينها بذواتها، فقال: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

فالله تعالى عدد مصارف الزكاة، وقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ شاع في القرآن والسنة بمعنى الجهاد، فلا يجوز صرفه لمعنى آخر، وأيضاً فإنه لو كان ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى كل وجوه الخير، لما كان لهذا التفصيل والتعداد لمصارف الزكاة معنى، فالقول بجواز دفعها لغير المصارف الثمانية إلغاء لفائدة كلام الله تعالى.

وما ذكره الكاساني في بدائع الصنائع قولاً، لا يجوز الأخذ به، لأنه شاذ عن الفقهاء، ومخالف للدليل[١].

ويؤكد الشيخ ذلك بأن هذه الفتوى في هذا الزمن، أشد غلطاً مما مضى، لأن دفع الزكاة قليل، وبفتح هذا الباب صُرِفَ هذا القليل إلى غير المصرف الأهم، والمصرف الأهم هو الفقراء والمساكين باتفاق الفقهاء والعلماء جميعهم، وأن الفقراء والمساكين هم الأصل في هذا الباب، فليس من الفقه الإفتاء بهذا، لو فرضناه مذهباً معتمداً، فكيف وهو قول شاذ[٢].

فاحذر أخي دافعَ الزكاة من الغلط، وليعلم الأغنياء أن «في المال حقاً سوى الزكاة» كما جاء الحديث، وباتفاق الفقهاء، وذلك لسد الحاجات الأخرى التي تنوب المسلمين، أما الزكاة فمشروعة لمرافق معينة نص عليها القرآن الكريم صراحة.

منهجه في أصول الفقه:

وقد درسه على شيخنا الشيخ محمد السلقيني رحمه الله وغيره، وكان الكتاب المقرر صعباً، فعكف شيخنا يحل غوامضه ويدرسه،

---

(١) لو سلِّم أن ما ذكره الكاساني يدل على ذلك، لكن التحقيق أن مراد الكلام أن يلتزم إنسان بناء جامع أو مدرسة مثلاً، وتتراكم عليه الديون، ويعجِز عن أدائها، فهذا يجوز إعطاؤه من الزكاة، لأنه غارم.

(٢) هذا يرد ما نسب لبعض الزملاء، إن الخطر جاء من التقصير في دفع الزكاة، ولو دفعت كاملة ما وقع إشكال ولكفت. وأقول: إن الخطأ واقع على كل حال لأنه خلاف الدليل القرآني، حتى لو دفعت الزكاة كاملة من كل مُكَلَّفٍ بها. ولو سُلِّمَ القول الذي نُسِبَ للزميل فواجب إذن الإفتاء بتحريم دفع الزكاة الآن لبناء المساجد ونحوها، وعلى كل حال فإنا نناى بطالب الفقه المتحري أن يفتي بجواز دفع الزكاة لهذا الطريق.

حتى تمكن في هذا العلم، وكان يرى لزوم الاعتناء به، وقد حكى لي صديق عزيز من أساتذة الجامعة في زيارة قريبة للكويت قمت بها، أنه لما أراد الالتحاق بالدراسات العليا، تردد بين اختصاص أصول الفقه واختصاص آخر، فذهب يودع الشيخ قبل السفر ويستشيره، فقال له شيخنا قبل أن يسأل: الأزهريون متفوقون علينا في أصول الفقه ونريد أن نلحق بهم. قال الصديق: فأخذت الجواب ولم أسأل الشيخ، وعملتُ بما قال.

وقد تمنى شيخنا لو أتيحت له فرصة للتأليف في أصول الفقه، لما سبق أن عانى في درسه، أيام الطلب.

ويتلخص منهج شيخنا بالتوسع في مصادر الفقه، بالاعتماد على الأربعة المشهورة الأصلية: الكتاب والسنة والإجماع والقياس. ثم الأخذ بالمصادر التي سماها بعضهم فرعية، مثل الاستحسان، والاستصلاح، والاستصحاب، وقول الصحابي، والعرف، ونحوها مما فيه اختلاف.

وكان رحمه الله يرد على الشوكاني شذوذاته، ومنها إنكاره الإجماع، ويرد إنكار القياس والاجتهاد الذي أبطله ابن حزم، وداود الظاهري قبله، لكنه كان يحترم هؤلاء لدينهم، وذكر لنا مرة من ورع داود الظاهري وزهده ما يدهش.

وهذا أمر يجب أن يتنبه له القارىء، فإن شذوذ بعض المتقدمين كان لتأويل له عندهم، مثل زيادة خوف الظاهرية من خطأ الاجتهاد والقياس، أما شذوذ العصريين فله أسباب أخرى، يجب الحذر منها، وألا نقيس عليهم أولئك السابقين فنظلمهم.

منهجه في الزهد والتصوف:

وقد سبق شيخنا عصره في الزهد والتصوف علماً وعملاً، فخرجت الدنيا من قلبه وحل محلها حب الله ورسوله، وعني بكتب الصوفية وتعمق فيها وبفهمها في ضوء الكتاب والسنة.

وكان رحمه الله يذكر ويكرر قول الجنيد رحمه الله: عِلْمُنا هذا منوط بالكتاب والسنة، ما كان موافقاً للكتاب والسنة قبلناه، وإلا رفضناه. ويورد في شرحه القول: إن ما قاله أهل الله موافق للكتاب والسنة، وكان يحل عبارات مشكلة في ضوء ذلك.

ومع هذا فقد كان يمنع قراءة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي، لأن له ـكما قالـ اصطلاحاً خاصاً به. وقد صرح في مطلع الفتوحات، أن عقيدته عقيدة أهل السنة والجماعة والأشاعرة.

وكان يرى أن التفسير المنسوب لابن عربي مدسوس عليه، وهذا هو الحق، فإن ما فيه ـ كما بين الدارسون ـ لا ينسجم مع كلام ابن عربي في كتبه، وإنما هو لعبد الرزاق القاشاني، الزائغ المتهم في دينه وعقيدته.

موفقه من مشكلات صوفية:

ونتيجة لذلك يرى أن القول بصحة إيمان فرعون ونجاته الموجود في بعض مخطوطات الفتوحات مدسوس على الشيخ، وأن الصواب ما ثبت فيها في موضع آخر أنه هالك مخلد في النار، ويستدل على ذلك بأدلة. منها:

١ ـ اتفاق النسخ على أنه في النار، بل في الدرك الأسفل من النار.

٢ ـ خلو نسخ صحيحة مقابلة من ذكر نجاة فرعون.

٣ ـ أنه لو فرضنا خلو المسألة من دليل فهي مسكوت عنها، أفما كان يَسَعُ العارف الكبير أن يسكت عما سكتوا عنه !.

ومنذ عشر سنين قدم حلب أستاذ من اللاذقية مقيم في فرنسا، مَعْنِيٌّ بالفتوحات لابن العربي، وأشرف على طباعتها على حساب المستشرقين، وقصد مع آخر مِن ذوي النفوذ في حلب قصدا الشيخ رحمه الله، وهما يظنان الشيخ سيوافقهما على ذلك القول الشاذ لشهرته بالتصوف، وقد حَكَى لي رحمه الله قصة المناقشة، وذكر لي استدلالاته السابقة، وأنهما حاولا كثيراً الحصول على تأييده، لكنه رفض، ووجههما إلى تقوى الله، والتمسك بالكتاب والسنة وما جاء على لسان نبي الأمة ﷺ.

وكان شيخنا يصف النبي ﷺ بأنه الإمام الذي لا إمام له. والذي لا يرد قوله.

كذلك كان شيخنا على اطلاع كامل، ودراية دقيقة، بآراء ابن تيمية رحمه الله تعالى، وعنده كتبه في طبعاتها الأولى القديمة جداً، وكتب تلامذته وخصوصاً ابن القيم، وكان يرى إمكان التوفيق بين الآراء بما لا يتسع المجال لشرحه هنا.

نظرة جديدة:

وقد أكسبه هذا الاطلاع الشامل على الآراء نظرة جديدة في قضايا الخلاف، فيها التوفيق بين المختلفين مما لا نعرفه عند غيره.

ومن احتكامه لأدلة الشرع أنكر على صوفية عصره ما أذاعوه من الاستخفاف بالجنة ونعيمها، واستدل رحمه الله بأن الله رغَّب فيها، وحض على اكتساب الصالحات الموصلة إليها في آيٍ كثير جداً لا يحصى.

ومن ذلك ولعمله بقواعد المحدثين حكم بأن الحوار المنقول عن أبي يزيد البسطامي مع راهب دير سمعان هذا الحوار مختلق مكذوب، لأنه نسب فيه لأبي يزيد ما لا يجوز قوله وما لا يجوز فعله، مثل ارتدائه زي الرهبان، وعقد الزنار وغير ذلك، بينما احتفل بعض الصوفية بهذه القصة، وخطب بها على رؤوس الناس خطبة الجمعة، (إنا لله وإنا إليه راجعون).

وكان شيخنا رحمه الله يُجِلّ الإمام الغزالي، أبا حامد الطوسي رضي الله عنه، وينكر على من ينال منه في علمه بالحديث، ويقرر أنه سار على القواعد، فروى أحاديث ضعيفة في فضائل الأعمال، وروى في العقيدة أحاديث صحيحة، وقد فصلنا القول في هذا.

وذكر في بعض مجالسه ـ عن شرح الزبيدي للإحياء ـ رؤيا رآها بعض تلامذة الغزالي في حياة الغزالي رأى النبي ﷺ يباهي بالغزالي، رحمه الله تعالى.

وكان يرى أن زهد الغزالي وتورعه وتوغله في محاسبة النفس وغير ذلك، صعب شديد ذهب زمانه، وأن الأيسر والمناسب لهذا الزمان زهد الإمام النووي رحمه الله تعالى.

والحاصل في منهج الشيخ هنا: أنه عَمِلَ بأدلة الشرع فهي الأساس، وعَذَر مَن نُسِبَ إليه ما يوهم مخالفتها بتأويل كلامهم على وفق أدلة الشرع، واستدل بما علم من صريح ألفاظهم الكثيرة اتباع الشرع والكتاب والسنة، وما هو معلوم أيضاً من سلوكهم الملتزم طريق التقوى والورع والزهد، فأجرى على عباراتهم قاعدة تفسير المتشابه بالمحكم، ولزوم فهم المتشابه على معنى المحكم الصريح، وجعل حكمه مبنياً على مجموع أقوال كل واحد، لا أنه يأخذ بعضاً موهماً، ويدع بعضاً صحيحاً صريحاً غير موهم، ثم إنه يتثبت قبل البحث من

صحة ما يُنْسَبُ لكل قائل، كما هي أصول الرواية والنقل!.

منهجه في اللغة العربية:

وقد عُنِي بها من بدء طلبه للعلم، كما سبق أنه قيل له: إن المناهج في الخسروية عالية المستوى في النحو، فبادر لدراسته على شيخه المقرىء الشيخ عبد الوهاب المصري رحمه الله تعالى، ثم بادر لحفظ ألفية ابن مالك في النحو سابقاً مطالبةَ المدرسة بها، وكان رحمه الله كثيراً ما يورد منها أبياتاً لأولاده يفيدهم منها.

وأما مادة اللغة ومفرداتها ودلالاتها واستعمالاتها فقد أعطاه الله تعالى ذروة التملك للثروة اللغوية، بل لأفصح ثروة اللغة، بما حفظ من القرآن الكريم المعجز، والحديث النبوي المبدع، ثم بما حفظ من أشعار، ونصوص تتضمن مفردات غريبة من اللغة، وكان يورد مقاطع من مقامات الحريري، لتمليح المجلس، فسئل فقال: إنهم حَفّظونا إياها في المدرسة.

ومعلوم أن المقامات تحتوي ثروة لغوية كبيرة، بل إنها وضعت لتكون وسيلة لحفظ اللغة.

وأما الأدب فكفاه حفظه للقرآن والحديث ثم ما أشرنا إليه من الشعر، إضافة لملكته الفطرية بإرهاف حسه، ورقة مشاعره وعواطفه، فكان أديباً بطبعه، وهذه كتبه واضحة الدَّلالة على مقدرته البيانية، مهما كان الموضوع الذي يبحثه عميقاً، وقد ذلل للطلبة علم المصطلح بشرحه للبيقونية، وعرض لطائف في إعجاز القرآن في تفاسيره للسور التي فسرها، وبسط ذلك بأسلوب سهل لا يصعب على القارىء.

وكان لشيخنا رحمه الله ذوق للأنغام، فكان يتخير من الأناشيد الدينية والمدائح النبوية أعذبها وقعاً، وأسلسها نظماً، وأرقها عاطفة،

وأعلاها فناً، وكان لهذا شديد الإعجاب بالمنشد المشهور بكري الكردي رحمه الله يحرص على سماع قصائده، بل ربما أوصى بالسعي لتحصيل بعض التسجيلات النادرة له، حتى يحصل عليها ويسمعها، لا سيما في فترات استراحة أو نزهة، أو جولة استجمام.

بل إن الشيخ كان شاعراً مجوداً، له قصائدُ نشرَ بعضاً منها في مؤلفاته، لكنه لم يصرح بأنها من نظمه، واكتفى بالقول: ويرحم الله القائل. . . ويذكر الأبيات.

ومن شعره رحمه الله تعالى هذه القصيدة في الابتهال إلى الله، وهي نافعة لتحصيل المطالب ولدفع البلاء أو المرض:

يـا إلهـي يـا مجيـب السـائليـن ... بالنبي الصادق الهادي الأمين
اشـرحِ الصـدرَ ويَسِّـرْ أمـرنـا ... وأَعِنَّـا يـا قـويُّ يـا متيـن
يـا إلهـي يـا رجـاء المـرتجيـن ... بالكلام المُحْكَمِ الحقِّ المبين
بضيـاء وجهـك النـور الـذي ... نـوّر العَـرْشَ وعـمّ العـالميـن

* * *

وصـلاة الله تتـرى دائمـاً ... مـعْ سلامٍ آبِدٍ فـي الآبِديـن
لـك تُهْـدَى يـا إمـام الأنبيـا ... ولأهل البيت فخر الطاهرين(١)

* * *

---

(١) وسنذكر القصيدة بتمامها في ختام الكتاب إن شاء الله تعالى، فراجعها، واستحفظها وادع بها.

آراء الشيخ الإمام العلمية

اجتهاده في نشر العلم:

إن ما أعطاه الله تعالى لشيخنا في باب نشر العلم النافع هو إكرام عظيم من الله تعالى، يفوق كرامات الخوارق للعادات، وذلك لغاية فضل هذا العمل، ولغاية علو المنزلة التي يرتقي إليها، ونعني هنا مَنْ جمع بين تحصيل العلم النافع ونشره والعمل به، ولظهور المدد الإلهي له في تأليفها بهذه الكثرة، مع كثرة أشغاله، وغاية سداد كتاباته.

وقد حاز شيخنا من السبق في كل جانب من هذه ما لا نعلم أحداً وصل إليه في عصرنا هذا، فقد اشتغل بتحصيل العلوم بأنواعها، حتى شمل المطولات دراسة واستحضاراً، ثم عمل على نشر العلم بدروسه القيمة العجيبة، ثم أضاف لذلك تخريج من ينشر العلم على منهاجه العلمي السديد، بافتتاح مدرسة التعليم الشرعي، ثم أردف ذلك بالتآليف القيمة النافعة، التي تخرج دارسها عالماً، وكان في ظل هذه الأحوال على غاية الورع والتقوى ورفعة النفس، وسمو الخلق ولين الجانب والتواضع.

ولا شك في علو هذه الفضائل، وعظمة الكرامة من الله بها.

ونحدثك أخي القارى عن ذلك حديثاً قيماً عسى أن تنتفع، وتسلك

هذا الطريق، الذي هو طريق ورثة الأنبياء، وحديثنا هذا هو اقتباس من شيخنا نفسه إذْ قال في هذا وهو يتحدث عن والده (ص ٢٣٠_٢٣٣):

«ومن المعلوم أن كلاً من العلم النافع والعمل الصالح، وتعلم علوم الشريعة وتعليمها، ونشر علم التفسير وعلم الحديث النبوي الشريف، وتعاليمهما، والتوسع في ذلك، وما يترتب على ذلك من نفع العباد، وإصلاح أمور دينهم ودنياهم، وحسن أخلاقهم، وتنشيطهم للأعمال الصالحة، والبعد عن المحرمات وما هنالك، هذا فيه ثواب عظيم، وأجره عند الله تعالى كبير، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة. والحمد لله رب العالمين.

أما العلم النافع، وهو: علم الشريعة، وما تشتمل عليه من عقائد إيمانية، وأمور عملية وقولية، وبيان أحكام الحلال والحرام، والأوامر والمناهي وما هنالك، فهذا العلم هو الميراث النبوي المحمدي ﷺ، الذي من أخذه أخذ بحظ وافر كبير، وفضله عظيم لا يعلم قدره إلا الله تعالى.

جاء في الحديث، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَلَكَ طريقاً يلتمس فيه علماً: سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإنّ العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومَن في الأرض، حتى الحيتان في جوف الماء».

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب.

وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لَم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً

إنما وَرَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١].

وروى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وروى ابن ماجه وغيره عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنهم، أن النبي ﷺ قال: «مَن عَلَّمَ علماً فله أجر من عَمِلَ به، لا ينقص من أجر العامل شيء»[٢].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بالعالِم والعابد، فيقال للعابد: أُدخل الجنة، ويقال للعالم: قِف حتى تشفع للناس»[٣].

هذا وقد ذكرت في مناسبات متعددة جملة من الأحاديث الواردة في فضل العلم والعلماء. والحمد لله رب العالمين.

وأما فضل نشر الأحاديث النبوية وتعليمها، وتبليغها للناس، فقد جاء في ذلك جملة كبيرة من الأحاديث الشريفة النبوية عنه ﷺ، أذكر طرفاً منها:

جاء في الحديث، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فَربَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع»[٤].

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وابن حبان في (صحيحه) والبيهقي. اهـ وانظره في (تيسير الوصول) و(جامع الأصول).

(٢) كذا في (الترغيب).

(٣) قال في (الترغيب): رواه الأصبهاني وغيره، ثم أورد نحوه من طريق البيهقي وغيره.

(٤) قال في (الترغيب): رواه أبو داود والترمذي، وابن حبان في (صحيحه) إلا =

قال الحافظ المنذري: «نَضّر» بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها حكاه الخطابي، قال: ومعناه: الدعاء بالنضارة، وهي النعمة والبهجة والحُسن، فيكون تقديره: جَمَّله الله تعالى وزيَّنه. وقيل: غير ذلك. اهـ.

وقد قال كثير من العلماء المتقدمين: مِنْ علامة المحدثين نُور في وجوههم، وحسن وجمال، بسبب دعوته ﷺ لهم بالنضارة.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضَّر الله امرأً سمع منا حديثاً فبلَّغه غيره، فَرب حامل فِقْه إلى مَنْ هو أفْقَهُ منه، ورُبَ حامل فقه ليس بفقيه» الحديث.

وروى الطبراني في (الأوسط)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي».

قلنا: يا رسول الله ومَنْ خلفاؤك.

فقال ﷺ: «الذين يأتون مِنْ بعدي، ويَرْوُون أحاديثي ويعلّمونها الناس». انتهى المطلوب من كلامه.

وهنيئاً هنيئاً هنيئاً لمن بلغ هذه المنزلة.

خصوصية رأيه العلمي:

تميز شيخنا بحصافة الرأي، واتِّزان الفِكر، فلا يحيد عن دلائل الشرع بتكلفات أو تمحلات، تأثراً بعاطفة، أو مسايرةً لنزعة أو تيَّارِ ما، وقد ذكرنا جملة من آرائه، لمناسباتٍ اقْتَضَتْها ترجمته، كما أن كتبه مليئة بالدراسات المبتكرة والآراء العلمية القيمة، وكلها تدل على سعة العلم وحصافة الرأي

= أنه قال: «رحم الله امرأ» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. اهـ.

وقد ذكرنا من آرائه ومناقشاته في أثناء الترجمة هذه المسائل:

هل فرعون مؤمنٌ ناجٍ؟.

العقل والدين.

نعيم الجنة.

التوسل.

القلق على قبول العمل الصالح.

قراءة قصة المولد.

الصلاة على النبي ﷺ مناجاة معه.

علامة حب العبد لربه اتباعه لنبيه.

اذهب إلى الزهد للنووي.

أدعية وأوراد لطالب العلم.

ظهور الجهل يؤكد نشر العلم.

عصمة النبي ﷺ وقصة الفداء لأسرى بدر.

آراء ومناقشات فريدة:

ونذكر لك أخي القارىء هنا مناقشات وآراء فريدة مهمة التقطناها وحفظناها من مجالسه التي أكرمنا الله تعالى بها، لم يكن معنا أحد من الناس، أو بحضور نفر قليل، مما يجعل لها أهمية متميزة.

وتزداد أهمية هذه الآراء بما فيها من تلخيص وإحكام عجيب، وأنها معالجة واقعية أيضاً، والفضل لله سبحانه وتعالى.

فمن ذلك هذه المجموعة:

١ ـ هل كان قبل آدم أوادم:

سبب البحث أنه دار بحث بيني وبين زميل جامعي من قسم الفلسفة رحمه الله تعالى حول آدم، فهو يرى أن الحياة قديمة جداً على الأرض ترجع إلى ميلوني سنة أو أكثر، وأما آدم فلا يعرف إلا قبل مائة ألف سنة، حيث لم توجد آثار قبل هذا الزمن تدل على وجوده؟

فقلت: كوننا لم نجد آثاراً لا يدل على عدم وجوده، وربما كانت هناك آثار لم تصلنا، أو عوامل كثيرة تمنع تسجيل آدم قبل ذلك، فلم يزل الزميل يتشكك، وأشار إلى آثار سابقة على آثار هيكل الإنسان تشبه هيكل الإنسان العظمي، فقلت له محاولاً انقاذه من الشك في عقيدته: هناك قول بأنه قبل آدم وُجِد أوادم، فلعل هذه من ذلك، فارتاح لهذا.

وَطَرَحْتُ المسألة على شيخنا، ودوَّنْتُ إجابته، وأقدم للقارىء الحوار حولها وتاريخه: ١٠ شوال/ ١٤١٤ = ٢٢ آذار ١٩٩٤م. وهذا لفظه:

سألت شيخنا عن الرأي القائل: إنه كان قبل آدم أوادم: مَنْ قائله؟ وما مستنده؟ وأنا أخشى احتمال غياب معلومات عنه، فأجابني بما أراح بالي ـ أدام الله عليه تمام الصحة والنفع بالعلم [كذا سجلت].

فأجابني قال: هذا رأي الشيخ محي الدين بن العربي، وهو يفسِّر «خليفة» ـ يعني في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ـ أي خليفة عن بشرٍ سابقين في الأرض.

قال شيخنا رحمه الله: وقد بحثتُ هذا الرأي، فوجدته ضعيفاً؛ لأن الملائكة قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ وإذا كان قبله بشر يفعلون هذا لم يستغربوا ولم يقولوا ذلك.

واستدل شيخنا أيضاً بقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ﴾، فهذا يدل على أنه لم يوجد قبل آدمَ آدمُ آخر، لقوله: ﴿خَٰلِقُۢ﴾ يعني أنّ «خالق» تفيد الإيجاد على غير مثال سابق.

واستدل أيضاً بحديث البخاري الذي فيه السؤال للنبي ﷺ أخبرنا عن بدء هذه الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء.....».

وكأن الشيخ رحمه الله يشير إلى أنه عليه الصلاة والسلام فصّل في هذا الحديث وغيره خلق العالم، «حتى دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار»[1]، ولم يأت مرفوعاً في شيء من الأحاديث ذكرٌ لغير آدم عليه السلام.

واستدل أيضاً رحمه الله تعالى بحديث الشفاعة المتواتر، وفيه أن الناس لما يشتد بهم الكرب من هول الموقف يطلبون شفيعاً فيذهبون إلى آدم فيقولون له «يا آدم أنت أبو البشر»، فدلّ على أنه ليس هناك آدم آخر، وفي رواية لمسلم: «أنت آدم أبو الخلق اشفع لنا»[2].

وأشار إلى حديث المحاجّة بين آدم وموسى عليهما السلام، وفيه قول موسى لآدم: «أخرجت الناس من الجنة» ونحو ذلك من ألفاظ تفيد العموم، فدل على أنه ليس في جنس الإنسان إلا نسل آدم عليه السلام. والحديث متفق عليه[3].

---

(١) انظر الأحاديث في جامع الأصول: ٤/ ١٥ وما بعد.

(٢) البخاري في التوحيد (باب وكلم الله موسى تكليماً): ٩/ ١٤٨ ومسلم في الإيمان (باب أدنى أهل الجنة): ١/ ١٢٣ ـ ١٢٤ و١٢٧. وللحديث طرق كثيرة جداً.

(٣) انظر ألفاظه في جامع الأصول: ١/ ١٢٤ وما بعد.

قلت لفضيلته: إني أبحث عن هذا لنقرِّبَ أشخاصاً تأثروا بدراسة الأجانب، التي تزعم في شأن الإنسان ما تزعم... ! وذكرت له حديثي مع الزميل المشار إليه، وأنه ذكر لي أن حياة الإنسان ترجع إلى مليونين ونصف وأن آدم وُجِدَ ما يدل عليه منذ مائة ألف سنة ـ وذُكِرَ اسمه «آدوم».

فقلت: هذا لا يدل على أول أمر آدم أنه كان من مائة ألف، غاية الأمر أن يكون هذا مما تناقله أناس عن بعضهم فانتهى إلى مائة ألف سنة، وليس هو خبر عن عيان.

وقلت للشيخ: إن هؤلاء لا يميزون مراتب الأدلة. فقال: إنهم يأخذون عن الأجانب.

وذكرتُ نظرية دارون وأن صاحبها نفسه أورد عليها انتقاداً شديداً.

فقال الشيخ: إن الأدلة تدل على قِدَم حياة الإنسان على الأرض، واستشهد بآية: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فقوله:

﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ جاءت لبيان غاية كثرتهم، ما يدل على غاية قِدَمِ الحياة، فضلاً عما كانوا عليه من طول الأعمار، كان الرجل من عاد يعمِّر ثلاثة آلاف سنة... ونوح لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاش بعد الطوفان ما شاء الله..

واستدل بحديث خطبته الطويلة عليه الصلاة والسلام حتى كانت الشمس على الجبال وقوله فيه:

«ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي آخر خطبة طويلة في أبواب الفتن (ما أخبر به النبي ﷺ

ووافق الشيخ على أن القول بأن هناك أوادم قبل آدم يصلُحُ «سَنْدةً»، لتقريب مَن يُخشى تزلزل اعتقاده تأثراً بالأجانب.

٢ ـ حول آداب طالب العلم والعالم:

زار الشيخ عدد من طلاب العلم، فصار يحدثهم عن آداب العلم والعلماء، وأنهم يجب أن يطلبوا العلم لوجه الله تعالى، لا لغاية دنيوية، من شهرة، أو منصب، أو غير ذلك، وأن عليهم أنْ يعتزُّوا بالعلم وأنْ يُعِزُّوا العلمَ ويكرموه، ثم ذكر التواضع من جملة خصال العلماء والصالحين.

وهنا توجيه مهم، عُنِيَ به العلماء، وخصوا به طالب العلم لغاية أهمية ذلك في تكوين شخصيته، ثم في سلامته في دنياه وآخرته.

٣ ـ علامة حب العبد لربه تعالى:

يتوهم كثيرون أنهم يحبون الله تعالى، فكيف تعرف حقيقة أمرك، أو كيف تتوصل إلى تحقيق المحبة لربك؟

قال رحمه الله تعالى: «إن الله تعالى جعل علامةً على حب العبد له، وهي اتباع النبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وهي شرط لمحبة الله للعبد، فإذا اتبع رسول الله نال محبة الله له، ومَن أحبه الله فقد ضمن نفسه في الدنيا والآخرة لأن محبة الله للعبد دائمة باقية، فهو لا يحب عبداً في يوم ويمقته بعده جلَّ وعلا».

وقال رضي الله عنه: إن العارف كلما انكشف له شيء من المغيبات

= أصحابه بما هو كائن . . .) وقال: حسن صحيح، ج٤، ص٤٨٣ ـ ٤٨٤ رقم ٢١٩١.

ظهر له أن وراءها أشياء أكبر لا يعرفها، فإذا عرفها ظهر له غيرها لا يعرفها، وهكذا. ولذلك قال الخضر عليه الصلاة والسلام لموسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «ما علمي وعلمك وعلم سائر الخلائق إلى علم الله إلا كما رَزِئَ هذا العصفور من هذا البحر»(١) فهذا كلام من عرف.

٤ ـ لذة العبادة:

وهي فرع من المحبة، وتعلق قلب العبد بربه.

قال رحمه الله تعالى: «هذا شهر رمضان، يجب أن يُكثر المرءُ فيه من قراءة القرآن.

وإن قراءة القرآن لها لذّة عظيمة، وكذلك سائر العبادات. وإن أولياء الله تعالى في نعيم دائم، منذ وجودهم في الدنيا، ثم البرزخ، ثم الآخرة. فيقول أبو سليمان الداراني: «إذا كان أهل الجنة على ما نحن فيه فهم في عَيْشٍ طيب..».

وقال غيره: «لو يعلم الملوك ما نحن فيه من اللذة والنعيم لقاتلونا عليه بالسيوف». ونسأل الله أن يرزقنا نعيم أكابر الأولياء في الدنيا والبرزخ والآخرة»(٢).

اللهم آمين آمين لنا ولشيخنا يا رب العالمين.

٥ ـ القرآن ورمضان:

ثم قال الشيخ لابنه الشيخ أحمد: «يجب أن تقرأ القرآن في رمضان

---

(١) الحديث طويل أخرجه البخاري.

(٢) ويُستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾. فهم من الآن كذلك، وهذا أفادنيه الوالد رحمه الله من دروس الجد رحمه الله، منذ حداثتي.

كثيراً، ولا تقرأ سواه من كتب التوحيد وما إليها. وقد أعطاك الله صوتاً حسناً، وقراءة جميلة، فاحمد الله عليها».

كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ القرآن ذات ليلة من دون أن يشعر أن رسول الله يستمع إليه. فلما انتهى قال رسول الله ﷺ في اليوم التالي: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». فقال: «يا رسول الله لو علمتُ مكانَكَ لحبَّرْتُهُ لك تحبيراً»[1].

قال بعدها الشيخ: «إن أهل الجنة يسمعون القرآن من الحق تعالى وهذا قوله: «في روضات يُحْبَرون» أي من الحبور والسرور.

ثم إن قراءة القرآن فيها رحمات وبركات لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقرآن حين يُقرأُ تتنزل معه الرحمات والخيرات.

وإن سيدنا داود عليه السلام كان يخرج يوماً في الأسبوع ليقرأ الزبور، ويخرجُ معه قومه، فإذا قرأ أُغمي على القوم حتى ينبهه ابنه سيدنا سليمان إلى ذلك فيكفّ. وكانت الجبال والطير تردد معه.

وإن أجمل صوت خلقه الله في الملأ الأعلى والأدنى هو صوت سيدنا إسرافيل عليه السلام، فهو حين يقرأ القرآن تهيم الملائكة هياماً شديداً، ويؤخذون بقراءته وصوته.

وهذا يقوي مذهب القائلين بسنية التغنّي بالقرآن، والأصل فيه قوله عليه الصلاة والسلام: «من لم يتغن بالقرآن فليس منا». فالمطلوب تحسين الصوت والنغمة حين قراءة القرآن. ومذهب المعارضين أن قوله هذا معناه (يستغن) وليس «يتغن»، وهذا مردود. انتهى.

---

(١) رواه البخاري ومسلم ،ومعنى «لو علمتُ مكانَكَ»: لو علمتُ أنك تستمع قراءتي.

٦ ـ حكمة الصوم:

ذكر فضيلته ناقداً ما جاء في حديثٍ مُتَلْفَزٍ يذكر أن حكمة الصوم أن يذكر الأغنياء بالفقراء قال فضيلته: فماذا يتذكر الفقراء ؟!.

٧ ـ العبادة:

ذكرت مرة القول في الحديث التلفزيوني نفسه: أنه يقرر ويؤكد ما قرره في محاضراته أن العبادة ليست غاية مقصودة بنفسها إنما هي وسيلة لتهذيب النفس!!

وقلت: هذا يفتح الباب للفلاسفة أن يقولوا: إن أصحاب النفوس المهذَّبة لا يحتاجون إلى تكليف. وهو ضد قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

وقال الشيخ محي الدين نجل شيخنا وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾.

وشيخنا يقرر ما قلناه، وهو من ثمار تعليمه، جزاه الله عنا خير الجزاء.

٨ ـ كيف نفهم القرآن:

عرضت على شيخنا بعض أفهام شاذة عصرية لآيات قرآنية، فأنكرها، وانتقد صاحبها، ثم قال: «اللهم فهِّمنا القرآن على طريقة السلف الصالح: الصحابة والتابعين، إن هذه الأفهام المعاصرة توهم أنهم ما فهموا القرآن».

يريد التي تعارض فهمهم، أو تخالف منهجهم في التفسير، وإلا فإن للشيخ أفهاماً سبقت العصر في كتبه في التفسير، وفي كتابه (هَذِي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان).

وكان من آخر كلامه أن قال: «إن الله سائلٌ كل متكلم عن كلامه، ماذا أراد به، ولماذا قاله».

وذكر الشيخ ـ في أثناء حديثه عن تفسير القرآن في ضوء كلام السلف وألا نخالفهم ـ كلام سيدي أحمد الرفاعي لأهل زمانه: ما لكم تقولون: «قال فلان، قال فلان (يعني من الصوفية) ولا تقولون: قال مالك، قال الشافعي...».

قال شيخنا: قال الشافعي: «إنْ لم يكن العلماءُ أولياء هذه الأمة فليس لله ولي» يعني العلماء العاملين.

وأقول أنا كاتب هذه الأسطر: إن الأولياء صاروا أولياء بأخذ علم الشرع عن هؤلاء الأئمة والعمل به.

٩ ـ مفهوم الرابطـة:

وقع في قضية الرابطة بين المريد وشيخه وتفسيرها اختلاف: فالشيخ منلا رمضان البوطي رحمه الله يرى أنها المحبة، وبعضهم يغلو أكثر من ذلك، وبعضهم بلغ في الغلو أن يستحضر شيخه في أثناء عبادته أو ذكره لله تعالى، وربما وضع بعضهم صورة الشيخ أمامه وصار يذكر: الله الله الله...

فدار حوار بيني وبين شيخنا دوَّنته في المذكرة...

وهذا الحوار دار بيني وبين شيخنا غرة ذي الحجة ١٤١٤ هـ = ١/٥/١٩٩٤ مساءً أسوقه للقراء:

سألت الشيخ عما يسميه بعض المتصوفة بالرابطة، وهل يمكن أن نفسرها بأن يستحضر المريد شيخه في أثناء عبادته أو ذكره لله؟ وذكرت له تفسير الشيخ منلا رمضان البوطي رحمه الله تعالى: الرابطة هي المحبة (وهو معنى سليم).

فقال: الأصل هو أن يستحضر الإنسان أن الله مطلع عليه، فإذا صعب عليه ذلك قَرّب ذلك بأن يتصور لو أن الشيخ اطلع عليه كيف يكون حاله وكيف يخشع، . . . فيعلم من ذلك أن أمر الله أعلى وأعظم، فيردعه ذلك عن الغفلة.

وقال: هناك من يغلو أكثر من ذلك فيطالب المريد بالفناء في الشيخ (أي أن يفقد إرادته أمام إرادة الشيخ، فلا يريد إلا ما يريد الشيخ، ولا يفكر إلا بما يفكر به. . .)

قال مستنكراً بقوة: الشيخ إنسان مثلك، كيف تفنى فيه؟!! افنَ في رسول الله ﷺ.

ثم انتهى إلى القول: إنه لا مانع في الرابطة مِن تذكر أحوال العلماء الورعين وأهل الخشية والخشوع، لأن ذلك يحضر القلب ويخشعه.

قال كاتبه عفا الله عنه: وكنت سُئِلتُ عن الرابطة في محاضرة ألقيتُها في مجمع أبي النور فقلت:

لا يستغني المسلم عن مرشد من أهل العلم والعمل والورع يأخذ عنه، لأن أعمال الإسلام، وأحكامه نظرية، والقدوة توضحها، وتحث عليها، وتثير العزيمة لأدائها، فالرابطة تعني صحبة الشيخ العالم العامل الورع، والنظر في أعماله وأحواله يتعلم منها، فرؤية وضوء الشيخ لها فائدة، سماع دعائه له فائدة، رؤيته خاشعاً في صلاته له تأثير عظيم، رؤيته ذاكراً خاشعاً لله تعالى معظماً. . . وهكذا. . . كل ذلك له أثر عظيم.

وأضيف الآن: إنه مِن هنا يحكم بعضهم على الشيخ من تلامذته الخواص، لأن حاله يسري إليهم، وإن لم يشعروا.

اللهم اجعلنا نتبع المهتدين المتقين. واجعلنا للمتقين إماماً.

١٠ ـ التزكية والعلم:

بالغ بعض المتصوفة في التزكية، وجعلوها الدين كله، وغضوا من العلم بالدين، بل ازدروه، حتى لم يَعُدْ في نفوس أتباعهم رغبة في دَرْسِ كتاب، ولا قراءةٍ ولا تفقه، وصاروا بسبب ذلك يخبطون في كثير من عباداتهم ومعاملاتهم على عمياء، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وقد عالج شيخنا في مجلسه السابق هذه القضية بما دونته كما يأتي:

تحدث رضي الله عنه عن موقف رسول الله ﷺ من العالم وهو التزكية: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾. وقال عن الذين يستخفون بالعلم: يستشهدون بقوله تعالى في وصف رسوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ويهملون بقية الآية: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

التزكية أمر مطلوب، لكن لا يجوز إهمال بقية الواجبات التي جاء بها رسول الله ﷺ بحجة التزكية.

قال: وقد توسعت في دروس كثيرة عن التزكية، وإني أصحح أخطاء يقع فيها بعض المشايخ بطريقة لطيفة.

فقلت: ليت هذه الدروس تُنْسَخُ وتُراجع وتطبع ويذكر فيها تصحيح مفهوم الرابطة ، فإن الناس بحاجة ماسة لذلك، وطريقتكم في تصحيح الأغلاط ممتازة جداً، لا تثير نقمة أصحاب الأخطاء الذين تصدر عنهم وربما يصرون عليها.

وقد كان بعض المتصوفة الجهلة، وأدعياء الوصول والتوصيل إلى

الله تعالى عندما يعلن الشيخ تصحيحه لأخطائهم التي يعلنونها، مستدلاً بالأدلة القطعية من الكتاب والسنة النبوية كانوا يجيبون عن أدلته بأنهم يتشككون بتأثره بمنهج مخالف لأهل السنة، وهم يعلمون قطعاً بطلان زعمهم هذا لكنه الحسد والعجز.

١١ ـ اختـلاط المـراتب:

كان شيخنا رحمه الله يكرر الحديث عن اختلاط المراتب (كما سماه) عند المسلمين، ويظهر منه الأسف الكثير.

وذلك هو تجاوز الإنسان حدوده، وادعاؤه ما ليس عنده من مناصب العلم، أو مراتب الولاية، ثم مغالاة العوام فيمن يتبعونه مغالاة عظيمة تُضِرُّ بمن يوالونه في الدنيا قبل الآخرة، وتُضِرُّ بهم في آخرتهم.

وكان أحياناً يقول فيمن يتجاوز حدّه، فيقول: كل واحد يدعي أنه قطب، هو ثلثا قطب. يريد ثُلثي اللفظ، وهما الحرف الأول والثاني...

وقد سألته عن ذلك فقال: إنهم أصبحوا يطلبون العلم لغير الله، وأصبحوا يتقربون به، كل واحد يتقرب لجهة أو شخص، كما أنه ذكر في مناسبة أخرى: اختلاط مراتب التدين، بالدعاوى التي سبق أن ذكرناها حتى صار بعضهم يزعم أنه يبحث عن أدلة تحريم نكاح المتعة، أو غير ذلك. وكان يتخوف علينا أن نتأثر بتلك الآراء، وعلى بعض الإخوة الفضلاء كذلك.

وقال مرة بمناسبة ذكر المنافسات وما يحصل بسببها: **أما أنا فإني أحتكم فيهم إلى رسول الله ﷺ فمن أمرني أن أصْفَحَ عنه صَفَحْتُ،**

ومن أمرني بمؤاخذته فَعَلْتُ، فالأمر لرسول الله ﷺ وليس لي شيء، هذا هو مدهبي

وأنشد هذين البيتين:

تبـارك مـن أجـرى الأمـور بحكمـة
كمـا شـاء لا ظلمـاً أراد ولا هَضمـا
فمـا لـك شـيء غيـر مـا الله شـاءه
فإن شئت طب نفساً وإن شئت مُتْ كَظْما

وقال لي مرة ـ وكرر ذلك في مناسبات لذكر ادعاءات من بعض المشايخ أنه وحده يوصل إلى الله، وما وقع من مبالغات في ذلك ـ قال: أنا لست شيخاً، أنا رجل علمٍ وتعليم، تركت المشيخة لأصحابها. أي الزعامة الدينية.

وكان رحمه الله يحذّر من ادعاء العلم، ويستشهد بالحديث في آخر الزمان يظهر أناس يقولون: «من أعلم منا، من أقرأ منا، من أفقه منا» أو كما قال.

١٢ـ حصر الوصول إلى الله بـورد معين:

يُلْزِمُ كثيرٌ من المتصوفة المريد بما يطلبه الشيخ، ويحصر الوصول إلى الله تعالى بما يلقنه من وردٍ أو أدعية وأذكار.

فانتقد شيخنا هذا الإلزام وهذا الحصر؛ لأنه غير شرعي، فأوراد الطرق وأذكارها اختيارات للمشايخ الفضلاء رحمهم الله، ليس فيها إلزام وحصر بها دون غيرها، إنما اختاروها تسهيلاً على العوام، فإذا توصل المريد لمعرفة أذكار وأدعية غيرها فلا مانع من ذلك.

ودعا شيخنا إلى تحكيم القرآن والحديث، فإنهما خصّصا أنواعاً من الذكر، وأطلقا وعمّما، فمما خصصاه التهليل (لا إله إلا الله)،

والتسبيح (سبحان الله) والتحميد (الحمد لله) والاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ.

وجاء الإطلاق كثيراً في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وغير ذلك من الآيات.

وإن أفضل الأذكار هو القرآن الكريم، وهو سبيل الوصول إلى الله تعالى، فليكثر المسلم من القرآن، وليتدبر معانيه.

١٣ ـ بضاعة الإمام الغزالي الحديثية:

نقل بعض الفضلاء عن الغزالي قوله عن نفسه «بضاعتي في الحديث مُزْجاة»، ومن ثم أدخل التهوين والغض من كتبه في قلوب قرائه غير المميزين للأمور، وأضر بهم ضرراً كبيراً.

وفي مجلس مع شيخنا ذكر شرح إحياء علوم الدين لمحمد الزبيدي: (إتحاف السادة المتقين) وأثنى على تخريجه أحاديث الإحياء، تخريجاً عجز عنه العراقي في بعض المواضع، من الأحاديث الغريبة.

قلت: هذا يدل على سعة الغزالي في الحديث، فكيف يقول عن نفسه: بضاعته في الحديث مزجاة؟، وقد وُجِدَتْ مرويات كثيرة عنده هي عند ابن أبي الدنيا ونحوه؟

قال رحمه الله: هذا تواضع من الغزالي، ما كان العلماء يقولون: «نحن كذا، نحن كذا.. لكن تلامذتهم جاءوا ووصفوهم بتلك الصفات».

قال: مشى الغزالي على القواعد في رواية الأحاديث الضعيفة (غير الموضوعة) في الفضائل، وروى في العقائد الأحاديث الصحيحة.

أقول الآن أنا كاتب السطور: «إن الغزالي عالم بشروط قبول الحديث، وهو مؤلف مرجع عظيم في أصول الفقه هو (المُسْتَصْفَى)، وفيه بحث كبير في السنة وشروط العمل بالحديث، وقد وجدت أحاديث كتبه في «مراجع ابن أبي الدنيا» وأمثاله، فمنها ضعيف، لأن رواية الحديث الموضوع لا تحل، فما ظن أن يكون في رواياتهم شيء موضوع».

قال شيخنا رحمه الله: ذكروا أنهم وجدوا تحت وِسادته بعد وفاته ورقة كتب فيها الآية: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

١٤ـ تأويل الرؤيا:

عالم الرؤيا في المنام واسع الأطراف، كثير الاحتمالات، تدخل فيه هواجس النفس، ورغباتها، ومخاوفها، وشفافية روحها، وقد انحرفت مدرسة التحليل النفسي وقصرت الرؤيا على جوانب من رغبة النفس، أو غريزتها، فقصّرت تقصيراً عظيماً، بإغفال ما هو واقع من نبؤات، أو رموز كثيراً ما يتنبه لها صاحب الرؤيا نفسه، حين وقوعها.

لكن هذا الباب باب الرمز في الرؤيا يفهم بجلاء في ضوء علمٍ خصّ الله به بعض أهل العلم والصفاء، وكان لشيخنا الإمام في هذا الباب نظر دقيق، وملاحظات عجيبة.

وكان يعتمد في هذا أصولاً علمية، نشير إلى بعضها، مثل موقع الأمر المرئي في القرآن، كما ذكروا أن مَن رأى خُشباً مسندة إلى جدار، فمعناه أنه سيجتمع بمنافقين. لقوله تعالى في وصفهم ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ﴾ [المنافقون: ٤].

كذلك بلحظ الاشتقاق وأصل الكلمة، مثل «صلاة العصر» تفسيرها

الأمر في الوقت الحالي. لأن هذا أصل معنى العصر.

وغير ذلك مما لا مجال لبسطه هنا.

وقد كان للشيخ رحمه الله تعالى باع طويل في هذا الباب، ما سألناه عن رُؤْيا إلا عبّرها تعبيراً دقيقاً مطابقاً.

وأذكر مثالاً من لمحه الدقيق في الرؤيا أنه رأى والدته رحمها الله تعالى مع سيدنا زكريا عليه السلام، ففسرها بأنها تعيش تسعين سنة، لأن هذا كان عمره عليه السلام، وكان الأمر كذلك، مع كثرة أمراضها، ووهن جسمها رحمها الله تعالى.

على أنه رحمه الله تعالى كان يكره الإسراف في الاهتمام بالمنامات، ولو كان فيها بُشْرَيات، وكان بعض إخوانه الوثيقي الصلة به، يكثر من قصّ مناماته، فأرسل إليه الشيخ ينبهه بلطف.

ولهذا فإنا نريد القارىء الكريم ألا يشغل ذهنه باتباع المنامات، عليك أن تتعامل مع اليقظة، وما يناسب أمورك من التصرف، ثم إن رأيت خيراً تتفاءل وتدعو الله بتحقيقه، وإن رأيت غير ذلك، فتعوذ بالله تعالى، وانفث على يسارك ثلاثاً، وتوجه إلى الله بالدعاء والاحتماء به، واتق الله فإنه لا يضرك ما رأيت، هذا هو العلاج.

١٥ـ لماذا السنة والجماعة:

هذا اصطلاح شائع على أتْباع الأئمة الأربعة ومَنْ على مناهجهم رضي الله تعالى عنهم، قال شيخنا رحمه الله تساءلت منذ زمن بعيد، لماذا هذه التسمية «السنة والجماعة» ولماذا لم يكتفوا بوصف «أهل السنة»، حتى قالوا «أهل السنة والجماعة»؟.

ثم نظرت فرأيت كل فرقة تدعي أنها أهل سنة، وأنها تتبع السنة، فكان لا بد من تمييز الأمور بعضها عن بعض.

وذلك أن النبي ﷺ علم أصحابه القرآن وفسّره لهم بسنته القولية والعملية ، فأخذ الصحابة ذلك عنه، وعملوا به كما تعلموه، ثم علموه لمن بعدهم وهم التابعون.

ثم علّم التابعون ذلك مَن بعدهم وهم أتباع التابعين، وأهل السنة أخذوا علم القرآن والسنة وشرحهما والعمل بهما تلقياً عن الأئمة الأتقياء الأجلاء من أتباع التابعين عن التابعين عن الصحابة عن رسول الله ﷺ، لذلك سمّوا أهل السنة والجماعة أي جماعة الصحابة والتابعين الآخذين عنهم، وهكذا. . . فهي سلسلة وثيقة، متصلة إلى رسول الله ﷺ، وذلك هو صِمام الأمان، وسبيل النجاة والسلام.

❋ ❋ ❋

آثار الشيخ الإمام العلمية

في فترة نشأة الشيخ وتدريسه رحمه الله كثرت البحوث عن الإسلام، المعروفة بالكتابات الإسلامية، أو الفكرية. وكانت تُعْنى ببيان حكمة التشريع كما يعبر علماؤنا القدامى، وتُعْنَى بالجوانب الاجتماعية.

وهذه الدراسات قد تنفع في إزالة شكوك عن صلاحية الإسلام لنظام الحياة الحديثة، لكنها لا تزوّد قارئها بما يجب علمه من أحكام الفقه الذي هو نظام الحياة، لا في العبادة، ولا في المعاملة، إلا قليلاً.

هذا فضلاً عما يحمله كثير منها من انطباعاتٍ للكاتب، أو تصوّرات شخصية للمؤلف، ليس لها مستند صحيح من أدلة الشرع، ولا مناهِج أهل العلم، بل إن بعضاً ليس بالقليل من هؤلاء راح يستخف بالفقه الإسلامي وثروته التشريعية الضخمة، يسميه (فقه الأوراق)، وآخر يسميه (الفقه التقليدي)، اغتراراً بما استحسنه من آراء متأثراً بمؤثراتٍ غريبة عن الدين.

توجه الشيخ وجهة جديدة:

أما شيخُنا رحمه الله فقد توجّه في دروسه وخطبه وكتبه وجهة

علمية دينية، وإيمانية عرفانية، وقرآنية حديثية، أو بعبارة أخرى (وجهة محمدية)، يتمثل فيها توجيهات كلام الله وحديث رسول الله ﷺ، فجاءت دروسُه وكُتبه تُلَبّي حاجة المسلمِ الإيمانيةِ والعلمية، وتروي ظمأ روح المؤمن، كما تُوَثِّقُ صلَتَه بالله وبسيدنا محمد رسول الله ﷺ.

كذلك حرص على إمداد المجتمع بالمعلمين الذين ينشرون العلم، تعليماً مَبْنِيّاً على أصول العلم الصحيح، وعلى أخلاق المعلم المقتدي برسولِ الله ﷺ، فافتتح مدرسة التعليم الشرعي، ثم جعل لها مصدر تمويل، هو جميعة التعليم الشرعي، لكي تسير قُدُماً في المستقبل. (اللهم عَمِّرْها مدى الزمن).

أول كتـاب يصدره:

وكان أول كتاب يصدره الشيخ كتاب **(الإيمان بعوالم الآخرة)**، فرغ من تأليفه سنة ١٣٧٠هـ وكان له موقع عظيم، بوفاء هذا الركن الإيماني ما يجب، وإيقاظ الناس لآخرتهم. ثم وسّعه أربعة أمثاله سنة ١٣٩٧هـ.

ثم صدر كتابه **(شرح المنظومة البيقونية)**، في مصطلح الحديث، فرغ من تأليفه في ٢٣ ذي الحجة ١٣٧٢، ألّفه لتلبية حاجة الطلاب في المدارس الشرعية، ثم صار من يكتب يرجع إليه.

وصدف بعد سنتين أن مدرساً في كلية الآداب في دمشق أعد مذكرة في مصطلح الحديث للطلاب فتعوّص على الطلاب فهمها، فرجع بعضهم من النُّبهاء إلى كتاب شيخنا، فوجد أغلاطاً كثيرة، وروجع الدكتور الكاتب، فراجع نفسه وأصلح كتابته. كان الدكتور المشار إليه رجّاعاً للحق رحمه الله وأجزل مثوبته.

وكان لهذا الكتاب **(شرح البيقونية)** قبول عظيم عند طلاب الحديث

ومدرسيه، وكان له أثر في نهضة هذا العلم.

وقد أهديتُ منه نسخة لفضيلة أستاذنا في دراسات الأزهر العليا فضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد محمد السماحي، فطالعه، فسألته بعد مدة فقال: هذا كتاب عظيم، يدل على تمكن صاحبه، وإن كان مختصراً، لكن اختياراته ودراسته تدل على سعة علم مؤلفه. ولشيخنا السماحي تأليف في المصطلح كبير أربعة أجزاء، وقال هذا القول، لإنصافه، اللهم ارحمهما وإيانا.

تسلسل مؤلفاته وتاريخها:

ثم صدر كتاب شيخنا (**مناسك الحج**)، وهو مختصر، هو مرشد للحاج والمعتمر والزائر، وفيه فائدة تميز بها هي جمع خُطَبِه ﷺ في حجة الوداع.

وصدر كتابه القيم (**تلاوة القرآن المجيد**) سنة ١٣٨٥ الذي وسعه في المدينة سنة ١٤٠١.

وصدر أيضاً كتابه (**الإيمان بالملائكة عليهم السلام**)، ومعه بحث مختصر عن عالم الجن، الذي نجز ١٣٩٢هـ. فصار لدى العلماء والمثقفين انطباع عن توجه الشيخ للإيمان وقضاياه.

ثم صدر كتابه المختصر القيم (**الصلاة في الإسلام**)، وفيه فضائل الصلاة، وأسرارها، وعِلْمٌ دقيق في ذلك وفي أسرار تعيين أوقاتها، وفيه ردودٌ على إشكالات ومقالات مخالفين شاذين.

منقبة للعلامة الداعية الكبير الشيخ
عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى

ونذكر هنا لطيفة عظيمة، هي أن فضيلة العلامة الداعية الكبير

الشيخ عبد الكريم الرفاعي الدمشقي، رحمه الله ورضي عنه أهداه شيخنا كتابه هذا (الصلاة في الإسلام)، فما كان من فضيلة الشيخ الرفاعي إلا أن أحضر الكتاب يقرؤه بتمامه في درسه الرئيسي في جامع زيد بن ثابت، وقد أدهش هذا التواضع والتكريم شيخنا، وحرص على لقاء الشيخ عبد الكريم في دمشق، وكان لقاء روحياً عظيماً عجيباً، أكرمني الله أن سعيت لتحقيقه وحَضَرْتُه، وهي منقبة عزيزة لفضيلة العلامة الداعية الكبير الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى.

ثم صدر لشيخنا الكتاب الماتع الفريد، وهو (**سيدنا محمد رسول الله ﷺ شمائله الحميدة، خصاله المجيدة**) أنجزه في رجب ١٣٩٤ = ١٩٧٤، وكان له صدى عظيم في القلوب، ولا يزال، فهو كما ذكرنا نفحة محمدية، لمحب الذات النبوية المحمدية صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وقد قُرّر ودرس في مجالس علم كثيرة، في مختلف البلاد.

وقد ذكرت له مرة عظمة هذا الكتاب فقال: الشأن ليس في الكتاب، الشأن في المكتوب عنه ﷺ، ويشير إلى أن الكتاب لم يوف مقام النبي الكريم حقه. وهذا من نبل الشيخ، وإعراضه عن المفاخرة، رحمه الله.

وفي المدينة المنورة وسَّع كتابه (تلاوة القرآن المجيد)، ولقي إعجاباً من كل الطبقات، حتى قامت مؤسسة طبع المصحف بطباعته وتوزيعه من تلقاء نفسها.

وألف رحمه الله في المدينة عدة كتب كما ذكرنا، وشرع في كتاب (**هَدْي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان**)، ثم أكمله وطبعه بعد عودته إلى حلب، وأصل فكرته في نفسه قديم منذ كان في حلب،

بسبب دعوة بعض المتصوفة إلى تعطيل العقل.

بشارة:

وهذا الكتاب فريد في موضوعه، يدخل في التفسير الموضوعي، وقد قَرَّرْتُه على طلاب الدراسات العليا في مادة التفسير الموضوعي، فأعجبوا به كثيراً، وفيه تحقيق قضية خطيرة، هي إبطال الحديث المعروف المشهور في قصة الغرانيق، التي تُنافي عصمة النبي ﷺ، بل تتنافى وتتعارض مع عصمة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد ذكر الشيخ مراراً وسمعته بنفسي يقص رؤيا جميلة رآها بعد تأليف هذا الكتاب؟ رأى أنه مُوَكَّلٌ ببيت الضيافة الذي يَستقبل فيه النبي ﷺ الضيوف، وأن الأنبياء عليهم السلام قادمون إلى هذا البيت.

قال: فأعددت البيت ورتبته أحسن ترتيب، وصار وقت قدومهم، فبينا أنا أريد استقبالهم نظرتُ فإذا في وسط البيت سلة فيها مهملات ونفايات، فعجبت وقلت: من أين هذه، فأخذتها من وراء ظهري حتى لا يراها أحد، وقذفت بها من نافذة إلى مكان بعيد.

قال: وقدم الأنبياء عليهم السلام فرحبت بهم وأدخلتهم، ثم قدم النبي ﷺ، فَهُرِعتُ لاستقباله، وقَبَّلْتُ يده ورجله الشريفتين ﷺ.

فسأل: أين خليل الله. قلت: لما يأتِ.

وإذا بسيدنا إبراهيم الخليل قادم، قال فقال لي النبي ﷺ: سلِّم على خليل الله وسله الدعاء. قال: فسلمت عليه، وإذا هو طويل بلغ رأسي صدره، فصِرْتُ أمْسَح رأسي بصدره وأبكي، واستيقظت.

قال رحمه الله: فتفكرتُ ما سِرُّ هذه الرؤيا؟ ففهمتُ أنها بسبب كتابي (هدي القرآن الكريم) ونقض حديث الغرانيق، لأنه يمسُّ عصمة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثم صدر الكتاب الثاني من (**هَدْي القرآن**) وذكرنا سابقاً العَجب فيه في علوم الكون.

وصدر كتابه (**الصلاة على النبي ﷺ**)، وغيره.

ثم صدر كتابه العجيب (**التقرب إلى الله تعالى**) سنة ١٤٠٨، وفيه تحقيقات عجيبة في مفهوم العبادة، وكيف تشمل ما يقوم به المسلم إذا صحت نيته، وفيه بحث فريد واسع عن العبادة بالكسب الحلال، وتحقيق شروط ذلك، وغير ذلك من نفائس لا تجدها في غير هذا الكتاب، وأَخُصُّ بالتنويه تصحيحَه أموراً يقع فيها الناس بل بعض مرشدين بأسلوب لطيف يدخل قلوب الجميع.

ثم صدرت كتبه القيمة في تفسير سور من القرآن، ابتدأها بسورة الفاتحة، شمل فيها جوانب عديدة، وأتى فيها بتحقيقات وفوائد فريدة، وهي ثمانية كتب قيّمة نافعة، وكان في قصده رحمه الله تفسيراً كاملاً للقرآن، لكن لم يُقَدَّر له ذلك. ومما يلفت النظر تسميتها (حول تفسير سورة...) وذلك لأنه توسع في بحوث تتصل بالآيات أو السورة لها أهميتها في الدعوة.

آخر كتبـه:

وكان آخر كتبه طباعةً هو عنوان البر والوفاء كتابه عن أبيه (**حول ترجمة الإمام العلامة والعارف الشهير الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني، رضي الله عنه**) ضمّنه علوماً وفوائد عظيمة، لمناسبات بيان طريقة والده العلمية، وشرح اتجاهاته وآرائه الشرعية والعرفانية.

وهذا الكتاب في الواقع وصفٌ لشيخنا الجد رضي الله عنه، وهو في الوقت نفسه وصف وترجمة لشيخنا الابن الإمام الشيخ عبد الله أبي النجيب رضي الله عنه، فقد كان مقتدياً بوالده في كل ما ذكر عنه

متأسِّياً به «ومَن يشابِهْ أبَهُ فما ظلم».

وكان رحمه الله يتردد في تأليف هذا الكتاب، ثم رأى والده في الرؤيا يأمره به، فكتبه. فجزاه الله عن والده خيراً، وجزاه عنا وعن الإسلام خيراً لهذا الكتاب، وجزاه خيراً لكل ما قدم.

وقد اختتم تآليفه خير ختام بتوفيق الله تعالى، وهو تأليف (شرح أسماء الله الحُسْنَى)، لكنه لم يتم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله على ما أنعم على الشيخ، (والحمد لله في بَدْءٍ ومُخْتَتَمِ)، إنه إنعام على الإسلام، والمسلمين.

تنوع العلوم التي ألف فيها:

وقد بلغت كتبه المطبوعة خمسة وعشرين كتاباً، تنوعت العلوم التي ترجع إليها، وتنوعت مقاصدها، وكلها مراجع مهمة في أبوابها:

فمنها في الشمائل وفضائل النبي ﷺ، والصلاة عليه ﷺ كما ذكرنا.

ومنها في العقيدة مثل: الإيمان بالملائكة، والإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها، وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ومنها في التفسير، مثل سورة الفاتحة، والمعوذات، وق، والعلق.. وغيرها.

ومنها في مصطلح الحديث، وهو شرح المنظومة البيقونية وهو من أول كتبه، وقد سارت به الركبان، وقُرِّرَ في معاهد وكليات شرعية في سورية وخارجها، ونحن مدينون له أيام طلبنا في تذليل هذا العلم.

ومنها في الدعوة والسلوك وتهذيب النفوس، وما أروعها، مثل التقرب إلى الله تعالى، والدعاء، والهدي المحمدي، وغير ذلك.

خصوصيـة تفرد بها في كتبـه:

وقد أُعْطِي شَيْخُنا الإمام في مؤلفاته خصوصية تفردَ بها، هي قربها من نفس قارئها وملامستها قلبه ومشاعره، وذلك لسهولة عباراتها وقوتها، ووضوحها وغناها بالعلم في مادتها، وتلك كانت صفة دروسه أيضاً رحمه الله، وذلك لغاية تمثله كتاب الله وحديث رسوله، وهو حافظهما عن ظهر قلب، يعيش لهما ولخدمتهما والعمل بهما.

وكان رحمه الله متمتعاً بموهبة أدبية، وله أشعار في المواعظ والحِكَم، وقد ظهر أثر ذلك في أسلوب كتبه (السهل الممتنع) والذي انضم إلى موضوعاتها ليسمو بها، ويعمق تأثيرها، لذلك فإنها تجدد الإسلام، وترسخ الإيمان، وتجعل دارسها عالماً، وكان الشيخ الإمام رحمه الله يوصي بها، وهو إمام المسلمين في الصدق والنصح، بل كان يوصي بتكرار قراءاتها، وأوصىٰ بذلك بعض الخلّص من إخوانه قبل أزمته الصحية بأسبوع، وقال: لا تقولوا قرأتها، كرر قراءتها ثم كرر. وأنا كذلك أوصي بذلك، بل إن كل عالم عرفته يوصي بها، لأنها تجدد الدين، وتحيي القلوب، وذلك هو سبيل رضى الله تعالى ورسوله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾، اللهم وفقنا لإرضائك وإرضاء رسولك محمد ﷺ.

وهذا مسرد جامع لكتبه نورده لك بترتيب آخر:

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
- حول تفسير سورة الحجرات.
- حول تفسير سورة ق.
- حول تفسير سورة الإنسان.

- حول تفسير سورة الكوثر.
- حول تفسير سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها.
- شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها.
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ، خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة.
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
- الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها.
- الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العز والجلال.
- الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن.
- حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.
- مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها[١]

* * *

(١) وكلها تُطلب من مكتبة دار الفلاح ـ حلب: هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧.

من ملفوظات الشيخ الإمام
حكم ولطائف

يتمتع شيخنا رحمه الله بحكمة عالية، وموهبة أدبية رفيعة حتى يلحظ المتأمل تميز كلامه ولو كان في القضايا المعتادة، أو اليومية، كيف وهو حافظ كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ وهذه نماذج من لطائف ملفوظاته رحمه الله تعالى:

١ ـ ليسأل الصادقين عن صدقهم:

حدثني بعض الأقرباء الفضلاء قال: كنت مع بعض الأصدقاء منذ قديم، وهو من محبي الشيخ وملازمي دروسه، فسألته عن عمل عظيم عمله شيخنا فلم يعرفه. ثم إني زرت الشيخ فأدخلني غرفة الضيوف على غير عادته أن أدخل عند والدته. ثم شرع بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ ﴾. قال: سؤال الكاذبين معلوم مفهوم، فكيف سؤال الصادقين؟

أجاب الشيخ: الصادق قد يقول صدقاً يقصد به التفاخر، أو المباهاة، أو طلب مدح الناس، أو غيرذلك.

قال الأخ: فأحْسَسْتُ بعتب الشيخ عليّ، وتحذيره، لمراعاة النية

وتوجه القلب، وإبقاء العمل الصالح بين العبد وربه، وأنه كُشِفَ له عني.

قلت: القصة ترجع لما قبل أربعين سنة.

٢ ـ الله تعالى لا يُترَكُ ولا يُدْرَك:

أي أنه سبحانه لا يستغني عن فضله أحد: لا يستغني عنه أحد في وجوده، ولا بقائه، ولا حفظه، ولا إمداده ولا هدايته، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. وكما فصله الحديث القدسي الطويل الصحيح الذي يرويه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه.. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديتُه فاستهدوني أهدكم...» إلى آخره.

وهو لا يُدرَكُ سبحانه:

كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي لا تحيط به، ورؤية المؤمنين له في الآخرة ليست رؤية إحاطة. كذلك فإنه لعظمته سبحانه لا تحيط به العقول والفهوم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٨] فواجب العبد الإيمان والتفويض، والخضوع والانقياد.

٣ ـ حقائق الأشياء لا تعرف!

قال رضي الله عنه: «لا تُعرف حقيقة الأشياء، وإنما تعرف صفاتها، فكيف تعرف حقيقة ربنا جلّ وعلا».

قلت: لذا نُهِي الإنسان عن التفكر في ذات الله تعالى، وأُمِرَ أن يتفكر في صفاته، ويتأمل بدائع مصنوعاته فإنها تُعرِّف بصفاته وعظمته

سبحانه وتعالى، وقد حفل القرآن بدلائل التعريف بصفات الله وعظمته سبحانه.

٤ ـ ما هذا البدل:

قال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ① ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١-٢]. لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ يُعْرَب هنا أنه بدل مطابق، عوضاً عن قول النحاة: بدل كل من كل، فهنا لا يجوز هذا الاصطلاح.

وفي قراءةٍ ﴿ٱللَّهِ﴾ بضم الهاء، فيكون التقدير: هو الله، ويعرب لفظ الجلالة على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

٥ ـ سرّ النظم:

قال رحمه الله تعالى: وهناك حكمة خفية في نظم هذه الأسماء الإلهية الواردة هنا:

«**العزيز**»: يفيد أنه سبحانه تنزّه عن كل ما لا يليق به.

«**الحميد**»: يفيد أنه اتصف بكل الكمالات، فهذان الاسمان جامعان للصفات والأسماء الإلهية، فجيء بعدهما بلفظ الجلالة: «الله»، على أنه بدل منهما، وهو الاسم العلم الدال على الذات الإلهية، الجامع لكل الأسماء والصفات.

٦ ـ سر التسبيح والتحميد:

قال رحمه الله: وهذا مماثل لـ «سبحان الله وبحمده» فهي تعني تنزيه الله تعالى عن كل الصفات التي لا تليق به، ثم حمده يدل على أنه متصف بكل الكمالات سبحانه.

٧ ـ ما العشق:

تكلم الشيخ رحمه الله عن العشق، أصله من نبات يقال له: (العَشَقة)، هذا النبات حين ينمو على عود أو ما شابهه فإنه يلتف حولَه لفّاتٍ كثيرة، بحيث لا ينفصل عنه إلا إذا تقطع تقطيعاً، وإن الله تعالى ذكر العشق الإلهي في القرآن بمعناه، لا بلفظه، في آية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، وأشد الحب هو العشق.

٨ ـ المراتب نوعان:

قال رحمه الله تعالى: المراتب على نوعين: أصلي ومُلْحَق. فقد قال رسول الله ﷺ: «سَلْمان منا أهلَ البيت»، مع أن سلمان فارسي غير عربي، فألحقه بأهل البيت.

وذكر رحمه الله اللحاق في مناسبة أخرى، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١] . ولو تفرقوا لتنغص نعيمهم، فبالإلحاق تم النعيم، ولم ينقص السابقون من عملهم شيئاً.

٩ ـ أولياء مُدَلّلون:

قال رحمه الله: لما جاء الملكان يسألان الإمام أحمد في القبر قال لهم: أتسألانني أنا؟ لقد أمضيتُ عُمري أُعَلِّمَ الناس قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ماذا تسألان؟ فانصرفا.

ثم قال الشيخ رضي الله عنه: إن هناك أولياء مُدَلَّلين على الله، يتكلمون ولا يخافون.

١٠ ـ الأدب مع النبي ﷺ:

ذكر شيخنا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وأدبه مع النبي ﷺ:

كان لا يلبس نعلاً في شوارع المدينة تأدباً، وكان كذلك لا يركب حماراً أو حصاناً إلا خارج سور المدينة، وإذا أراد قضاء حاجته خرج إلى خارج سور المدينة.

وقد قال الإمام مالك: «ما مِنّا إلا مَن رَدَّ ورُدَّ عليه إلا صاحب هذا القبر».

أقول: وكان مالك إذا جاء مجلس الحديث اغتسل، وتطيب، وسرّح لحيته، ولبس لبساً حسناً توقيراً لحديث رسول الله ﷺ.

وإذا رفع أحد صوته في المجلس زَبَره (أي زجره)، وقال قال الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ومَن رفع صوته في مجلس الحديث كأنما رفع صوتَه فوق صوت النبي ﷺ.

١١ ـ دين ما هو طين:

كان شيخنا يتضايق من تلفيق بعض المشايخ، وفتح باب الرخص للناس بما لا يتسع له الشرع، مستندين لعبارة موهمة يتصيدونها من بعض الكتب، أو بمذهب شاذٍّ مهجور، لا يجوز الاعتماد عليه، فكان كثيراً ما يعلق على مثل هذا الموقف يقول بحِدّة: «هذا دين، ما هو طين، ما هو طين يلزق كيفما كان»!.

١٢ ـ ترقيق القلب:

قال رحمه الله: «فيه ناس بلمحة تقع الصلحة بينهم وبين الله تعالى، وفيه ناس يطول سيرهم من المشرق إلى المغرب».

يريد الحث على ترقيق القلب، والإسراع بالتوبة دائماً.

١٣ ـ ما يحركها ؟!

من مهمات الدعوة ضرب المثل، وهو باب عظيم للتأثير في

العقول بالإقناع، وفي القلوب بالتأثر والانصياع.

وكان رحمه الله تعالى كثير العناية بضرب الأمثال، واستعمال التشابيه في دروسه ومجالسه، ومن ذلك هذا المثل اللطيف البارع: ضربه وكان عنده شباب أراد أن يُفهمهم قضية الروح، فنظر إلى الستائر (البرادي) على النوافذ، وكانت تتحرك بفعل الهواء، فقال للحاضرين: ما يحركها قلنا: الهواء. قال: إذن مَنْ يحرك، مَنْ. اللطائف أو الكثائف.

قال رحمه الله: إذن اللطائف تحرك الكثائف وتؤثر فيها.

١٤ـ الإفلاس رأسمال!

قال رحمه الله تعالى: هناك طبقة من الأولياء لا يرون لأنفسهم عملاً، بل يرون أن رأسمالهم هو الإفلاس.

أقول: وهذا من كمال عقلهم، أدركوا أنهم مهما عملوا لا يؤدون ما عليهم لله من حقوق كما ينبغي له سبحانه، وهذا ما جاء في الحديث عند البخاري: «لن يُدخِلَ أحداً منكم عملُه الجنة، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

ويشير لذلك قوله ﷺ كما في مسلم: «لا أحصي ثناء عليك».

وذكر الشيخ في مجلس آخر قصة أبي مسلم الخولاني لما استسقى به سيدنا معاوية، وأصرّ عليه، فدعا رافعاً يديه قال: «اللهم إنّ معاوية استسقى بي إليك... وقد جئتك بذنوبي». فسُقوا للحال.

١٥ـ احذر الإغراب:

اتخذ بعض المرشدين، وبعض الصوفية في هذا العصر وفي أيام المنافسات في حياة شيخنا اتخذوا الإغراب طريقاً لهم في الظهور بين الناس.

وقد حذر شيخنا من الإغراب هذا، لأن أئمة الصحابة رضي الله عنهم حذّروا من التكلف في الدين أو الدعوة، ومن التماس الأشياء الغريبة، حتى صار من شعار العلماء «شر العلم الغريب».

ومما بلغني قريباً من هذا الباب قول بعض أهل العلم والتصوف: إنّ يَدَ النبيِّ ﷺ كانت نبعاً فياضاً بالماء، يريد معجزة نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وقد فوجىء المستمعون بهذا، وفيهم علماء، حتى فسّر كلامه بما قلناه، لكن يظل التعبير غير جيد، لأنه جعل المعجزة عادة، وليس الأمر كذلك.

ومن ذلك أن بعض المرشدين كان في حديقة فيها ورد جميل، فقال لجلسائه: هذا مخلوق من طيب النبي ﷺ، وكأنه يقصد حديث «خُلِق الورد من عرقي»، وهو حديث موضوع!.

والمشكل الآخر في هذا أن أحداً لا يستطيع السؤال والاعتراض لأنه قد يُتهم بقلة الأدب مع النبي ﷺ، أو ينسب لأمر هو منه براء.

١٦ ـ الوارث المحمدي:

هذا اصطلاح دارج، يبالغ بعض المريدين فيرفعون شيخهم ويصفونه بأنه (الوارث المحمدي)، من دون مراعاةٍ لحقيقة الحال، ومطابقتها لهذا الوصف.

وقد بين شيخنا رحمه الله الحقيقة، وهي أن الوارث المحمدي هو الذي علم القرآن وتفسيره والحديث ومعناه والفقه والعمل بالشرع وحقق ذلك قلباً وقالباً. . . فهذا هو الوارث المحمدي.

أقول: وهذا أمر ظاهر يجب مراعاته، وألا نتجاوز الحدود في محبتنا لأساتذتنا ومرشدينا، فإن معنى (الوارث) هذا صرحت به الأحاديث بغاية الوضوح، ومن ذلك قوله ﷺ: «العلماء ورثة

الأنبياء»، «إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم. . .»، وهذا أسلوبُ تأكيدٍ، يُعْرَف منه وارث النبي ﷺ.

اللهم اجعلنا منهم، بفضلك العظيم، يا أكرم الأكرمين.

١٧ ـ ما ينقص المسلمين:

من أوليات المهمات عند الشيخ الإمام ما يُصْلِحُ حال المسلمين، والنظر في هذا الأمر العظيم، وكان يتحدث في مجالسه كثيراً في هذا الأمر، وقد لخص أساس صلاح المسلمين تلخيصاً عظيماً كرره في مجالس كثيرة قال:

المسلمون عندهم كل شيء، يعني أن عندهم أرضاً تمتد من شرق العالم إلى غربه، عندهم ثروات طبيعية ضخمة جداً، عندهم كنوز من المعادن ومن المعادن الثمينة، عندهم كثافة كسان تؤمن اليد العاملة والجند المقاتل. . .

ما الذي ينقصهم إذن؟ قال:

لا ينقص المسلمين إلا أن يحب بعضُهم بعضاً.

إيمان لا امتنان:

ثم أردف قائلاً: محبتك للمسلم أياً كان، أمر إيماني لا امتناني، الله هو الذي ربطك بهم برباط الأُخُوَّة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]. فحصر المؤمنين بوصفهم مؤمنين على صفة لا يجاوزونها هي محبة بعضهم لبعض، وهذا يعني أنهم إذا كانوا مؤمنين فيجب أن يكونوا متحابين، بل أعلى من ذلك متآخين، وإذا نقص من هذا الحب شيء نقص من الإيمان. لأن صفة المؤاخاة مرتبطة في الآية بقضية الإيمان ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». أخرجه البخاري ومسلم.

وكان رحمه الله يُعْنَى بهذا الأساس كثيراً في دروسه ومجالسه وفي الجمعة، ويرشد إلى ما يحقق هذه الأخوة، من إفشاء السلام، وبذل العون، وإغاثة الملهوف وغير ذلك كثير. . .

وكان يحذِّر ويكرر التحذير في خطب الجمعة من عصبيات بعض الناس لأهل مسجدهم، أو حلقتهم، أو حيهم. ويقول: لا تقل: هذا من حارتنا نُسلم عليه، نساعده. . . . إلخ. ليس من حارتنا لا نسلم عليه، لا نساعده. . . هذا من جامعنا نسلم عليه نساعده. . . هذا ليس من جامعنا. . . هذا شريكنا. . . هذا زبوننا. . .، هذا يساعدنا في مصالحنا . . . . الأمر إيماني. . ، لا امتناني، يجب أن تحب كل المسلمين، وتسلّم على كل المسلمين، وتبذل العون لكل المسلمين. . .

١٨ ـ حكم على علمٍ:

تتردّد على ألسنة بعض السطحيين كلمة، يقولونها منبهرين بقوة الأجانب، ويقولون: لو وجد محمد ﷺ في هذا العصر لغيّر بعض الأحكام!!

كان الشيخ إذا ذكر هذا القول أو ذُكِرَ له عن بعض هؤلاء، يحتد كثيراً، ويشتد بالردِّ على قائله، ويقول: لقد شرع ما شرع على علم بما سيكون، وأخبر بالمخالفات لما جاء به أنها ستكون، ولو أنه وُجِدَ ﷺ في هذا العصر لأكد هذه الأحكام وشدّد عليها، وقد حرّم الربا وأخبر أنه سينتشر، حتى إن من لم يأكل الربا أصابه دخانه أو غباره. . .

وأقول للقارىء الكريم: هذا وسواس خناس، سببه الجهل، واتباع الهوى، والتأثر بالتقليد الأعمى، وإذا نظرت أحاديث أشراط الساعة

ازددت يقيناً بما ذكرتُ لك من كلامه رحمه الله.

من ذلك ما في البخاري وغيره عن أبي مالك الحارث الأشعري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «ليكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يستحلون الحِرَ [يعني الزنا] والحرير، والخَمْرَ والمعازف»[1].

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ أشراط الساعة أن يُرْفَعَ العلمُ، ويثبتَ الجهلُ، ويُشْرَبَ الخمر، ويظهر الزنا».

وعامة ما يود المرجفون تغييره يرجع إلى بعض هذه الأمور التي ذكرناها، أو يؤدي إلى بعضها، وقد حذرت الأحاديث ـ وهي كثيرة جداً ـ منها تحذيراً شديداً، إذ جعلتها من أشراط الساعة، ولا تكون من أشراط الساعة إلا إذا كانت موضع أشد المقت عند الله تعالى، وأعظم الغضب منه، وهي في الوقت نفسه مفسدة أعظم الفساد لكيان الإنسان، ومقومات إنسانيته.

تفسير ذلك للقارىء الكريم، أن كيان الإنسان يعتمد على خمسة أمور ضرورية جداً، وهي:

الدين: ورفع العلم يُخِلُّ به، لأن الجاهل لا يميز الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر...

والعقل: ومن دونه يصير الإنسان كلا إنسان، وشرب الخمر، أو المخدرات يخل بالعقل كما يفسد الجسم.... إلخ.

والنسب: لأن فاقد النسب هائم ضائع، يعيش معقداً، ولا يعرف فضائل ولا قيماً، والزنا يخل بالنسب إخلالاً عظيماً.

---

(١) انظر تخريجه وشرحه في كتابنا (إعلام الأنام): ٢/ ٢٦٠ـ ٢٦٥.

والنفس: والخمر، ووسائل الكسب الخبيثة، كذا الزنا موجبات خطيرة لسفك الدماء، والاستهانة بحرمتها، فكانت تخل بحفظ النفس إخلالاً عظيماً.

والمال: والمذكورات تضيع المال، والربا ينزعه من أيدي الفقراء والمتوسطين، وينزع التراحم والتحاب من القلوب، كما هو ملحوظ في البلاد التي ابتليت به.

فكان التمسك بأحكام الشرع، وإغلاق المنافذ التي تؤدي إلى هذه المفاسد هو الذي يجب أن يتمسك به المسلم في هذا العصر، لأنها من الدين الكامل:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

* * *

كرامات الشيخ الإمام رضي الله عنه

كراماته رضي الله عنه كثيرة، بعضها ما أشبه العادة، ومن ذلك:

١ ـ قوة مدده: وذلك أنه لما قطع مرحلة من العمر نحو الخمسين صار ضعيف البنية والتحمل، سريع التأثر الصحي، وكان يقول لأولاده: أتعبت نفسي في شبابي كثيراً، لا تنظروا إلي الآن، لكنه كان بعلو همته كثير العمل والنشاط، وقد قال الشاعر قديماً:

وإذا كانت النفوس كباراً تَعِبَتْ في مرادها الأجساد

فكيف بعلو همة الشيخ وكثرة أعماله التي تبدأ من طلوع الشمس إلى ما بعد العشاء أحياناً كثيرة، إلى جانب ما قدم من مؤلفات علمية قيمة قبل تلك الفترة وبعدها، لا شك أنها إمداد ظاهر من الله تعالى.

هذا مع ما أعطاه الله تعالى من قوة الحفظ والضبط لنصوص الكتاب والسنة النبوية، فكان رحمه الله تعالى حاضر المحفوظ من القرآن والأحاديث النبوية، لا يتوقف فيها، ولا يتلعثم، ويلقيها في دروسه متسلسلة ومتتابعة، ويأتي بالأحاديث النبوية مع بيان رواتها ومخرِّجيها، وكان له اهتمام كبير واهتمام شديد بالاطلاع على كتب الأحاديث النبوية بأنواعها: الجوامع، والسنن، والمسانيد، والمعاجم، والأجزاء، إلى ما هنالك، فيورد في تقرير دروسه جملةً واسعة من الأحاديث النبوية، في مقام الحجَّة والاستدلال، مما يدهش

أهل العلم الحاضرين، ويذكر من أحواله ﷺ وأقوال السلف وأحوالهم في الطاعة والورع وإكرام الله إياهم ما يملك ألباب السامعين أجمعين، فترى فيهم الباكي، والخاشع، والتائب. . . وغير ذلك، مهما طال الدرس. وكان الدرس يستغرق ساعة وربع ساعة غالباً، وتجدهم إلى آخر لحظة في ازدياد من انتفاع العقول بالعلم الصحيح، وتغذية الأرواح والقلوب بعلم الربانية، والفتوحات الإلهية.

وقد كان هناك خوف عظيم أن يتأثر الشيخ في هجرته إلى المدينة، بسبب الضغط النفسي، والعزلة، مع ما هو معروف به من رقة المشاعر وإرهاف الحِسّ، لكنه جاء أقوى مما كان، كيف وقد أنس بالقرب من النبي ﷺ، وهو الذي كان كثيراً ما ينشد القصيدة المحببة لوالده عليه رحمة الله، وفيها:

أصبحتَ في كنف الحبيب ومَن يكنْ ... جارَ الكريم فعيشُه العيشُ الرَّغَد

عِشْ في أمان الله تحت لوائه ... لا خوف في ذاك الجناب ولا نكد

لا تختشي فقراً وعندك بَيْتُ مَن ... كُلُّ المُنى لك مِن أياديه مدد

وكان من إكرام الله تعالى أن متعه بقواه كاملة، في المحاكمة والمباحثة، وكنت أحياناً في المراحل الأخيرة أتردد في إثارة بعض القضايا العويصة المناقشة، أو التي تحتاج لاستحضار أدلة ونصوص، لكني اقتحمت هذا، وطرحتُ ما يجول في خاطري، أو ما قد أكون بحاجة للمذاكرة فيه، فأجد عنده الفيض من العلم استحضاراً للأدلة والنصوص، والأقاويل، ثم قوة حجة ومناقشة.

وما حديثه قبيل إجراء العملية له المستفيض عن الشكر، ثم جوابه المحكم الملهم في آن واحد إلا عنوان غاية الحفظ والصون الإلهي، وهو من آثار الحفظ الإلهي، الذي جاء فيه الحديث الصحيح: «احفظِ الله يحفظْك، احفظِ الله تجدْه تُجاهك».

فهذا الذي ذكرناه كرامة عظيمة بحالها، فيها كراماتٌ للشيخ رحمه الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

٢ ـ **وكان له كشف عجيب كثير**: ومن ذلك ما وقع كثيراً لنا ولأولادنا وغيرهم من الزوار، يجلسون إليه وفي أنفسهم أمرٌ يشغلهم، فيحدثهم بما يناسب ذلك الأمر.

أخبرني منذ قليل أخ من طلاب الدراسات العليا أُشرفُ عليه قال: دخلنا قبل الحج العام الماضي (أي ١٤٢١ هـ) نودع الشيخ للحج ونحن خمسة، فكان يحدثنا بما في نفوسنا واحداً واحداً، يغمض عينيه ويقول بخشوع: الله، يَمُدّ بها صوته، ثم يتكلم بشأن الواحد، ثم يغمض عينيه ويقول: الله، ويتكلم بشأن الآخر، وهكذا، فخرجنا من البيت وتذاكرنا، فإذا هو حدثنا كلَّنا بما في نفوسنا.

٣ ـ **بل كان له كشف عن الحضور في الدرس في الجمع الكثير**، وخصوصاً في درسه الصباحي في جامع الحَمْوِي، فقد كان المستمع يحس كأن الشيخ يحادثه عن نفسه، كثيرون ظنوا أن الشيخ أُخبِر بأمورهم، وأنه يقصدهم بأشخاصهم، مع أنه ليس له علم قط بهم، لكنها شفافية الروح.

٤ ـ **تذليل العقبات الصعاب**، وإزالة ما يعارض مراده:

ومن ذلك هذه الكرامة التي تجمع كرامات وقد سجلتها في مذكرتي بقلمي:

في يوم الثلاثاء أو الأربعاء الأسبوع الأول من رمضان ١٤١٤هـ ذهبت لزيارة شيخنا وقلت في نفسي: ماذا نذكر من كرامات الشيخ لو كتبنا عنه فانطلق يحدثنا من دون أن ننبس بكلمة عن أمور جرت معه، فذكر قصة غرفة السطح في بيته السابق حول القلعة وكيف أن موظَّفَيْنِ

متتابعين أصرا على خربها ولم يقبل الشيخ ذلك، فكفاه الله شرهما، ونقلا إلى مكان آخر بل إن أحدهما أخرج من عمل الإدارة وهو الثاني، وذكر الشيخ اسمهما، وقال إنه صمم على عدم خربها لأنه أحس منهما الاستخفاف بالدين، وعرض غرامة مالية ما شاء إلى مائة ألف ليرة، لكنه رفض عناداً أو عداءً، وقال لي الشيخ: لو عزما على تنفيذ الخرب لمانعته بكل ما أستطيع.

٥ ـ **ثم تحدث عن الشعبانية وقال: «رأيت فيها عجائب**، ولم يذكر قصة الجدار، فتذكرتها من إشارته[١]، ثم قال: أردنا أن نبني نحن القسم الشمالي فقال مدير الأوقاف آنذاك (سليمان النسر): لا تكلفوا أنفسكم نحن نبنيه ونعطيه إليكم، فهذا من واجب الأوقاف، ثم بُنِيَ القسم وخرج المدير، وجاء رجل آخر يسعى من قديم ضد المدرسة، وأراد أن يمتنع من تسليم القسم للجمعية، فهيأ الله تعالى له رجلاً صالحاً قال له: يا أستاذ (فلان) الذي كان من قبلك بنى هذا، والأوقاف بنته لأجل المدرسة الشعبانية، فلا تقف أنت حائلاً دون ذلك، وهذا لا يليق بك، وإذا به يلين لكلام هذا الرجل، ثم جاء بنفسه إلى الجمعية، وقال للشيخ: أنا تحت أمركم، وكل ما تحتاج إليه المدرسة نحن نقدمه لها، وسوف نسلمكم هذا القسم، وذهب

---

(١) ذلك أن الشيخ قرر توسيع المدرسة الشعبانية بأن يبني فوق الطرف الشمالي صفوفاً، وكان بقايا جدار قديم، فكان مدير الآثار يمانع في خربه، بحجة كونه أثراً قديماً، مع أنه ليس معالم آثار قديمة، ثم أزال الله هذا المانع، وجعل أوقاف حلب تقوم بالمهمة، كما سيوضحه كلام الشيخ، ومن عجائب المدرسة الشعبانية أن الشيخ كلما أهمه أمر، ينزل إلى المدرسة الشعبانية، فيرسل الله مَنْ يقضي له هذا الأمر، وقصص ذلك كثيرة، هي في الحقيقة كرامات له، رضي الله عنه.

وأرسل المفاتيح وسلمهم القسم، ليكون صفوفاً يجري فيها الخير دائماً ولله الحمد.

وقال الشيخ: إن أمر الشعبانية عجيب، فقد كان لها أثر كبير في العلم والدين عبر الزمان، مع أنها ليست مثل غيرها في الفخامة والضخامة، (كأنه يشير إلى العادلية والعثمانية)، لكن يظهر أن بانيها كان كثير الإخلاص فنفع الله بمدرسته نفعاً أعظم وأكبر وأكثر امتداداً من غيرها».

لقد كان حديث الشيخ نفسه كرامة وأي كرامة !

أجاب عن تساؤلي الذي لم يتجاوز خواطر في نفسي، وتضمنت إجابته كرامات له رضي الله عنه.

٦ ـ **ومن كراماته رحمه الله**، أنه أخبر سنة ١٩٩٤ م عن تغير أحوال الجو، وأن الله تعالى سيغيره، وقد كان كما أخبر، فجاء الشتاء دافئاً، واستمر سنين إلى هذا العام.

وقد سجلت في المذكرة (في ١٦/ رمضان/ ١٤١٥ هـ = ١٦ / ٢ / ١٩٩٥م) أننا زرنا فضيلته وكان به وعكة، وذكر دفء الشتاء، قال: رحم الله الفقراء بهذا، لأن البرد يكلفهم نفقات التدفئة وغير ذلك.

فقلت لفضيلته: هناك أناس من الأغنياء يرون أنه لا يوجد فقراء!.

قال: كل هذا الفقر. . .، ثم يقولون: لا يوجد فقراء، لينزلوا إلى البلد ويروا!.

قلت: نعم، قُطّاع الفقراء كبير جداً.

قال: لا بد أن تحدث أمور تكشف حقائق الأغنياء: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٧ ـ **ومن كراماته رحمه الله**: وهي متقدمة في الوقوع كثيراً، أن ابنا

الشيخ كانا في دمشق وزاراني، فسافرت معهما إلى حلب، ولما وصلنا بيتهم سَبَقْتُهم متعمداً ذلك، وطرقت الباب، فكان أن فتح هو الباب، وقال: الأولاد معك؟ قلت: أنا جئت، قال أين هما؟ فلم يسعني إلا أن أقول: هما معي. ثم وضع لنا الطعام، فكشف السرَّ عن المسألة، قال رحمه الله: رأيت أن ثلاثة من أهل البيت يأكلون من هذا الطعام.

٨ ـ **ومن كراماته**: أنه رأى لما كان في المدينة المنورة رأى أن الدكتور محمد علوي المالكي سيأتيه فرج، وكان آنذاك مضيَّقاً عليه كثيراً، وقال للأخ الذي حدثه بذلك لا تذكر ذلك لأحد.

ففي هذه السنة كما دَوَّنتُ (سنة ١٤١٤ هـ) ثاني يوم عيد الأضحى، ذكرت تلك الرؤيا لفضيلة شيخنا، فقال: نعم، رأيت رؤيا كهذه، فأخبرته أنه جاء الفرج للدكتور مالكي، وأنه جاءته برقيات من الملك وولي العهد الأمير عبد الله وولي العهد الأمير سلطان يؤيدون منهجه المعتدل، وأنه أمر أحد تلامذته بقراءتها كلها أمام جمهور الحاضرين، وكان جمعاً عظيماً. وهكذا تحققت رؤيا الشيخ بعد أكثر من عشر سنين.

٩ ـ **وكرامة أخرى** في هذا المجلس دوَّنْتُها، هي أني سمعت قبل زمن **قصة الأربعة المتآخين في الله**، وقضية فاكهة المانجة، فسألت شيخنا لمناسبة ذِكْر المالكي عن قصة هؤلاء الأربعة المتآخين في الله وقضية فاكهة المانجة؟.

فقال رحمه الله تعالى: هُمْ الشيخ علوي المالكي، والسيد مكي الكتاني، وأنا، وشخص رابع في الهند ليس مشهوراً، ولم يتذكر شيخنا اسمه.

قال: هؤلاء أربعة، أقام الله كل واحد منهم مكاناً يقوم بوظيفته فيه.

وقصة فاكهة المانجة أنه بينما كان السيد مكي عند الشيخ علوي في مكة ـ وكان السيد مقيماً هناك لتضييق عليه في دمشق ـ إذ دخل رجل يحمل سلة من فاكهة المانجة فيها رطوبة الفاكهة ونضارتها على أمها، كأنها قُطِعَتْ من لحظتها، فقال السيد علوي: هذا أخوكم (يعني مرسل السلة) في الهند، أرسل هذه الهدية. (وذكر السيد علوي فيما أظن تآخي الأربعة مع بعضهم).

١٠ ـ **ومن كراماته** ما قصه بعض أحفاده، قال: دخلت مرة عند الشيخ، وكنا قد اختلفنا أنا وبعض الأشخاص في حكم اللحية، وأن فلاناً ذكر في كتاب صنَّفه أنها سنة، وقلت لهم: سأسأل شيخنا، فَسَلَّمْتُ وجلسْتُ، وفي نيتي أن أسأله عنها، فو الله ما إن جلستُ حتى التفت وقال: إعفاء اللحية واجب عند الأكثرين، هكذا جاء منه الجواب فوراً.

١١ ـ **قال**: «ودخلت عنده مرة وكان بيني وبين شخص خصومة بشأن العمل، وتخصيصه لنفسه حصة مقطوعة فقال: الناس يتقاتلون على هذه الدنيا، وهي لا تساوي فردة صرماية (نوع قديم من الأحذية الرخيصة). وحكى لنا كيف أن الدنيا تمثلت لسيدنا علي رضي الله عنه وهو في المحراب، فقال لها هكذا بيده. . .غُرِّي غيري».

١٢ ـ ومن كراماته رضي الله عنه ما قصه علينا بشأن فسح كتابه (سيدنا محمد رسول الله ﷺ):

روى لنا رضي الله عنه أكثر من مرة كيف دخل كتابه الشمائل المحمدية (سيدنا محمد رسول الله ﷺ. . .) إلى المملكة العربية

قال: هؤلاء أربعة، أقام الله كل واحد منهم مكاناً يقوم بوظيفته فيه.

وقصة فاكهة المانجة أنه بينما كان السيد مكي عند الشيخ علوي في مكة ـ وكان السيد مقيماً هناك لتضييق عليه في دمشق ـ إذ دخل رجل يحمل سلة من فاكهة المانجة فيها رطوبة الفاكهة ونضارتها على أمها، كأنها قُطِعَتْ من لحظتها، فقال السيد علوي: هذا أخوكم (يعني مرسل السلة) في الهند، أرسل هذه الهدية. (وذكر السيد علوي فيما أظن تآخي الأربعة مع بعضهم).

١٠ ـ **ومن كراماته** ما قصه بعض أحفاده، قال: دخلت مرة عند الشيخ، وكنا قد اختلفنا أنا وبعض الأشخاص في حكم اللحية، وأن فلاناً ذكر في كتاب صنَّفه أنها سنة، وقلت لهم: سأسأل شيخنا، فَسَلَّمْتُ وجلسْتُ، وفي نيتي أن أسأله عنها، فو الله ما إن جلستُ حتى التفت وقال: إعفاء اللحية واجب عند الأكثرين، هكذا جاء منه الجواب فوراً.

١١ ـ **قال**: «ودخلت عنده مرة وكان بيني وبين شخص خصومة بشأن العمل، وتخصيصه لنفسه حصة مقطوعة فقال: الناس يتقاتلون على هذه الدنيا، وهي لا تساوي فردة صرماية (نوع قديم من الأحذية الرخيصة). وحكى لنا كيف أن الدنيا تمثلت لسيدنا علي رضي الله عنه وهو في المحراب، فقال لها هكذا بيده. . غُرِّي غيري».

١٢ ـ ومن كراماته رضي الله عنه ما قصه علينا بشأن فسح كتابه (سيدنا محمد رسول الله ﷺ):

روى لنا رضي الله عنه أكثر من مرة كيف دخل كتابه الشمائل المحمدية (سيدنا محمد رسول الله ﷺ. . .) إلى المملكة العربية

السعودية، عندما كان الشيخ مقيماً في المدينة المنورة، نذكر هذا هنا بتفصيلٍ أكثر مما سبق في بعض الجوانب:

وذلك أنه أراد إدخال كمية نسخ من هذا الكتاب لتوزع في المملكة، فقيل له من قِبَلِ جماعةِ الإعلام: إن الموضوع صعب، وخاصةً لوجود البحث حول المولد، فيجب حذفه!. فأبى أن يحذفه. وأصابه هم كبير، ثم أُلْقِيَ في قلبه أنه إذا كان الكتاب مقبولاً عند رسول الله ﷺ فسيدخل البلاد لا محالة، وإن لم يكن مقبولاً فلا حول ولا قوة إلا بالله، وكان أن تقدم الشيخ بطلب فسْحَ الكتاب.

ثم رأى في النوم ـ بعد مدة ـ أنه في الحرم مع أشخاصٍ آخرين قليلين، وهناك شخص من الملأ العلوي يعلن عن مسابقةٍ حول شهادة محمد رسول الله. فيتقدمون ببطاقاتهم للمسابقة. فأعلن أولاً عن مسابقة لشخص آخر كتب على الكعبة أنها مقبولة، ثم إذا به يُكْتب على الكعبة: «شهادة محمد رسول الله من عبد الله سراج الدين مقبولة». فاستيقظ الشيخ وعرف أن الكتاب سيدخل المملكة. وكان فرحه الأكبر أن الكتاب مقبول عند رسول الله ﷺ.

١٣ ـ الفِراسة الصادقة: ومن كرامات شيخنا رحمه الله تعالى الفِرَاسَةُ الصادقة، فكان رحمه الله يميز أهل التقوى من غيرهم بالتفرس في وجوههم، ويعرف ما حال الشخص أمامه من النظر في وجهه. وقد تحدث عنها في كرامات والده (ص ١٩٥ـ١٩٦):

روى الإمام الترمذي وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] أي: المتفرسين.

وجاء في رواية ابن جرير وغيره، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، وينطق بتوفيق الله تعالى».

ومن ذلك أن شخصاً من ذوي القربى ـ فيه تصنُّع ـ دخل على الشيخ وسلم عليه حسب المعتاد، ثم مكث في الدار فترة، فقال الشيخ لبعض أهله: ما يصنع هذا هنا، اصرفوه.

ولم يكن أحد يعرف عنه شيئاً، ثم ظهر سِرّ تصرف الشيخ هذا.

١٤ ـ كذلك حدّث بعض الأرحام قال: **دخلت إليه مرة، وكنت قد نظرت إلى بعض النساء** السافرات فسلَّمْتُ عليه، **فإذا به** رضي الله عنه يذكر لنا قصة ذلك الرجل الذي دخل على بعض أجلة الصحابة، فقال له: يدخل علينا أحدكم وفي عينيه أثر الزنا، فعجبَ الرجل وقال: أَوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ قال: لا، ولكنها فراسة مؤمن صادقة.

ثم قال الشيخ: **بعض الأولياء من قوة نورهم تنكشف لهم الأمور** هكذا، قال الراوي: هكذا وجهني بكل لطف وسياسة... ففهمت وخجلت.

أقول: وهذا تفرسه فيمن يختارهم للعمل في الجمعية أو المدرسة، برهان عظيم على فراسته الصادقة، ونظرته الثاقبة في حال من يأتيه رحمه الله.

«وإن صدقَ فراسة المؤمن وإلهامَه الصادق وخبرَه الواقع جميع ذلك تابع لقوة نور الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وإن تقوى الله تعالى تقوى القلوب وتقوى الأفعال والأقوال والأحوال قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قال الإمام المفسر ابن جريج وغيره في قوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ

فُرۡقَانٗا﴾: يجعلْ لكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل».

وهذا كما ذكرنا في الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

١٥ ـ معلوم لنا وللكثير أن من عادة الشيخ أن لا يستقبل الزوّار في الأجواء الشديدة من بردٍ شديد وأمطار ورياح، ويشتغل بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى، **لكن في إحدى الأمسيات الشتوية** القارسة البرد والأمطار والرياح قال لأحد أبنائه: **الآن سيأتي ضيوف من حمص**، فأدخلهم، هؤلاء صالحون.

وما هي إلا دقائق إذا بالباب يُطرق، وإذا بالأمر كما قال شيخنا، جاء أربعة ضيوف من طلاب العلم قدموا من حمص للسلام على الشيخ، فأُدْخِلوا إليه، وتزودوا من نصائحه القيمة، ودعواته المباركة.

١٦ ـ من غير حُبٍّ لا يثمر:

كان بعض محبي الشيخ الملازمين له ذاهباً في مسير له لزيارة الشيخ في بلد غير حلب، فمرّ في طريقه بمؤسسات لقوم لهم شذوذات، فذهبت أفكاره مذاهب شتى، وبينا هو مستغرق في التفكير بهذا، وصل إلى بيت الشيخ وطرق الباب، وإذا بالشيخ يخرج إليه بنفسه، ويقول له بعد ردّ السلام:

لا يكنْ لك فِكرٌ يا ابني، . . . أي عمل من غير حُبّ لا يثمر.

لقد كُشِفَ للشيخ عن مريده، وعالجه بهذا الإيجاز، فيالها من كرامة، ثم يا لها من حكمة.

الحكمة نذكر بها كل مسلم، وكل طالب علمٍ، أن يبني حياته وعمله وهدفه على محبة الله، ومحبة رسول الله ﷺ.

اللهم إني أسألك حبك، وحب مَن يحبك، وحبّ عمل صالح يقربني إلى حبك.

اللهم اجعل حبك وحب نبيك ﷺ أحبّ إلينا من أنفسنا وأهالينا ومن الدنيا وما فيها ومن الماء البارد على الظمأ. آمين. آمين. آمين.

١٧ـ تجري الرياح:

كانت دروس شيخنا رحمه الله حافلة بالعلم من القرآن والحديث، وعجائب الإيرادات للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وبدائع الفوائد المستخرجة منها، ولطائف الإشارات والإرشادات التي تأخذ بمجامع القلوب، وتسمو بالأرواح، وفي يوم تالٍ لمجلس يوم الجمعة، زرتُ فضيلة والدي رحمه الله تعالى في محلنا التجاري، فذكر درس الشيخ وقال لي: هل تعرف كتاباً أو كتباً يُحَصِّلُ منها الإنسان مثلَ هذا، فتوقفت، وإذا برجل صالح فيه جذب، يأتي يسألني يقول: هناك بيت شعر له روايتان:

مـــا كـــل مـــا يتمنـــى المـــرءُ يـــدركـــه

تجـــري الـــريـــاح بمـــا لا تشتهـــي السفـــن

هل البيت هكذا، أو:

تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن؟ وكرر السؤال؟

ففهمت ما يريد، وقلت له المعنى على كل حالٍ واحد.

فانصرف الرجل، وفهمنا المراد.

١٨ ـ عِلْمُنَا لَدُنّيٌّ:

كان علم الشيخ مشغلة للطلاب، فهو علم مستند إلى القرآن الكريم والحديث النبوي، وكانت مادة الحديث في دروسه وافرة وكل حديث يورده مخرجاً، ويبين ما يقويه إن احتاج، ثم هو يأتي بفوائد ولطائف

عجيبة، ويخاطب النفوس والقلوب بما يهزها ويهذبها ويرقى بها.

وفي صباح يوم تناجى طالب وزميله من طلاب الشعبانية، ما منشأ هذا العلم أهو تحضير من مراجع، أم فتح من الله تعالى، وإلهام من لدنه، وحان الدرس فدخلا، ولم يكن الشيخ في المدرسة، فحضر مع دخولِ الدرس وأرسل إلى أحدهما، وقال له: يا بني، علمنا لَدُنّي.

والحقيقة أن الشيخ رحمه الله توسع في العلوم كما مهدنا من قبل، وأوتي موهبة عميقة في الاستنباط، ومارس كلام العلماء والعارفين بأسرار كلام الله ومرامي حديث رسول الله، حتى تمكّن من ذلك، ثم رزق من الصفاء ما جعل الإلهام الإلهي يتوج تحصيله ومواهبه، رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به، وأمدنا بإمداده.

ووقائع كشفه وفراسته كثيرة ذكرنا نماذج قليلة مما وقع لبعض أشخاص أعرفهم، وقَلَّ مَنْ خالط الشيخ أو جالسه لم يكشف له عن أمر في نفسه، كما أن كراماته رضي الله عنه، كثيرة جداً تملأ مجلداً، اقتصرت منها على هذا النَّزر اليسير، تذكرة فقط.

* * *

أيها الإخوة الأعزاء:

إن الخطب بوفاة شيخنا الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين خطب جليل عظيم، وإن القلب ليحزن ويهلع، وإن العيون لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إمامنا الشيخ عبد الله سراج الدين لمحزونون، لقد كنت هادينا بعد الله ورسوله، هديتنا بهدي الله ورسوله وقد تميز فضلك يا شيخنا الإمام باكتمال جوانب الفضل في العلم والعمل، اكتمالاً نادر المثال: فقد كنت موسوعة العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، حافظاً للقرآن حافظاً للحديث، وهذا وحده نادر في التاريخ الحديث المعاصر.

كذلك كنت في غاية التقى والورع، والزهد، والتحقق بمراتب الولاية، وأمور المعارف الإلهية، حتى وجدتُهم يرجعون إليك فيها.

وآتاك الله قدرة فائقة في التعليم والتدريس الخاص لطلاب العلوم والتدريس العام في المساجد، وقلَّ مَن كَملتا فيه معاً.

وإن لنا عزاء بما خلّف هذا الإمام لنا: لقد خلف أبناءه الأفاضل العلماء والصلحاء حفظهم الله ونفع بهم الأمة، وبما خلف للأمة من أعمال جليلة عظيمة النفع، عميمة الخير.

تميز بها كذلك فضل الشيخ الإمام فقد أُعْطِيَ من الآثار الباقية ـ اللهم خلدها مدى الزمن ـ ما ندر أن يتحقق:

أسس جمعية التعليم الشرعي، الفريدة في اختصاصها، وهو رعاية طلاب العلم، وأيضاً وهو مهم جداً رعاية أسر العلماء، وهذا عبء تتحمله عن المسلمين، إضافة للأهداف الاجتماعية الأخرى وهي مهمة كذلك.

وأسس أيضاً مدرسة للعلوم الدينية قائمة على مناهج علمية وإيمانية تهذيبية عرفانية، تمد المجتمع بالأساتذة المعلمين النجباء الأتقياء، ذوي المنهج الحكيم المتسم بالاعتدال.

وأسس مدرسة للحفاظ سنة ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م لحفظ القرآن على قراءة حفص، وجمع القراءات حفظاً عن ظهر قلب، القراءات السبع والعشر، وأقامها على أسس علمية في غاية الإحكام.

وألف مع كل هذه الأعمال الضخمة خمسة وعشرين كتاباً، زوّد بها المكتبة العلمية الإسلامية، تمتاز بمتانتها العلمية، وقوة تأثيرها في القلوب، بإيقاظ الإيمان، وتوثيق الصلة بالله تعالى وبنبيه محمد ﷺ، وقلما اجتمعت هذه الصفات في كتب.

إن لنا عزاءً عظيماً بهذه الآثار الباقية، تحيي الشيخ في القلوب.

فليحرص كل محب للشيخ، وكل حريص على أن ينال محبة الله ورسوله عليها، فإنها طريق عظيم لهذا الهدف العظيم.

آخر كتاب وآخر درس وآخر فتوى:

ونختم هذه النبذة السريعة الموجزة، ببيان آخر كتاب له، وآخر درس له، وآخر فتوى أفتاها:

أما آخر كتاب له طُبِع: فهو ترجمته لوالده الإمام العلامة العارف الشيخ محمد نجيب سراج الدين رضي الله عنه، وهو ترجمة حافلة تبرز ما أشار إليه العنوان: العلم والعرفان.

وأما آخر كتاب له ألّفه: فهو (شرح أسماء الله الحُسْنى) مخطوط لم يكمل.

وأما آخر درس: فقد كان آخر درس له أو ما يمكن أن يعتبر درساً

حديثه المستطاب قُبَيْلَ العملية عن الشكر، وفضله وأهميته: شكر الخالق وشكر الخلق، فالْحَظْ أخي المسلم رعاية الشكر لله عليك، ورعاية شكر الخلق، فقد ثبت «لم يشكر الله مَنْ لم يشكر الناس».

وأما آخر فتوى أفتاها: ففيها عبرة جليلة، قال لأحد الأطباء وهو في غرفة العمليات: بِرَّ مريضك ولو كان كافراً. وكان هذا الطبيب يريد أن يسأل الشيخ عن ذلك، لاعتبار أنه يأتيه أشتات من الناس، ومن غير المسلمين فتوجه إليه شيخنا رحمه الله بهذا القول، فقال له الطبيب: «والله لقد كنت أريد أن أسألك عن هذا، فسبقتني بالجواب». وهي كرامة ظاهرة للشيخ رحمه الله، وما أكثر كراماته...

وما أحوج المسلمين إلى هذا الدرس، إن التقصير في حق الإنسان حرام، ولو كان كافراً، ثم المسلمون يظلمُ بعضهم بعضاً، ويُسْلِمُونَ إخوانهم لعدوهم!! دون تقوى ولا مبالاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

قصائد رثاء من الشعر البليغ

تقدم عدد كثير من المحبين الشعراء بقصائد رثاء بليغة أشادوا فيها بالشيخ وفضائله ومآثره رضي الله عنه، أثبتنا منها هذه القصائد الآتية:

وداعاً أيها العالم الجليل

للشاعر الأستاذ خالد حسن حلاق

حَلَبٌ لنعشك يا إمامُ تودِّعُ ... ونشيجُها رغم التجلد يُسْمَعُ
تبكي وياليت البكاء يعيد مَن ... حكم القضاءُ بأنه لا يرجع
يا شيخَنا هذي الجموعُ توافدت ... بأنينها بدموعها تتوجع
بشبابها برجالها بشيوخها ... جاءت تودع مَن به تتولَّع
شوقاً إليك وفي القلوب صبابَةٌ ... حباً بأعماق الجوى يَتَوضَّع
يا منبراً عرفَ الحقيقة منهجاً ... فغدا مِناراً بالحقيقة يسطع
يا رمزَ كل المخلصين ودُرّةً ... للدين في تاج الزمان ترصّع
يا همسةً حَرّى بليل مظلم ... تهفو إلى رب السماء وتضرع
يا عاشقاً لله تطلب وده ... وبذكره عبر الليالي تخشع
يا أملاً لقياه في جناته ... ها أنت شوقاً لِلّقاءِ تُسارع

* * *

يـوم الـوداع وأي يـوم هـزنـا ... يـوم بـه كـل القلـوب تصـدّع
يـوم بـه بكـت الحجـارة مثلنـا ... حتـى المـآذن والمنـابـر أجمـع
يـوم الـوداع مصيبـة قـد أوهنـت ... أوصـالنـا مـن عـزمهـا نتـزعـزع
زاغت عيون النـاس في أحداقها ... لمـا رأت نعـي الإمـام يُـوَزَّع
فتجمدت فوق الحروف وأشخصت ... نظـراتهـا وكـأنهـا لا تقنـع
هل مات من ملأ القلوب هداية ... هـل مـات مـن لـه مقام أرفـع
هل مات من وهب العلوم هدية ... تُهْدَى لمن يبغي العلوم ويَجْمَع
هل مات من سكن القلوب ولم يزل ... بـالنـور فـي أعمـاقهـا يتـربـع
كادت قلوب الناس تنكر موته ... مـع أنهـا خلف الجنـازة تـدمـع
لـولا يقيـن بـالإلـه وحكمـه ... مـا ظُـنّ بعـد فـراقـه تستـرجـع
ثـم الصلاة على النبي محمـد ... مـا دام ذكـر الله فينـا يُسْمَـع

خالد حسن حلاق

* * *

رثاء العلامة المحدث
الشيخ الإمام عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

للشاعر الدكتور شهاب الدين أحمد فرفور

أجل هو خطبٌ قد تبدَّت عجائبهْ — وأرَّقَ جَفنَ العين والفكرَ صاحبُهْ
فسارت به الركبانُ في كل جانبٍ — بكاءً وأحزاناً وقد طال جانبُهْ
رويداً سراجَ الدين فالرَّزْءُ مُفْجِعٌ — لكل ذوي قلبٍ لأنك سالبُهْ
هداديْكَ لا تعجلْ فَسِرُّك آخذٌ — بأرواحنا والسِّرُّ في الحزنِ طالبُهْ
طلعتَ على الشهبا سواداً فضاءه — صلاحُك حتى قيل من ذا يقاربُهْ
وقمتَ على التعليمِ والهدْي مُخْلِصاً — فأتعبت بالإخلاصِ خصماً يحاربُهْ
وما أكثر الكُذَّابَ في كل موطنٍ — فشأنك فيهمْ مُفحِمُ الشرِّ ضاربُهْ
ولو أن بعضَ الغيبِ أصبح حاضراً — لكُشِّفَ وجهٌ مِنْكَ غابتْ عجائبُهْ

* * *

عرفناك يا ذا الصبر لله طالباً — ومثلك من في الله أضحت مطالبه
عرفناك ذا إرثٍ لكل نبوةٍ — وإرثُ رسول الله دِيْنٌ تُصاحِبُهْ
فعنك أحاديث الرسول تَبَيَّنَتْ — معالمُها والفقهُ فيك مذاهِبُهْ
وعنك مضامينُ التصوفِ حُقِّقَتْ — وفضلُك بين الناس جلَّت مراتبُهْ

ولسـتُ بمـدَّاحٍ ولكننـي امـرؤٌ دخيلٌ عسى أن يمنحَ الجُوْد واهبُهْ

* * *

رويداً سراجَ الدينِ جئنا قوافلاً لنحظى بفضـلٍ منكُـمُ ونـواكِبُـهْ
وعلمتنـا أن التصبُّـرَ شِيْمَـةٌ لكل كريمٍ معدنُ الصدق غالِبُهْ
ولكنَّـهُ رزءٌ تَعـاظـمَ شـأنُـهُ وأحبطنـا حتـى بَـدَوْنـا نُجـانِبُـهْ
وأرَّقَنا حتى غدا الحزنُ وَصْفَنا ففقدُك ليلٌ قد تهاوى كواكبُهْ
وفقدك خُسْرٌ لا يُعَوّضُ بعضُهُ فكيفَ وشعبانيةُ الشيخ ناحبُهْ

* * *

أليس لكـم آثـارُ عَـزَّ حِسـابُهـا أليس لكم جِيْلٌ تجلَّتْ مناقبُهْ
أليس لكم صِهرٌ من الدينِ نورُه تربّى على آثاركم عزَّ جانبُهْ
تعاليتَ ربي قد أخذْتَ سراجَنا ووجهُ سواد الليلِ حُلْكٌ جلابِبُهْ
فهل بعد هذا الحزنِ تعويضُ نقصه بأمثالِ نور الدين فالدينُ راغبُهْ
ولِمْ لا وقد ألفَيْتُ فيه تسامياً لدى العلمِ، والتحقيقُ فيه مواهبُهْ
إلهي سلبتَ الناس لُبَّ لُبَابها فهَبْنَـا مـن التّصْبَـار مـالا نُغـالبُـهْ
وهيّىءْ لنا من أمرنا خير رُشْدِه وأبْدِلْ بنا خيراً فقد غاب آيبُهْ

الراجي من الله شفاعة الشيخ يوم القيامة
الدكتور شهاب الدين أحمد فرفور

٢١/ ذي الحجة/ ١٤٢٢ هـ = ٥/ ٣/ ٢٠٠٢ م

* * *

رثاء العلامة الجليل
الشيخ عبد الله سراج الدين

للشاعر الأستاذ خالد الزيات

على قدم الرسول مضى الإمامُ عبـدُ الإلـه سـراجُنـا البسَّـامُ
هذا الذي أمضى الحياة مجاهداً عـن ديـن حـقٍّ إسْمُـه الإسلامُ
دينٌ تشرَّف فيه طه المصطفى وغـدا بـه للعـالميـن إمـامُ
وإذا بـه شـرف الـزمـان وأهلـه وإلـى القيامـة رحمـةٌ وسـلامٌ
صلوا عليه وسلموا يا إخوتي إن الصلاة على الرسول مقامُ
وبـذا المقام مقامُ شيخٍ وارثٍ حيـث المحبـةُ للـرسـول هُيامُ
حيث الصلاة على الرسول سعادة وعبـادة وشهـادة ووسـامُ
منْ حُبهِ للمصطفى طه الهدى كـل الخـلايـا.. بهجـة وغـرامُ
والروح والجسد الطهور تسابقا مَـنْ منهمـا العَشَّـاق والهيَّـامُ
من منهما كان السَّبوق لطاعةٍ وإذا همـا وَتَـرٌ رمـى وسهـامُ
وَتَرٌ هو الجسد المصلي دائماً والـروح سهـم طـائـر حـوّامُ
تسمو ويسمو في مدارج قدسه فـي روضـةٍ فيهـا الأنـام كـرامُ
في قبـة شمـاء يسطـع نـورهـا وبقلبهـا مَـنْ بـالمحبـة هـامـوا
أهل الشريعة والحقيقة والنُّهى في الفكر والذكر همُ الأعلامُ
العـالِمـون المخلصـون لـربهـم مَـنْ دائمـاً هُـمْ للتقـى إحـرامُ
وهمُ الدعاة الذاكرون لربهم طـول الحيـاة عـن الأذى صُـوَّامُ

طولَ الحياة الناشرون لدينهم ... وبليلهم لإلَهَهم قُوَّامُ
كتبوا بدمع العين كنزَ علومهم ... كم، كم تَعلَّم منهمو أقوامُ
كم، كم من الأجيال عاشوا بالهدى ... من نبعهم والماء ذا الزمزامُ
كم أسسوا من معهد.. من منبر ... من مسجد عنوانه الإفهامُ
شعبان شعبانية قدسية ... فيها ومن شتى العلوم تمامُ
إفهام دين الله.. فَهْمُ كتابِه ... لا.. لا تَعُدَّ، ستعجِزُ الأرقامُ
هيا ومُدَّ مدى المدى نور الهدى ... فمحال من يرجو الإله يُضامُ
والشيخ عبد الله منهم عارف ... ومؤلف وموجه وإمامُ
ثمانون عاماً في عبادة ربه ... وزيادة حيث الرجوع ختامُ
مَن كان نورُ الدين من ثمراته ... طوبى لأصلٍ نِعْمَتِ الأرحامُ
من كان هيَّاماً بحبِّ محمد ... قولاً وحالاً والسلوك علامُ
من ألَّف العشرات من كتب الهدى ... هذا حلال والحرام حرامُ
حلبٌ به قد أُكرمت وتشرفت ... والشام من أرحامه إكرامُ
من جامع الأنوار قلب دمشقنا ... جئنا نعزي والدموعُ زحامُ
قد قال مفتي الشام يا أبناءنا ... هيا اذهبوا إنَّ المصاب كُلامُ
فالشيخ عبد الله قطب عارف ... وسراج دين للورى صمّامُ
صمام أمن للخليقة كلها ... شَرْعُ الإله به.. به الأحكامُ
أهلي وأحبابي جميعاً راحلٌ ... إن الحياة بلا هُدىً آلامُ
بين الولادة والوفاة مساحة ... حيث الشباب رجولة.. أسقامُ
كلٌّ يمر كما النسيم للحظةٍ ... وكما المنام.. وتكثر الأحلامُ
وبلحظةٍ نغدو بقبرٍ مظلم ... وبقدر هذا الجسم فيه مُقامُ
فإذا الحياة بطاعة وعبادة ... القبر روضٌ والملاك كرامُ
هذا وإلا فالمقام بحفرةٍ ... النار فيها والعذاب زؤامُ
طوبى لعبد طاع فيها ربه ... ومضى.. له عند الإله وسامُ
كل الخلائق للإله رجوعُهُمْ ... والله جلّ الراحم الرحَّامُ

الحي والقيوم.. جلّ جلالـه   والكـل فـوق بسيطتـي أيَّـامُ
مهمـا بقينـا عـاش نـوحٌ قبلنـا   ألفـاً ونيـفَ والمصيـر حِمـامُ
صلُّوا على طه الرسول محمّدٍ   صلـوات ربـي دائمـاً وسـلامُ

الشاعر خالد الزيات

٢١ ذي الحجة ١٤٢٢ هـ الموافق ٥ آذار ٢٠٠٢ م

* * *

في رثاء العلامة الجليل
الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله

أنس إبراهيم الدُّغيم
معرة النعمانْ
كلية الهندسة المدنيَّة جامعة دمشق

فاصفخ عن قوافيهِ

لكل شيءٍ وإنْ جلَّتْ مراميهِ   يومٌ وتطوى من الدنيا أساميهِ
جاءتْ إليَّ من الشهبا مطوقةٌ   في صوتها ألمٌ يبدو فتخفيهِ
أتتْ فحين دنتْ منّي شكتْ فبكتْ   فَهَمَّني القولُ شاكيه وباكيهِ
نعت إليَّ سراجاً من مواقده   يسمو الضياء على أبهى مجاليهِ
إذا فتيل سراج الزيت أطفأهُ   أمرٌ بليلٍ أضاع الفِكْرَ ناديهِ
فكيف حين سراج الدين يأخذه   من بيننا قدرٌ جلَّت أياديهِ
يا ربِّ نحن بما قدرتَ راضيةٌ   نفوسنا ثم لم نرتب بقاضيهِ
فإنْ بكينا فلا تعتبْ فذا ألمٌ   والقلب يبكي إذا الآلام تكويهِ
وإنه كان فينا صالحاً وله   بين الهداةِ بدورٌ من مساعيهِ
يا ربّ لا أتألّى إنّما ظنّي   به جميلٌ وظَنُّ الخير تُعليهِ
يا سيدي وهواك اليوم يملؤني   حبّاً فآخذُ وِرْدي من مجاريهِ

لك المعاني على مبنى الكلام بكتْ		كذا مبانيهِ تبكي في معانيهِ
بكى على قلمي حبري فحين بكى		حبري توضَّأ شعري في مآقيهِ
هذي قوافيَّ ذابتْ في محاجرها		وخيل شعريَ يشكو من توجّيهِ
إنّي أنا اليومَ ورقاءُ الهوى وعلى		أفنانِ حبّكَ أشدو من مثانيهِ
يبكيك ما صحَّ من قول الرسولِ كما		يبكي المحيطُ على أغلى لآليهِ
بكى عليكَ بخاريُّ الحديثِ ضحىً		ومَرَّ مسلمُ يشكو فقد واليهِ
ما كان متصلٌ أو كانَ منقطعٌ		إلاَّ ويبكيك تاليهِ وراويهِ
ويَسْتَحِمُّ بدمع الحزنِ مُرْسَلُهُ		فلابنِ ماجةَ بحرٌ من مآسيهِ
رحلْت عنَّا ولم ترحل بوارقكم		عن حاضراتِ هوانا أوْ بواديهِ
نم مستريحاً فنور الدين بعدكمُ		اللهُ مِنْ نُوَبِ الأرزاء يحميهِ
طُهْرٌ سريرتُه بيضاءُ سيرتُه		خضراءُ جيرتهُ حمرٌ مواضيهِ
زهراء طلعته وضاءُ فكرتهُ		غيداءُ عِترتُه بيضٌ لياليهِ
يا راحلاً عن عيون القوم لا عَدِمَتْ		هذي العيونُ ضياءَ طيفكمْ
فيهِ فألفُ ألفِ سلامِ من معارجها		تهدى إليكَ وشعري اليومَ أهديهِ
عليكَ فاتحةُ القرآنِ أقرؤها		وأنظمُ الشّعرَ فاصفحْ عن قوافيهِ
سقاك ربُّ الورى من عين كوثرهِ		ماءً فراتاً وجلَّ اللهُ ساقيهِ

أنس إبراهيم الدُّغيم

* * *

مسك الختام

أدعية للشيخ الإمام

عبدالله سراج الدين رضي الله عنه

دعاؤه عقب إنهاء الدرس:

اللهم صلِ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين.

صلاةً تغفر بها ذنوبنا، وتفرج بها كروبنا، وتنور بها قلوبنا، وتستر وتصلح بها عيوبنا، وتلهمنا بها رشدنا، وتحفظنا بها من كل سوءٍ ومكروه، في الدنيا والآخرة، يا أرحم الراحمين. يا أرحم الراحمين. يا أرحم الراحمين.

اللهم ارحم أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم احفظ أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم فرج عن أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم اجبر كسر أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم اشف مرضى أمة سيدنا محمد ﷺ.

اللهم حققنا باتباع نبيك سيدنا محمد ﷺ ظاهراً وباطناً، حقاً وحقيقةً.

اللهم عطف علينا قلب نبيك سيدنا محمد ﷺ.

وكان في مجلسه الخاص كثيراً ما ينشد هذين البيتين:

إلى بابك العالي مددتُ يد الرجا
ومن جاء ذاك الباب لا يخشى الردى
سألتك يا الله مستشفعاً بمن
ضيا وجهه الوضاء يَبْرُقُ في الدُّجى

* * *

ومن أدعيته رحمه الله تعالى:

اللهم إنَّك أمرتنا بدعائك، ووعدتَّنا بإجابتك، فها نحن ندعوك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا، إنّك لا تخلف الميعاد.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد الفاتح لما أُغلِق، والخاتِم لما سَبَق، والمعلن الحقَّ بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، حَقَّ قَدْره ومقداره العظيم، في كل لمحة ونفسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً، وعلينا معهم أجمعين.

اللهم إنا نسألك إيماناً لا يرتدُّ، ونعيماً لا يَنفد، وقُرَّة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد ﷺ في جميع العوالم، وفي أعلى الجنَّةِ جَنة الخلد.

اللهم اهدنا مِن عندك. اللهم إنَّا نَسألكَ مِمَّا عندك.

اللهم أفِضْ علينا من فضلك. اللهم انشُر عَلَينا مِنْ رحمتك.

اللهم أَنْزِل علينا من بركاتك. اللهم ألبسنا أثواب عافِيَتك.

اللهم بَلِّغنا برحمتك الذي نَرجُوه من رحمتك.

اللهم اجعل لنا من لَدُنْك وَلِيّاً.

اللهم اجعل لنا عندك عهداً ، واجعل لنا من لدنك وداً، إنك لا تخلف الميعاد.

اللهم اجعل لنا من لدنك سُلطاناً نصيراً.

اللهم يا مَن لا يَرُدُّ سائِلَه، ولا يُخيِّب آمله، سألناك متوسلين إليك بخير مَنْ مَدَّ يديه إليك ﷺ فاستجب دعاءَنا، وحقِّقْ لنا رجاءنا.

اللهم بَلَغنا عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ ربَّكم حَيِيٌّ كريم، يَسْتَحيي من عبده إذا رفع يَديه إليه أَنْ يَردَّهُما صِفْراً».

اللهم إنَّا رَفَعنا أيدينا إليك بالذُّلِّ والافتقار، فأعطنا من عطاياك الغِزار، يا عزيز يا غفار.

اغفر اللهم لنا وارحمنا، ولوالدينا، ولمشايخنا، ولكل من له حق علينا، ولإخواننا، ولجميع المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، برحمتك يا أرحم الراحمين، ومغفرتك يا خير الغافرين.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك، وترحَّم، وتحنَّن، على سيد خلقك، وأَحَبِّهِم إلى جنابك، وأكرمهم عليك، وأقربهم إليك، إمام الأَنبياء والمرسلين، وحبيبك الأكرم، ونَبِيِّك المعظَّم، ورسولك الأفضل، شفيع المذنبين، ورحمة الله تعالى المهداة للعالمين، سيدنا وحبيب قلوبنا، وروح أرواحنا، وقُرَّة أعيننا، سيدنا محمد ﷺ، وعلى جميع إخوانه النبيين والمرسلين، وعلى آله وأزواجه، وذريَّته، وأهل بيته، وأصحابه، ومحبِّيه، والتابعين لهم إلى يوم الدِّين، وعلينا معهم أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين، في كل لمحة ونفسٍ، عدد ما وسعه علم الله تعالى العظيم.

* * *

استغاثات
من نظم الشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين رضي الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يا إلهي يا مجيب السائلين ... بالنبيِّ الصادق الهادي الأمين
إشْرح الصدرَ ويسِّر أمرنا ... وأعِنَّا يا قويُّ يا متين
يا إلهي يا رجاء المرتجين ... بالكلام المحكم الحقِّ المبين
بضيا وجهك النور الذي ... نوَّر العرشَ وعمَّ العالمين
بصفاتٍ لك جَلَّتْ يا قديم ... وبأنوار قلوب المؤمنين
بابتهالات الحبيب الأكرم ... سيِّدِ الكونينِ فخر الفاخرين
ببهاء نور وجهِ المصطفى ﷺ ... وضياءِ وسَنَا ذاكَ الجَبين
بسجودٍ تحت عرش الله إذ ... قيل إشفع في العباد أجمعين
بخشوعٍ وخضوع الأتقيا ... ونحيبِ وأنينِ العاشقين
بانكسارِ وافتقارِ الأوليا ... وزَفير وبكاءِ العابدين
بدعاء وثنا أهل الوفا ... بعبادٍ لك خَرُّوا ساجدين
بمصابيح قلوب الأصفيا ... وبإشراق وُجوه المفلحين
بدعا العُبَّاد أصحاب الوداد ... وبتقوى المخلِصين المخلَصين

بتجلِّي القُرْب في وقت السَحَر | بعبيدٍ لك قاموا قانتين
بتجلٍّي الأنس أوقاتَ الوِصال | وفيوض الفتح بالعلم اليقين
بعطاياكَ التي خَصَّصْتَها | فمنحتَ الأنبيا والمرسلين
هَبْ لنا قُرْباً وحبّاً صادقاً | ووصالاً ويقينَ الموقنين
وشهوداً للتجلّي دائماً | بالجمال يا مغيث الوالهين
قد دعوناك بذلٍ وافتقار | فاستجِبْ للمُنْكَسِرْ والمستكين
إن نكن أعصى العُصاة المذنبين | أنت برٌّ أنتَ خير الغافرين
أو تكن زلاتنا قد عَظُمَتْ | بحْرُ غفرانك طمَّ المذنبين
أنت أطعمتَ العباد المسرفين | أنتَ قلتَ: لا تكونوا قانطين
أنتَ قلت رحمتي قد سبقتْ | غضبي ذلك في اللوح المبين
أنتَ قلتَ رحمتي قد وسعتْ | كلَّ شيءٍ لا تكونوا يائسين
أنت قلت واسألوا من فضله | يا كريم أنتَ معطِي السائلين
قد سألناكَ بفقرٍ واضطرارْ | فاستجب للفقرا والمذنبين
وطرقْنا باب عفوٍ يا رحيم | لا تدعْنا خائبين خاسرين
وظننا فيك مصداقَ الظنون | والتجأنا لك طُرّاً أجمعين
وبَسَطْنا أيدياً نرجو بها | فضلك المرجوْ لكل المرتجين
ربِّ فارحم ذلّنا واغفرْ لنا | وأَجِرْنا يا مجيرَ الضارعين
واسْبِلِ السَتْرَ علينا يا كريم | دون هَتْكٍ أنتَ خيرُ الساترين
واختمنْ بالخير يا نعمَ المُجيب | واحْشُرَنَّا في العِباد الصالحين
وصلاة الله تترى دائماً | مع سلامٍ آبِدٍ في الآبدين
لك تهدى يا إمام الأنبيا | ولأهل البيت فخر الطاهرين
ولأصحابك أقمار الهُدى | ولأحبابك ثم التابعين
وعلينا وعلى آبائنا | وعلى أبنائنا والأقربين
ولمن يدعو بهذا النظمِ مِن | قارىءٍ أو سامعٍ والمسلمين

* * *

الفهرس

تصدير الطبعة الثانية: اهتمام عام بالكتاب وثناء عليه ٧
المقدمة: لا يخلو عصر من قائم لله بالحجة ٩
هذا الكتاب: تذكرة للعالم، وقدوة للطالب ودروس لكل إنسان . . ١١

حياة الشيخ الإمام العامة

١٣ ـ ١١٦

بَدْءُ أمر الشيخ وطلبه للعلم . . . . ١٥ ـ ٣٣
رؤيا نبوية شريفة مبشرة ١٥
مولد الشيخ ونشأته وبره بوالديه منذ نعومة أظفاره ١٦
التأهيل المبكر له من والده (وهو درس للآباء مهم) ١٧
ملازمته والده ١٨
طلب العلم والاجتهاد الخاص له الالتحاق بالمدرسة الخسروية،
منبع العلماء وجو الترحيب ٢١
السبق بالدرجات الأولى (التفوق المطلق) ٢٢
الامتحان الشديد في الخسروية قديماً وحديث أم زرع فوَائد قيمة . ٢٣
الاجتهاد في العلم وكيف حفظ أحاديث الكتب الستة ٢٩
أصدقاء الطلب ٣١
المفاجأة: تعديل المناهج وترك الخسروية قبل النهاية بشهرين . . ٣٣

ما بعد المدرسة الخسروية .... ٣٤ ـ ٤٣
تحصيله بإشراف والده الإمام محمد نجيب ٣٤
الأثر السيء لتعديل المناهج في المدرسة الخسروية ٣٥
اجتهاد الشيخ بنفسه ودراسته المطولات ٣٥
مسابقة عجيبة ٣٥
العمل في الدعوة مبكراً ٣٦
الزواج المبارك ٣٦
رحلة الحج الأولى ، وذكر كرامات والده ٣٧
تضلعه من العلوم على أنواعها (شيخ الإسلام) ٣٨
تكاثر أعماله العلمية ٣٨
نيابته عن والده الشيخ الإمام محمد نجيب رحمهما الله ٣٩
أهمية الزاد من أيام الطلب (فاحرص عليه) ٣٩
إعانة الشيخ الوالد ابنه ٤٢
الحدث الضخم في حياة الشيخ (وفاة والده ومخرجه) ٤٢
الصلة مع آل الكتاني ٤٢
جهاد الشيخ الإمام بعد والده .... ٤٤ ـ ٩٣
الحجة الثانية وكانت مع والدته وبره العجيب لها ٤٤
تبرع بدروس كثيرة وفاء بشرط الواقف ٤٤
خطته في دروس المدرسة والخطة الجديدة في التدريس العام ٤٥
إثاراتٌ ضد المنهج العلمي وقد ابتلينا بمثلها ٥٠
مسائل غرائب أثيرت وناقشها الشيخ ٥١
ما مصير فرعون ٥١
العقل والدين ـ نعيم الجنة ٥٢
التوسل وله فيه بحث مطول (نص البحث) ٥٣

تدارك أهل القرى بالتعليم ٦٢
نحن المدرسة: درس بليغ لكل طالب علم ٦٣
المدرسة الرائدة (بشائر) ٦٤
حجته للمرة الثالثة ٦٧
الرحلة التركية ٦٨
طموح واعتدال (حمل الجمل!) ٧٠
افتتاح مدرسة حفظ القرآن سنة ١٣٩٥ وفيه عبرة: نبني ولا نهدم . ٧١
الاصلاح الاجتماعي ٧٢
جمعية التعليم الشرعي وأهدافها الفريدة ٧٣
صلته بأهل العلم والولاية وبشاراتهم له ٧٤
القلق على العمل الصالح! ٧٦
ازدياد صلته برسول الله ﷺ ٧٧
قراءة المولد (وفيه بحث مهم) ٧٧
تكامل مناهجه في التعليم والتربية الإيمانية ٨١
اعتماد زهد النووي لاعتداله ٨٢
الحذر من ارتفاع العلم، ومواجهته بالجد في نشره ٨٣
غيرته على مقام النبي ﷺ ٨٤
فداء أسرى بدر غاية الكمال والحكمة (بحث فريد) ٨٤
بشريات صادقة ٨٩
ورعه في جو المنافسات ٩٠
تركه ضيوفاً من الوجهاء في غرفة الضيوف ٩١
الاحتياط في القراءات الإسلامية (بحث للمؤلف مهم) ٩٢
التحذير من الغلو والتطرف ٩٢
الهجرة إلى المدينة .... ٩٤ ـ ١٠١
توقع مكث قليل ونزوله في الفندق ٩٤

أقمنا بإذن فلا نرجع إلا بإذن ٩٤
قصة النفحة المحمدية ! ٩٥
تأثره الصحي بسبب القلق ٩٧
هجرة البلدة وهجرة القلب ٩٧
وفاة والدته وكيف عرفها ٩٨
قصة نشر كتابه الشمائل ٩٨
بشارة عظمى (قطبية الشيخ) وحقيقة معنى القطب ٩٩
الإشراف على إحداث وافتتاح مدرسة في المدينة ١٠٠
العودة إلى البلاد .... **١٠٢ ـ ١١٥**
أقمت بإذن ولا أخرج إلا بإذن ـ كيف جاء الإذن ؟ ١٠٢
اكتمال الحياة الطبيعية ١٠٣
أول درس بعد العودة ١٠٣
دروسه في الشعبانية والجامع الأموي وبانقوسا ١٠٤
فتح باب الإجازة ١٠٥
العُزْلة ومنهج الشيخ الإمام فيها ١٠٧
مقدمات غريبة ١٠٨
مفاجأة الأزمة الصحية ١٠٩
الحادث الجَلَل : وفاة الشيخ الإمام رحمه الله ١١٠
زحف الجماهير الضخمة ١١١
كيف صلّيتُ صلاة الجنازة ١١١
التشييع في أعظم زحام ! ١١٢
قضية مهمة : التلقين، وما جاء فيه من الإلهام ١١٣
استقبال العزاء ١١٤
مشاركة العالم الإسلامي ١١٥
درس القبول ـ درس آخر بليغ ١١٥

أُسْرَةُ الشيخ الإمام رحمه الله تعالى . . . . ١١٩ ـ ١٢٥
والد شيخنا الإمام ووالدته ١١٩
زوج الشيخ المصونة ١٢٣
أولاد الشيخ الكرام ١٢٣
ترتيب الشيخ الإمام الإداري . . . . ١٢٦ ـ ١٣١
ترتيب الجمعية : ١٢٦
الأبدال ١٢٦
من حكمته الإدارية ١٢٧
كيف التقاعد عنده ١٢٧
الحزم في الأمور المالية والحسابات ١٢٨
رفضه للعمل الطوعي المجاني ١٢٨
التأني في الأمور ١٢٩
سياسته الطلابية ١٢٩
بشرى لطلاب المدرسة الشعبانية ١٣٠
ملامح من شخص الشيخ الإمام رحمه الله تعالى . . . . . . ١٣٢ ـ ١٣٩
وصف عام لمظهره، وإشراق طلعته ١٣٢
انجذاب الناظر إليه ١٣٣
منطقه وكلماته ١٣٤
ضعف صحته من كثرة إعياء جسمه في شبابه ١٣٤
مجالس الشيخ والبركة فيها ١٣٦
أخلاق الشيخ الإمام الكريمة . . . . ١٤٠ ـ ١٦٤
المحبة: وفيها بحث مهم ١٤٠
التواضع : ١٤٤

كرمه وجوده وأمنياته بالغنى ليعلم الأغنياء الكرم ١٤٦
صَـبْرُهُ (أنواع الصبر، وتحقق الشيخ بها على وجه الكمال) ١٤٨
ثقته بالله وتوكله عليه ١٥٠
بره بوالديه: ١٥١
عبادته (بحث مهم: قرب الفرائض ـ قرب النوافل) ١٥٣
ورعه في العبادة وفي المعاملة ١٦١
خشوعه ١٦٢
وفاؤه ١٦٣
منهج الشيخ الإمام العلمي . . . . ١٦٥ ـ ٢٠٢
منهجه في العقيدة: مذهب السلف وبيانه على الوجه الصحيح . ١٦٥
منهجه في التفسير أمثلة: من لطائف تفسيره في مجالسه الخاصة ١٧٩
منهجه في علوم القرآن ـ خواص القرآن ١٨٣
منهجه في الحديث والمصطلح ـ اختياراته فيه ١٨٥
العمل بالحديث الضعيف وبحثه المحقق فيه ١٨٦
منهجه في علم الحديث رواية ١٩١
منهجه في شرح الحديث ١٩٢
منهجه في الفقه ـ وتوسعه في المذاهب الأربعة ١٩٣
منهجه في أصول الفقه ١٩٦
منهجه في الزهد والتصوف ـ اعتماد الشرع ١٩٨
منهجه في اللغة العربية وعلومها ـ شاعريته ٢٠١
آراء الشيخ الإمام العلمية . . . . ٢٠٣ ـ ٢٢٣
اجتهاده في نشر العلم ٢٠٣
خصوصية رأيه العلمي ومسائل منه سبقت وعددناها هنا ٢٠٦
آراء ومناقشات فريدة: (إضافة للمسائل السابقة) ٢٠٧

١ ـ هل كان قبل آدم أوادم: ٢٠٨
٢ ـ آداب طالب العلم والعالم: ٢١١
٣ ـ علامة حب العبد لربه تعالى: ٢١١
٤ ـ لذة العبادة: ٢١٢
٥ ـ القرآن ورمضان: ٢١٢
٦ ـ حول حكمة الصوم: ٢١٤
٧ ـ العبادة مقصودة لذاتها حتماً ٢١٤
٨ ـ كيف نفهم القرآن ٢١٤
٩ ـ مفهوم الرابطة ٢١٥
١٠ ـ التزكية والعلم: (التحذير من فصل أحدهما عن الآخر) . ٢١٧
١١ ـ اختلاط المراتب: و«ثلثا قطب»! ٢١٨
١٢ ـ حصر الوصول إلى الله بورد معين ٢١٩
١٣ ـ بضاعة الإمام الغزالي في الحديث (تصحيح خطأ) ٢٢٠
١٤ ـ تأويل الرؤيا، وتحذير الشيخ من زيادة الاهتمام بها . . . ٢٢١
١٥ ـ لماذا السنة والجماعة؟ ٢٢٢
آثار الشيخ الإمام العلمية ٢٢٤
التوجه العام في عصره لدراسات فكرية وبياننا جانباً للحذر فيها . ٢٢٤
توجه شيخنا وجهة جديدة: علمية إيمانية وعرفانية، وقرآنية حديثية ٢٢٥
أول كتاب يصدره (الإيمان بعوالم الآخرة) ٢٢٥
تسلسل صدور كتبه، وتحديدنا التاريخي لها (وهي خمس وعشرون) ٢٢٦
منقبة لفضيلة العلامة الداعية الكبير الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله ٢٢٦
بشارات عظيمة لشيخنا بكتبه ٢٢٨
آخر كتبه: ترجمته لوالده رحمهما الله تعالى ٢٢٩

تنوع العلوم التي ألف فيها ٢٣٠
خصوصية تفرد بها في كتبه (ومسرد جامع لها) ٢٣١
من ملفوظات الشيخ الإمام رحمه الله (حِكَمٌ ولطائف) .. ٢٣٤ ـ ٢٤٤
١ ـ ليسأل الصادقين ٢٣٤
٢ ـ الله لا يترك ولا يدرك ٣ ـ حقائق الأشياء ٢٣٥
٤ ـ ما هذا البدل ٥ ـ سرُ النظم ٦ ـ سر التسبيح ٢٣٦
٧ ـ ما العشق ٨ ـ المراتب ٩ ـ مُدَلَّلون
١٠ ـ الأدب مع النبي ﷺ ٢٣٧
١١ ـ دين ما هو طين ١٢ ـ ترقيق القلب ١٣ ـ ما يحرِّكها ٢٣٨
١٤ ـ الإفلاس رأسمال ١٥ ـ احذر الإغراب ٢٣٩
١٦ ـ الوارث المحمدي ٢٤٠
١٧ ـ ما ينقص المسلمين ؟ ٢٤١
١٨ ـ حكم على علم ... ما يودون تغييره ؟ ٢٤٢
كرامات الشيخ الإمام رضي الله عنه .... ٢٤٥ ـ ٢٥٦
١ ـ قوة مدده ٢٤٥
٢ ـ كشف عجيب ٣ ـ كشف عن الحضور ٤ ـ تذليل العقبات ٢٤٧
٥ ـ الشعبانية فيها عجائب ٢٤٨
٦ ـ أخبر عن تغير أحوال الجو وتحوله ٢٤٩
٧ ـ معرفة قدوم ابنيه ٨ ـ بشارة للدكتور مالكي ٩ ـ قصة المانجة
.... ٢٥٠
١٠ ـ إجابة سؤال في النفس ١١ ـ كشف عن حال النفس . ٢٥١
١٢ ـ ترخيص كتاب سيدنا محمد ﷺ ٢٥١
١٣ ـ الفراسة الصادقة ١٤ ـ كشف عن الناظر لما لا يحل ٢٥٢
١٥ ـ ضيوف من حمص ١٦ ـ من غير حب لا يثمر ٢٥٤
١٧ ـ تجري الرياح ١٨ ـ علمنا لدني ٢٥٥

أيها الإخوة الأعزاء: ٢٥٧
خطاب يلخص خصوصيات للشيخ ـ عزاء الأمة بما خلف لها . . ٢٥٨
آخر كتاب وآخر درس وآخر فتوى للشيخ ٢٥٨
قصائد رثاء من الشعر البليغ . . . . **٢٦٠ ـ ٢٦٨**
وداعاً أيها العالم الجليل للأستاذ خالد حسن الحلاق ٢٦٠
رثاء الشيخ الإمام للدكتور شهاب الدين فرفور ٢٦٢
رثاء العلامة الإمام للأستاذ خالد الزيات ٢٦٤
رثاء العلامة الجليل: (فاصفح عن قوافيه) للأستاذ أنس الدغيم . ٢٦٧

مِسك الخِتام

أدعية وابتهالات مأثورة للشيخ الإمام رحمه الله ٢٦٩
استغاثات: قصيدة بليغة من نظم الشيخ الإمام ٢٧٢
الفهرس ٢٧٤
كتب للمؤلف ٢٨٣

كتب للمؤلف

في التأليف العلمي المتخصص:

* الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين (الطبعة الرابعة).
* منهج النقد في علوم الحديث (الطبغة الخامسة ـ منقحة).
* معجم المصطلحات الحديثية. (باللغتين العربية والفرنسية، حائز على الجائزة الأولى لمسابقة الدراسات الحديثية، للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ جامعة الدول العربية).
* تصدير معجم المصنفات في الدراسات الحديثية. (حائز على الجائزة الثانية لمسابقة الدراسات الحديثية المذكورة).
* هَـدْيُ النبي ﷺ في الصلوات الخاصة (طبعة رابعة موسعة جداً).
* دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الأول) (العبادات) (الطبعة السابعة).
* دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (الكتاب الثاني) (المعاملات) (الطبعة السابعة).
* دراسات منهجية في الحديث النبوي (الأسرة والمجتمع) (الطبعة الرابعة).
* النكاح في سنن النسائي والأدب في سنن الترمذي (الطبعة الرابعة).
* الحج والعمرة في الفقه الإسلامي (موضح بالمصورات الجغرافية والمخططات الملونة) (الطبعة الخامسة).
* في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز علمياً وبيانياً (الطبعة الحادية عشرة). الثانية: معدلة وموسعة.
* علوم القرآن الكريم (الطبعة السابعة موسعة).
* الإحرام (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت).
* الإحصار (بحث خاص لموسوعة الفقه الإسلامي في الكويت).
* الحج (بحث خاص للموسوعة الكويتية).

* خروج النظم المصرفية عن أحكام الشريعة الإسلامية وطرق علاجها. (خاص بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).
* المسانيد ومكانتها في علم الحديث.
* أصول الجرح والتعديل (الطبعة الثالثة ـ معدَّلة ومنقحة ومزيدة زيادات مهمة).
* خبر الواحد الصحيح وأثره في العقيدة والعمل.
* القرآن الكريم والدراسات الأدبية (الطبعة الرابعة).
* أحكام القرآن في سورة البقرة. (الطبعة الرابعة).
* أحكام القرآن في سورة النساء (من محاضرات الدراسات العليا في التفسير التحليلي).
* آيات الأحكام: تفسير واستنباط (الطبعة الأولى).
* إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام للحافظ ابن حجر (الطهارة والصلاة).
* إعلام الأنام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام (تتمة الصلاة ـ اللباس ـ الزكاة ـ الصوم ـ الحج ـ البيوع) (الطبعة السابعة، الأولى الموسعة).
* في ظلال الحديث النبوي: أول دراسة فكرية اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة (الطبعة الثانية).
* مناهج المحدثين العامة (في الرواية والتصنيف).
* مع الروائع والبدائع في البيان النبوي.

في تحقيق المخطوطات:

* علوم الحديث للإمام ابن الصلاح الشهرزوري. (طبعة سادسة بتحقيق جديد وتعليقات موسعة).
* المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين الذهبي. (طبعة مدققة بتحقيق جديد وتعليقات معدلة وموسعة).
* الرحلة في طلب الحديث، للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب. (الطبعة الرابعة) وهو كتاب فريد يتحدث عن الرحلة في طلب الحديث الواحد.
* شرح علل الترمذي للحافظ ابن رجب الحنبلي. (الطبعة الرابعة). (والأولى بمقابلة جديدة على الأصل، وتصحيح مهم لأخطاء الطباعة وتعديل جوهري للتعليقات).
* إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ للإمام النووي. (الطبعة الرابعة).

❋ نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر (الطبعة الثالثة بمقابلة جديدة، وتعديلات مهمة في التعليق).

❋ هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك، للإمام المحدث الحافظ المجتهد عز الدين بن جماعة الكناني.

بحوث علمية ودراسات ثقافية:

❋ المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام (الطبعة الثامنة).

❋ أبغض الحلال (الطبعة السادسة).

❋ أسس الدعوة وأخلاق الدعاة (طبع الآلة الكاتبة).

❋ تفسير سورة الفاتحة في ضوء السنة النبوية وعلوم البلاغة واللغة العربية.

❋ الأحاديث المختارة من جوامع الإسلام (أملية جامعية).

❋ ماذا عن المرأة (الطبعة السابعة).

❋ السنة المطهرة والتحديات (الطبعة الثالثة).

❋ فِكر المسلم وتحديات الألف الثالثة.

❋ كيف تتوجه إلى القرآن.

❋ تعلم كيف تحج وتعتمر (الطبعة الرابعة)، فيها تعديل مهم.

❋ النفحات العطرية من سيرة خير البرية ﷺ.

❋ الاتجاهات العامة للاجتهاد.

❋ ما هو الحج الأكبر.

❋ الملامح الفنية في الحديث النبوي.

❋ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن وكشف إعجازه.

❋ فقه الإمام البخاري في جامعه الصحيح.

❋ جمع القرآن الكريم وتوثيقه في عهد النبي ﷺ.

❋ كيف تتوجه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها.

صدر حديثاً:

صفحات من حياة الإمام شيخ الإسلام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

رحمه الله تعالى

صفحات من حياة حافلة بالأعمال العلمية الدينية الجليلة، حياة الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني رضي الله عنه.

نقدم هذه الصفحات تذكرة لأهل العلم بما يكون عليه العالِم.

ونقدم هذه الصفحات تذكرة لطالب العلم، ليقتدي بالشيخ فيما أعدّ به نفسه للمستقبل وكيف حفظ القرآن والحديث وحصّل العلوم، وكيف حرص على التلقي من أهل العلم والولاية.

ونقدم هذه الصفحات لكل أب ومربٍّ إرشاداً لتحضير الجيل للمستقبل.

ونقدمها لكل مسلم، بل لكل إنسان صورة يُقتدى بها في التقوى والورع والكمالات.